

مجلة المجمع العلمي

الجزء الثالث ـ المجلد التاسع والاربعون
بغـــداد
١٠٥
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

شروط النشر وضوابطه

١ ـ تنشر المجلة البحوث العلمية ذات السمة الفكرية والشمولية وبما يسهم في تحقيق اهداف المجمع .

٢ ـ لغة المجلة هي اللغة العربية ويراعى الباحثون والكتاب في صياغتهم الوضوح وسلامة اللغة .

٣ ـ يشترط في البحث ان لايكون قد نشر او قدم للنشر في مجلة أخرى .

٤ ـ تعرض البحوث المقدمة للنشر في المجلة على محكمين من ذوي الاختصاص لبيان مدى اصالتها وجودتها وقيمة نتائجها وسلامة لغتها وصلاحيتها للنشر .

٥ ـ هيئة تحرير المجلة غير ملزمة برد البحوث الى اصحابها في حالة عدم قبولها للنشر .

٦ ـ يرسل البحث الى المجلة بالمواصفات التالية :

أ ـ أن يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة او مكتوباً باليد بخط واضح وجيد وعلى وجه واحد من الورقة .

ب ـ ترسل نسخة واحدة من البحث تحمل اسم الكاتب وعنوانه كاملا باللغة العربية .

جـ ـ يجب ان لا تزيد عدد الصفحات عن (٣٠) ثلاثين صفحة وبما لايتجاوز (٧٥٠٠) سبعة الاف وخمسمائة كلمة .

د ـ ان يكون مستوفياً للمصادر والمراجع ، موثقة توثيقاً تاماً حسب الاصول المعتمدة في التوثيق العلمي .

هـ ـ يرفق بالبحث ما يلزمه من اشكال او صور او رسوم او خرائط او بيانات توضيحية اخرى ، على أن يوضح على كل ورقة مكانها من البحث ويشار الى المصدر اذا كانت مقتبسة .

و ـ ان تستخدم في البحث المصطلحات المقرة عربياً .

ز ـ يرفق بالبحث ملخص باللغتين العربية والانكليزية بحدود نصف صفحة لكل ملخص .

ح ـ تكتب الكلمات الدالة باللغة الانكليزية .

٧ ـ يعطي صاحب البحث ـ عند نشره ـ ثلاث نسخ من المجلة مع عشرة مستلات من بحثه .

البحوث لاتعبر بالضرورة عن رأي المجمع العلمي

مجلــة المجمــع العلمــي

مجلـة فصليـة انشئـت سنـة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م



ــ توجـه البحـوث والمراسـلات الـى : رئيس تحرير مجلـة المجمـع العلمي المجمـع العلمـي ــ ص . ب . (٤٠٢٣) بغـداد ــ جمهوريـة العــراق

هـاتف : « ٤٢٢١٧٢٣ ــ ٤٢٢٢٠٦٦ » فـاكس : ٤٢٥٤٥٢٣ / ١ــ ٩٦٤

E-mail : aos@uruklink.net

ــ الاشتراكات : داخـل العراق (٤٠٠٠) دينار سنويا .

خارج العراق (٥٠) دولار امريكي سنويا وتضاف اجرة البريد .

الفهـرس

الموضـوع | الصفحة

تاثـر اوربـة بطـب الانـدلس

الدكتور عبداللطيف البدري

الملخـــص :

عندما أكملت الكنيسة في أوائل القرن السادس الميـلادي سيطرتها على جميع مراكز التعليم الدنيوي في أوربة وكان آخرها اقفال أكاديمية أفـلاطون في أثينا ، كان ذلك ايذانا بانطفاء الحضارة اليونانية لولا أن هيأ الله لها العرب ليصونوها ويبعثوها الى الحياة مجددا بعد أن أغنوهـا بالمعرفـة والتجربـة وأسقطوا منها ما لا يصح الاخذ به •

بدءوا أولا بترجمتها وارجاع الفضل لمن وضعها ومن كتبها • كان ذلك بدءا بالعهود الاموية ثم بلغ الذروة في العهود العباسية وأخيرا جـاء دور عرب الاندلس في استكمال المعرفة واضافة الخبرة والابتكارات ليعيدوه الى أوربة بعد ترجمته الى اللاتينية للاخذ به وجعله المقرر الدراسي فيها لعدة قرون •

في سنة (٥٢٩م) قفل جوستنيان امبراطور بيزنطية أكاديمية أفلاطون في أثينا وكانت هي آخر مركز من مراكز التعليم الدنيوي الذي استطاع أن يفلت من عمليات تخريب الكنيسة • كان هذا الحدث ايذانا بانطفاء مشعل حضارة اليونان لولا أن قيض الله له العرب ليديموا شعلته ويخطوا به نحو آفاق جديدة ، فقد أمر الخلفاء الامويون والعباسيون في الفترة ما بين القرنين الثامن والتاسع الميلادي بترجمة أمهات كتب الطب اليونانية ، ومثلهم فعل رجال الاندلس من خلفاء وأمراء وعلماء وذوي الجاه والثروة بتشجيعهم حركة النقل والترجمة ، فترجموا كتبا طبية كثيرة وأصلحوا بعض التراجم التي قام بها الامويون والعباسيون •[1]

جاء في سيرة أبن جلجل ان كتاب (تفسير أسماء الادوية المفردة) لدسقوريدس تُرجم ببغداد أيام المتوكل وكان الذي قام بترجمته الى اللسان العربي اصطفان بن بسيل ، وقد وردت نسخة منه الى الاندلس وفيها نقص كبير ، انتفع الناس بها حتى عهد عبدالرحمن الناصر (٩١٢ - ٩٦١م) ، ولما لم يكن بقرطبة انذاك من يجيد اللاتينية فقد كتب الناصر الى أرمانيوس ملك القسطنطينية يسأله أن يبعث برجل يحسنها ليعلمها لعدد من الاندلسيين يخصصوا فيما بعد للقيام بالترجمة ، فبعث اليه الراهب نقولا الذي فسر من أسماء عقاقير الكتاب ما كان مجهولا عند جملة الاطباء العاملين على تصحيح أسماء العقاقير فيه ، وكان منهم حسداي بن شربوط ومحمد بن سعيد الطبيب وعبدالرحمن بن اسحاق بن هيثم وأبو عبدالله الصقلي وابن جلجل[2] •

لم تكن الاندلس آنذاك بمعزل عما يجري في الحواضر الاسلامية الاخرى كبغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس ، وكانت المؤلفات التي تظهر في الشرق سرعان ما تجد سبيلها الى الاندلس[3] • ففي عام (٩٣٢م) وصل كتاب الحاوي للرازي[5] ، وعام (١٠٠٩م) أدخل عمر بن جعفر بن بريق كتاب (زاد المسافر وقوت الحاضر) لابن الجزار[5] ، ومثله فعل عبدالرحمن بن اسحق الذي أدخل كتاب (الاعتماد)[5] ، وأدخل الاخوان

أحمد وعمر إبنا يونس الجذامي الحراني[٥] اللذان تتلمذا على سنان بن ثابت في بغداد (٩٧٦م) ، جملة من الكتب الطبية ، وكذلك فعل أبو تمام غالب الشقوري اللخمي الذي درس الطب في القاهرة ، ومحمد بن عبدون الجبلي العددي[٥] الذي دخل البصرة والفسطاط وتولى البيمارستان بمصر قبل عودته الى الأندلس ، ومثلهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة[٥] المتوفى (٣١٥هـ) و (الرباحي) و (ابن دعامة القيسي) و (ابن باز) (٣٦٠هـ) وكان هؤلاء ممن سافروا الى المشرق للدراسة أيضا .

بلغت الاندلس قمة المجد ما بين ٧٥٦-١٠٣٠م ، وكانت قرطبة أول عاصمة للملك ، وزهت غرناطة بين ١٢١٢-١٤٩٢م ، وقامت بين خراب قرطبة ونهضة غرناطة ممالك ازدهرت فيها أشبيلية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة .

كانت قرطبة المركز الثقافي الاول ، وبلغ من ارتفاع شأنها ان شهادة جامعتها كانت السبيل الى الوصول الى أسمى المراتب ، وان حكام ليون وبرشلونة ونافار كانوا يقصدون اليها كلما مست بهم الحاجة الى طبيب أو جراح ، من ذلك ان طوطا ملكة نافار أوفدت ابنها البكر سانجة لمعالجته من السمنة على أيدي أطباء قرطبة[٣] ، ويقال أنه تعلم الطب في هذه الجامعة .

وعندما أصبحت غرناطة قاعدة الملك في عهد دولة بني الاحمر كانت مكتباتها تضم آلاف المجلدات التي نقلت اليها من المشرق فضلا عما وصل اليها من مكتبة الحكم الثاني ، وكان الطب والرياضيات والفلك من العلوم التي تدرس في الجامع الاعظم في غرناطة .

ظهر في قرطبة وطليطلة وغرناطة والمدن الاخرى أعلام في الطب تركوا مؤلفات ذات أثر كبير في رفع مستواه ، فمن أعلام النباتات الطبية في القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري الذي ألف كتاب (أعيان النباتات والشجيرات الاندلسية) (١٠٩٤م)[٥] ، ويونس بن اسحق بن بكلارش الذي ألف كتاب (المستعيني في الادوية المفردة) (١١٠٩م)[٥] . وفي القرن السادس (الثاني عشر الميلادي)

برز محمد بن محمد الشريف الادريسي السبتي[٥] (١١٠٠م) وله كتاب (الجامع لصفات النبات) ، وأبو بكر محمد بن عبدالملك بن طفيل الاندلسي (١١٨٤م) ، وأبو الوليد أحمد بن محمد بن رشد الحفيد (١١٩٨م) ، وأبو القاسم الغساني الشهير بالوزير (١٢٦١م) وكان كتابه (عمدة الطبيب) أوفى كتاب في التعريف بأنواع الشجر ، ومثله أحمد بن محمد السيد الغافقي[٥] (١٢٨٦م) الذي قام بجمع نباتات اسبانية وأفريقية وسمى كلا منها بأسمائها العربية واللاتينية وكان (جامع المفردات) أشهر مؤلفاته التي تبحث في الادوية النباتية ، والذي استقى منه ابن البيطار السالقي الشيء الكثير ، كما ألف محمد بن محمد الشريف الادريسي[٥] كتابا (في النبات) •

أقدم كتاب أندلسي مؤلف في الطب هو كتاب (طب العرب) لعبدالملك بن حبيب الاسلمي الالبيري[٥] (٨٥٣م) الذي جمع فيه أخبار الطب القديم وأصولا فقهية في الطب والعلاج ومعلومات عن الاغذية والادوية والامزجة والطباع ، ووضع عريب بن سعيد رسالة عن طب الاطفال والتوليد في كتابه (خلق الجنين) في سنة (٩٦١م) •

وفي أيام الامير محمد بن عبدالرحمن الاوسط وما بعده برز عدد من الاطباء[٥] منهم جواد النصراني[٥] الذي تنسب اليه بعض مجريات الادوية ، وخالد بن يزيد النصراني[٥] وكان يزاول الجراحة ، وابن ملوكة واسحق[٥] وهما جراحان أيضا • وختم القرن الرابع بظهور موسوعة أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي[٦] (التصريف لمن عجز عن التأليف) وقد ترجمت الى اللاتينية وظلت الكتاب المدرسي في الاندلس واوروبا عدة قرون •

لمعت في القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي)أسماء عدد من الاطباء[٥]، منهم : أصبغ بن محمد بن السمح المهري الغرناطي[٥] (١٠٣٥م) ، وعمر بن عبدالرحمن الكرماني[٥] (١٠٦٥م) وكان جراحا وهو الذي أدخل رسائل اخوان الصفا الى الاندلس ، وعبدالرحمن بن محمد بن وافد اللخمي[٥] وقد ألف كتابا في علم الادوية المفردة ترجم الى اللاتينية وكان من أهم المراجع في

هذا الباب ، ومثلهما عبدالملك بن محمد بن زهر الايادي[٥] (١٠٧٤م) ، وأبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبي (ابن باجة) عام (١١٣٨م) وله كتاب التجربتين على أدوية بن وافد ، وحذق عبدالرحمن بن محمد بن عبدالكبير (ابن وافد الاندلسي)[٩] المتوفي (٤٦٩هـ) في كتابه (الادوية المفردة) فقد جمع ما كتبه دسقوريدس وجالينوس ورتبه أحسن ترتيب وصحح ما ضمنه من أسماء الادوية وصفاتها وأودعه اياه من تفصيل قواها وتحديد درجتها . القاضي صاعد بن أحمد بن صاعد التغلبي[٥] وان لم يكن طبيبا لكنه وضع كتاب (طبقات الامم) وضمنه معلومات هامة عن تطور الطب والصيدلة في الاندلس .

ممن برز من الاطباء في القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) عبدالملك بن زهر بن عبدالملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي[٥] (٤٨٤ــ٥٥٨هـ) الذي اعتبره الاندلسيون أعظم الاطباء بعد جالينوس ، له كتاب (التيسير في المداواة والتدبير) الذي يصف فيه أول مرة خراج التامور والتغذية عن طريق الشرج ، ترجمه الى اللاتينية بارافيجي (١٢٨٠م) وظل الكتاب المدرسي في الاندلس وأوربة أربعة قرون . كما كانت له مؤلفات عديدة منها كتابة (حل شكوك الرازي على جالينوس) و (الرد على أبن سينا في مواضع من كتابه الادوية المفردة) .

كان أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الاندلسي[٥] ، من البارزين في هذا القرن ، وله كتاب (الكليات) وكان قد اتفق مع عبدالملك بن زهر أن يكتب كتابا في الامور الجزئية لكي يكمّل الكتابين ، كما برز في هذا القرن علي بن عبدالرحمن بن جودي السعدي[٥] (١١٣٥م) ومحمد بن يحيى بن ينق[٥] (١١٢٢م) ، ومحمد بن قسوم بن أسلم الغافقي[٥] وكان كحالا ، له كتاب (المرشد في الكحل) . أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ (ابن باجة)[٦] من الافاضل في الطب ، له كتب كثيرة منها ، كتاب النفس وكتاب الادوية المفردة لجالينوس .

في غرناطة اشتهر عبدالله بن الزبير الثقفي[٥] (١٢٤٨م) ، وأبو جعفر أحمد بن محمد الكرني[٥] (١٢٢٩م) ، وابو عبدالله محمد بن ابراهيم الاوسي (ابن الرقام)[٥] (١٣١٥م) ، وعيسى بن سعادة الاموي ، ويحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي[٥] (١٣٥٢م) وسعيد بن أحمد التجيبي[٥] ، ومحمد بن بيش العبدري[٥] ، ومحمد بن عبدالعزيز القيسي[٥] (١٣١٧م) ، وعيسى بن محمد بن سعادة الاموي[٥] ، ومحمد بن ابراهيم الانصاري المعروف بابن السراج[٥] (١١٣٠م) .

ووضع الطبيب أبن البيطار الغرناطي[٦] رسالة دافع فيها عن العدوى بمناسبة انتشار مرض الطاعون في أوربا في منتصف القرن الرابع عشر ووقوف أوربا حياله مكتوفة الأيدي .

كانت قرطبة في القرن العاشر الميلادي المركز العلمي الوحيد في أوربا وكذلك جامعتها ، وكان طالبو العلم من جنوب أوربا يفدون اليها للاستزادة من علومها واكثرهم من الرهبان الذين عاش الكثير منهم بين المسلمين فتعلموا لغتهم وفنونهم وعلومهم ليعودوا الى اوطانهم وينشروا ما اكتسبوه من معارف بين أقوامهم .

في عام (٩٢٥م) أرسل ملك الالمان أوتو الكبير الراهب (جون) مبعوثا الى الخليفة عبدالرحمن الناصر[٧] فمكث في قرطبة ثلاث سنوات تعلم فيها العلوم والثقافة العربية وحمل معه عند عودته عددا من المخطوطات العلمية العربية . وقد تلقى العلم في جامعة قرطبة كذلك عدد من الرهبان من بينهم شخص أصبح فيما بعد بمكانة هامة ، هو الراهب الفرنسي (جريرت) الذي استطاع بطموحه وتدرجه أن يصبح البابا سلفستر الثاني (٩٩٩ ــ ١٠٠٣م) وكان من أوائل المهتمين بالثقافة العربية الذين أدخلوا التعليم الدنيوي الى أوربا ودافعوا عنه على أسس تقدمية ، وهو الذي أدخل الارقام العربية اليها بدل الارقام الرومانية . هناك راهب آخر هو (جيرو) رئيس الدير البندكي

بأفريلاك[١] ، الذي قدم اسبانيا للتعلم فيها وكان عند عودته أول المدافعين عن التعليم الدنيوي في أوساط المدارس الاسقفية •

ممن كان في قرطبة من هؤلاء الرهبان أيضا ، روبرت التشستري[١] العالم الانكليزي الذي قدم اليها لهذه المهمة وترجم كتاب جابر بن حيان ، وكذلك بطرس الفرنسي[١] الذي أصبح فيما بعد طبيب هنري الاول والذي نشر علوم المسلمين أول مرة •

ومن الذين كانوا في طليطلة ، الاسقف ريموند[٧] (١١٢٠–١١٥١م) الذي أسس مدرسة للمترجمين وكانت العلوم العربية تترجم فيها الى اللاتينية ، وقد انتسب اليها الانكليزيان روبرت الكيتوني وأديلارد الباني[١] ، والاخير هو مربي الملك هنري الثاني • وانتسب أيضا الاسقف دومينيكوس[٧] المتوفى (١١٨٠م) وهو من كبار كنيسة طليطلة وكان على رأس المترجمين وقد قام هو ويوحنا بن داود المعروف بالاشبيلي[٧] بترجمة (١٨) كتابا في فروع العلم• كما ترجم اصطفان السرقسطي[٧] (١٢٣٨م) الاقرباذين لابن الجزار ، وترجم ارمنجو[٥] كتابا في تدبير الصحة لابن سينا مع شرحه لابن رشد • وكان الفريد المارسيلي[٧] وناثان المنوي[٧] وسلمان بن يوسف جيوفاني دي كابوا[٧] من مترجمي هذه المدرسة •

جيرارد الكريموني[٩] (١١١٤ – ١١٧٨م) أعظم المترجمين الى اللاتينية بلا منازع ، هو من مواليد ايطاليا وقد استقر في طليطلة واستطاع في العشرين سنة الاخيرة من عمره ان يترجم من العربية حوالي (٨٠) مؤلفا من أهم مؤلفات العلوم ، منها مؤلفات أبقراط التي ترجمها الى العربية اسحق بن حنين، ومنها مؤلفات الكندي وكتاب التصريف للزهراوي ، لكنه لم يكمل ترجمة القانون لابن سينا وقد أكمله بعد وفاته جيرارد السابيوني[١] خليفته في مدرسة الترجمة في طليطلة •

استمرت حركة الترجمة في طليطلة في القرن العاشر ، وكان من أشهر النقلة في هذا القرن ميخائيل سكوت (الاسكتلندي)[٧] الذي ترجم كتب أرسطو وابن سينا وهو اول من ترجم كتب ابن رشد الى اللاتينية •

بلغ الاهتمام بنقل آثار العرب الى اللاتينية أوجه في عهد الفونسو العاشر (١٢٥٢ ــ ١٢٨٤م) وهو الذي أسس مدرسة للترجمة في مرسيه أسند ادارتها الى أبي بكر محمد بن أحمد البرقوطي المرسي[٧] ثم نقلت هذه المدرسة الى أشبيلية وانتُدب فيها اساتذة مسلمون يدرسون الطب والعلوم •

في هذا الوقت ظهر في أوربا رجال من المهتمين بالطب العربي مثل روجرز الثاني[٧] ملك صقلية وهو من ادخل المبدأ الذي وضعه المقتدر (٩٢١م) بعدم السماح للطبيب بممارسة المهنة الا بعد الامتحان ، ومثله الامبراطور فردريك الثاني (١١٩٤ ــ ١٢٥٠م) وريث العرش الصقلي الذي تأثر بالشرقيين ولبس لباسهم وأخذ الكثير من عاداتهم •

مر تأثر أوربا بعلوم العرب في الاندلس بثلاثة أدوار ، الاول : دور التأثير غير المباشر حيث أخذ الاوربيون فيه عن العرب احترامهم للانسان ومبادئهم في المساواة والعدل وسعيهم وراء المعرفة وتقديسهم للحرية وقد حدث هذا منذ أول تماس مع العرب عند دخولهم الاندلس • والثاني : دور الترجمة من العربية الى اللاتينية وانتشار المعرفة العربية في البلدان الاوربية الذي بدأ في القرن العاشر وقد مر ذكره • والثالث : دور الاستعراب الذي يعتبر قمة التأثير العربي بأوربا ، والاستعراب هنا يعني الاخذ بتقاليد العرب وعلومهم •

من علماء دور الاستعراب ، العالم الانكليزي جروستستة[١] وهو أول مدير لجامعة أوكسفورد ، بدأ بقراءة المترجمات العربية وقدم الى الاندلس للاستزادة منها فامتلأت مؤلفاته بآراء ابن قرة ، وكذلك فعل روجرز بيكون[١] تلميذ جروستستة وهو علم من أعلام الغرب الآخذين بمبدأ التجربة الذي يعد مفخرة من مفاخر العرب • كان بيكام[١] من رعيل الاساتذة اللاتين الذين

استقوا معلوماتهم في البصريات عن ابن الهيثم ، ومثله الفونس العاشر[١] ملك قشتالة وكان هذا محبا راغبا في نقل ثقافة العرب الى اللاتين .

ألف سيمون الجنوي[١] قاموسا في المادة الطبية استقاه من مؤلفات ابن ما سويه والرازي وأبي القاسم الزهراوي وعلي بن العباس وابن سينا ، أما جلبرت الانكليزي[١] فرجع كثيرا لابن رشد ، وكذلك فعل جون الجادسني، وبطرس الهرطوق[١] وهذا الاخير هو أستاذ بجامعة بادوا ومن كبار شخصيات الطب العربي المدرسي .

وكان سيمون دي كوردو[١] أول من الف قاموس للعقاقير في الغرب ، شارحا المترادفات اليونانية العربية بالطريقة التي استعملها ابن البيطار نفسها . وقد نقل جون أوف أدرن[١] (١٣٥٠م)وهو جراح انكليزي عن الزهراوي كثيرا من كتاباته كلمة فكلمة . وكان يعقوب دي دوندي[١] أحد من انتشرت عن طريقه المسميات العربية انتشارا واسعا .

جي دي شولياك[١] جراح فرنسي شهير ومن أعلام مدرسة مونبلييه ، تأثر بأبي القاسم الزهراوي ، وأدخل الى الغرب عادة الاحتفاظ بسجلات المرضى وهو تقليد أخذه عن ابن رشد . وملأ نيقولا الفرنسي[١]مؤلفه بشواهد استقاها من جميع المؤلفين العرب ، واعتمد ليونارد البرتابجلي[١] اعتمادا كليا على كتابين ، القانون لابن سينا والكليات لابن رشد .

حدثت في غرناطة سنة (١٤٩٩م) مأساة للعلم العربي في الاندلس وذلك بارتكاب جريمة كبرى[٢] تحاكي جريمة التتر في بغداد ، فقد صادر كسيمناس سيسارس الكتب العربية وجمعها أكواما في ساحة غرناطة وأشعل النار فيها .

هذه بعض الشواهد التي تظهر دور الاندلس في نقل المعارف الطبية الى أوربة ، وتظهر ان علماء الغرب حتى قيام عصر النهضة لم يضيفوا الى المعارف الطبية التي استقوها من العرب شيئا يذكر .

المصـــادر :

١ ـ جلال مظهر ، أثر العرب في الحضارة الاوربية •
٢ ـ سليمان بن حسان الاندلسي (ابن جلجل) ، طبقات الاطباء والحكماء •
٣ ـ شوكت الشطي ، الوجيز في الاسلام والطب •
٤ ـ محمود الجليلي ، مجلة المجمع العلمي العراقي •
٥ ـ محمد العربي الخطابي ، الطب والاطباء في الاندلس •
٦ ـ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء •
٧ ـ محمود الحاج قاسم ، انتقال الطب العربي الى الغـــرب عبر الاندلس ، مركز احياء التراث العلمي العربي في جامعة بغداد •
٨ ـ الدوميلي ، العلم عند العرب وأثره في تطور العلوم •
٩ ـ تشارلس بيرنت ، حركة الترجمة من العربية باسبانيا •
١٠ـ يوجين مايرز ، الفكر العربي والعالم الغربي ترجمة كاظم سعدالديـــن ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد •

تغيرات ملامح البيئـة الاجتماعيـة في العـراق

الدكتور خالص حسني الاشعب

الدكتور علي محمد المياح

الملخـــص :

تغيرت ملامح البيئة الاجتماعية في العراق تغيراً كبيراً تحت وطأة الحوافز ، التي طرحتها على مختلف المستويات ثـورة ١٧ ــ ٣٠ تمـوز ١٩٦٨ المجيدة ، وهو نوع من التغير ارتبط حدوثـه بحصيلة عمليـات مستمرة ، تختلف نوعاً وتتسارع درجة من سنة لاخرى • وقد تركت الثروة التي نشأت وتراكمت من استثمار موارد البلاد استثماراً سليماً اثراً واضحاً على مختلف نواحي الحياة •

وتشمل هذه التغيرات ارتفاع مستوى دخل الفرد ، ونزوح السكان مـن الريف الى المدينة ، وتوسع ميـدان الخدمـات الصحيـة والتعليمية والنقـل والاسكان • كما شهدت الزراعة والصناعة تطوراً نوعياً في تطبيق اسس الزراعة العلمية وطرق الصناعة على نطاق واسع • وقد تركت هذه التغيرات آثارها على حياة الاسرة والمحلة والمدينة والقطر •

المقدمة :

تطور الواقع الاجتماعي في العراق تطورا كبيرا وتغير سريعا بسبب الحوافز التي طرحتها ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز المجيدة على مختلف مستويات الحياة الاقتصادية والاجتماعية من ناحية والتنظيمات التقنية من ناحية اخرى • وهو نوع من التغير ارتبط حدوثه بحصيلة عمليات مستمرة تختلف نوعا وتتسارع درجة من سنة لاخرى • وقد تركت الثروة التي نشأت وتراكمت بفعل استثمار موارد البلاد اثرا واضحا على الانسان وبيئته وأدت الى تغيرات اجتماعية اقتصادية سريعة • وتشمل هذه التطورات ارتفاع دخل الفرد ومستوى معيشته ونزوح القوى العاملة من الريف الى المراكز الحضرية وتزايد أعداد السكان وضغطهم على الأرض ومواردها • وفي خضم ذلك حدث تغير في البيئة الاجتماعية نتيجة اتساع الرقعة الزراعية وتزايد أعداد المنشآت الصناعية الحديثة ويسر الخدمات الصحية والتعليم وتزايد المنشآت الصناعية الحديثة وفي السنوات الخمس الاخيرة تزايد عدد الجامعات والكليات الجامعة فلم تعد هناك محافظة إلا وبها معاهد علمية على مستوى الدراسة الجامعية •

وصاحب هذه العوامل مجتمعة ضغط كبير على الخدمات البلدية عامة ونظرا للتوسع الذي حصل في مختلف مبادىء الحياة وتطوير موارد المياه وترشيد استهلاكها ، اصبحت علاقة الانسان ببيئته في العراق امرا بالغ الاهمية • وهي علاقة في تغير دائم تساير تغير ظواهر السطح ومناظره ، مما يتطلب اهتماما بدراسة العلاقة ومواكبة تطورها • ولكن كثرة جوانب الموضوع تقتضي العناية بدراسة جانب محدد ، ولعل من ابرزها التغير الاجتماعي ، نظرا لما صاحب الحياة الاجتماعية من تغير انعكست جوانبه على الحياة العامة • اذ حدث تغير مؤسسي متزامنا مع تغيرات تنظيمية وظيفية فشمل مختلف النظم ، فضلا عن التغيرات ايكو ـ اجتماعية / البيئة الاجتماعية / ولاسيما في العقدين الأخيرين من القرن العشرين • وعلى هذا الاساس انحصرت هذه الدراسة على التغيرات البيئية الاجتماعية شاملة البيت (الاسرة) فالمحلة فالمدينة فالقطر •

التغير الاجتماعي : معناه ودلالته :

التغير الاجتماعي : يعنى بدراسة ما يصيب النظام الاجتماعي من تحول في بنائه او في وظائفه خلال فترة زمنية معينة وينصب التغير الاجتماعي على هـذا النحو على كل تغيير يصيب تركيب سكان المجتمع • او بناءه الطبقي او نظمه الاجتماعية • او في انماط العلاقات الاجتماعية او القيم والمعاييـر التي تؤثر في سلوك الأفراد وتحـدد مكاناتهم وادوارهم في مختلف النظـم الاجتماعية التي ينتمون أليها • والتغيير الاجتماعي الذي يصيب جانبا واحدا من جوانب المجتمع لابد من ان يقع تأثيره في بقية جوانب المجتمـع ولكن بدرجات متفاوتة ، لان جوانب المجتمع مترابطة متكاملة بنائيا ووظيفيا •

المثال : حدوث ظاهـرة التعليم على سبيل المثـال ، من عوامـل التحضر الاساسية اذا ما استخدمت في بيئة ريفية لان ذلك يؤدي الى حـدوث تطور في قيم افراد المجتمع الريفي وفي مفاهيمهم وما يتعلق باوجه النشاط الانتاجية مثل الزراعة والصناعة ، وما يترتب على ذلك من تحول في التنظيم الاقتصادي وفي الاستهلاك وفي الأسعار وفي الاجور • ان هذه التأثيرات لاتحدث في فراغ وانما يتأثر بها الافراد الذين يعيشون في مجتمع تحدث فيه تغيرات اجتماعية • ومما يجدر ذكره ان هذه التأثيرات في كثير من الاحيان تحتاج الى وقت طويل حتى تصبح ملحوظة • وعندما تعم التأثيرات جميع جوانب المجتمع ومؤسساته الاجتماعية، فانه من السهولة ملاحظة التغيير الاجتماعـي الذي يحدث في ذلك المجتمع • فعندما يشمل التغيير الاجتماعي وتسود تأثيراتـه في المدرسـة ، المستشفى ، المسجد ، السوق ، المنظمة السياسية والاسرة ، يصبـح من السهـل ملاحظة جوانب التغيير على الفرد ويصبح بالامكان تفهم فرديته بعيدا عن أسرته ، كما تنمو روحه الاقتصاديـة فيمـارس اعمالـه مستقـلا عن اسرتـه من الناحية الاقتصادية ، وتنمو بداخلـه روح الطمـوح والمبادأة من جهة اخرى • ولهذا التغيير اثر واضح في حدوث تقسيمات طبقية وحراك اجتماعي وضبط اجتماعي، فضلا عن اثره في النظم السياسية والتربويـة والترويحيـة والقيـم والمعايير

الاجتماعية .. الخ وعليه فان التغيير الاجتماعي يجب ان يشمل جميع مظاهر الحياة الاجتماعية لتحقيق نوع من التوازن والاستقرار النسبي والاستمرارية الناجحة . اما اذا اقتصر ذلك التغيير على عامل واحد او مؤسسة واحدة دون غيرها فانه سيؤدي الى حدوث هوة اجتماعية كبيرة بينها وبين مؤسسات المجتمع الأخرى ، وبين هذا العامل وعوامل المجتمع الأخرى . فأنشاء مستشفى في احدى القرى دون ان يسبق ذلك انشاء مدرسة او أي مؤسسة توجيهية اخرى يؤدي الى عدم ادراك الافراد لاهمية العلاج او التوجيه الاجتماعي ، فينصرفون عن العلاج واساليبه وارشاداته والوقاية من الامراض ، نتيجة لعدم تهيئتهم اجتماعيا لتقبل الاساليب العلاجية الحديثة وعلى ذلك فان المدخل الشامل للتغيير الاجتماعي مضمون النتائج الايجابية لتطور ذلك البلد او المجتمع .

ويعني مفهوم التغيير الاجتماعي من ناحية أخرى البناء او الهيكل التأسيسي للنظام الاجتماعي ، في مدى تفاعله بأحداث الانسان الخاصة والعامة أو بعبارة أخرى في قدرته الفكرية على تحديد موقعه في الحياة والكون واتخاذه موقفا ايجابيا من تلك الاحداث وبذلك تكون الافكار القوة الدافعة في حياة الشعوب والافراد ، حين تولد تلك الافكار من ادراك الانسان لذاته في واقع مجتمعه أو بيئته أو العالم الذي يحيط به . ولما كانت الافكار بما تحمله من تأثير مباشر في شخصية الفرد وسلوكه الاجتماعي هي روح الثقافة في كل عصر من عصور التاريخ والحضارة . وقد صار التغيير الاجتماعي جانبا ثقافيا له أهميته النفسية والفكرية في حركة المجتمع بصورة خاصة والتطور الحضاري لذلك المجتمع بصورة عامة . فكثيرا ما تقرأ قصيدة ما لشاعر عربي محدث يمزج فيها نضاله الاجتماعي والقومي والانساني وهو مزيج يوحي به الفكر الذي يؤمن به الشاعر انسانا وفنانا من وجهة نظر التحصيل الادبي والنقدي ، ولكنه سلوك اجتماعي يفرضه الايمان بالمبدأ والعقيدة السياسية من وجهة نظر التحليل الاجتماعي للشعر باعتباره مصدرا مهما من مصادر الثقافة العربية « فالانسان لن يكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية انسانية

الا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وأخلاق حسنة » • وبذلك تكون القيمة الفنية في التجربة الشخصية مثلا « باعتبارها ضربا من الثقافة » ذات ارتباط بالمعيار النقدي والاجتماعي الاخلاقي في الوقوف على الجوانب الجمالية والابداعية فيها • وبهذا يرتبط العنصر الثقافي بالعنصر الاجتماعي ارتباطا عضويا يؤلف مع الاستعدادات العقلية الاخرى عند الافراد جوهر الحضارة التي يفترض فيها أن تكون ذات وجه انساني ، ومنها الحضارة العربية المتمثلة في سلوكها الاجتماعي وحركتها الثقافية ذات الجذور التاريخية العريقة التي أثرت في العالم وتأثرت به الى الحد الذي لم يفقدها خصوصيتها القومية واصالتها الفكرية • ومن ذلك كله ، نجد أن : تاريخ ثقافات الشعوب ، والمجتمعات ، هو تاريخ التغيرات الاجتماعية التي حدثت فيها في حقبة من حقب التاريخ ، بتأثير عوامل سياسية ودينية واقتصادية ، لذلك فان فهم أي ثقافة من ثقافات الشعوب واستيعابها يجب ألا ينفصل عن فهم التغيير الاجتماعي الذي هو السبب الرئيسي في احداثها ، وهو الذي تأثر بها ضمن تاريخ العالم • اذ لايمكن فهم تاريخ بلد ما ، كما يقول (أرنولد توينبي) •• اذا أنت فصلت أراضيه عن خريطة العالم وضربت صفحا عن كل ما نشأ خارج حدود هذا البلد بعينه • فالفكر الخلاق القائم على الاصالة والابداع والمؤمن بوجود الفرد عضوا فعالا في حركة المجتمع هو الوسيط المشروع بين الثقافة والتغيير الاجتماعي ، أو بعبارة اخرى هو عامل الارتباط الطبقي بين المبدع وسلوكه الاجتماعي ، بين الفكر وانعكاساته في الواقع بين الثقافة باطارها القومي والثقافة باطارها الحضاري الانساني الشامل •

ومن ذلك كله نستنتج أن التغيير الاجتماعي ، لايحدث من فراغ بل يشمل عناصر عديدة أهمها تغيير ما يحمله الفرد من ثقافات وأطر وقيم ، تأتي بلا شك من حصول تغيير في مؤسسات المجتمع وجوانبه وظواهره ، ابتداء من الاسرة ، المؤسسة الاجتماعية الاولى ، وهكذا مع باقي المؤسسات التي ينخرط بمسؤولياته فيها شيئا فشيئا •

عوامل التغيير الاجتماعي :

ان التغيير الاجتماعي يأتي مصاحبا لعوامل اجتماعية أهمها :

١ ـ العامل الجغرافي : لا شك في ان البيئة الجغرافية التي تشتمل على مساحات مناسبة من الاراضي الصالحة للزراعة والتي تتوافر فيها وسائل الري مع اعتدال المناخ تشكل عاملا مساعدا للتغيير الاجتماعي اذا ما توفرت الرغبة في التغيير لدى سكان تلك المنطقة • بمعنى ان البيئة الجغرافية لاتقوم بالتغيير وانما من الضروري تفاعل البيئة الجغرافية وقيام سكانها بذلك التغيير •

٢ ـ العامل السكاني : حيث أدت (على سبيل المثال) كثرة السكان وضعف الواقع الاقتصادي الى كثرة الهجرة وما يترتب على هذه الهجرة من تغيرات في الطبقات السكانية في المنطقة التي حدثت فيها الهجرة والتي تمت اليها الهجرة فضلا عن اختلاف القيم والمعايير والعلاقات الاجتماعية وما يترتب على الهجرات غير المخططة من مشكلات اجتماعية •

٣ ـ العامل النفسي : ولهذا العامل أثر أساسي في إحداث التغيير الاجتماعي حيث وسائل الاتصال الجمعي والاذاعة والتلفاز والاختراعات الانتاجية وغيرها من التكنولوجيا الدينية والتي نقلت المجتمعات من العزلة الى الاحتكاك ومرحلة خالية من المساحات بوجود شبكات الانترنيت وغيرها•

٤ ـ المؤثرات الفكرية : الاثر في نقل البشرية بجوانب حياتها المتعددة من حال لآخر •

٥ ـ التبادل الحضاري : يتم التبادل الحضاري عن طريق الاتصالات بين المجتمعات المختلفة وما يترتب عليها من تعاون في النواحي الانتاجية الامر الذي يؤدي الى عمومية ظاهرة الانتشار الحضاري • وقد يكون الاتصال بين مجتمعين محليين داخل المجتمع أحدهما متحضر والآخر لا يزال على مستواه الريفي البدائي • ولهذا الاتصال أثره أيضا في تكامل الحضارة الشعبية في الريف مع الحضارة القومية في المدينة •

٦ ـ مستوى القيادة : حيث القادة الذين يعملون على وضع خطط اجتماعية واقتصادية وتنفيذها على أسس علمية تؤدي الى تغييرات اجتماعية جذرية عميقة • ان هذه التغيرات تظهر على مستويات مختلفة تتدرج في السعه من الاسرة حتى تشمل المجتمع في مختلف انحاء القطر وحتى تتضح هذه العلاقة لابد من عرضها حسب تدرجها •

التغيير الاجتماعي والاسرة :

تعد الاسرة من أكثر المؤسسات الاجتماعية ولا سيما في المجتمع من حيث انها اقدم التشكيلات الاجتماعية في الحياة البشرية ومن حيث عموميتها ووجودها في مختلف المجتمعات البدائية والقديمة منها وكذلك المعاصرة والحديثة ، فهي موجودة في كل الازمان وجميع المناطق الجغرافية التي عاش فيها الانسان • وبقدر تعلق الامر بشأن علاقة الفرد بالعائلة فان هذه الاسرة المؤسسة الأساسية في المجتمع هي أساس حصول التغيير الاجتماعية ويبدأ ذلك من عمليتي التكاثر والتوالد وتربية وتنشئة الاطفال قديما وحديثا ، كما يعد تنظيم الاسرة ، التنظيم الاول لجماعات المجتمع من حيث الاتجاهات والمواقف والقيم والعادات والتقاليد ولها التأثير الاساسي في التغيير الاجتماعي اذا ما قورنت مع بقية المؤسسات الاخرى الموجودة في المجتمع والتي تساهم أيضا بنفس المهمة في التغيير الاجتماعي •

ان النظام الأسري موجود في المجتمعات القديمة والحديثة لكن هذا النظام بالتأكيد يختلف عن النظم الاجتماعية الاخرى كما يختلف هذا النظام حديثا عن قديمه ، على الرغم من التشابه بين الاطر العامة له بين الحديث والسابق ، فقديما كانت الاسرة تشبه الى حد ما الاسرة في صورتها الحديثة وذلك من حيث حجمها المحدود ووظائفها المتنوعة التي تؤديها داخل المجتمع • فالأسرة على سبيل المثال بين سكان استراليا وأمريكا الاصليين تتضمن جميع أفراد العشيرة ، فلا يوجد فرق بين الأسرة والعشيرة ، حيث لا يرتبط الافراد بصلة الدم وانما على أساس انتمائهم لرمز العشيرة ، ويرجع وجود هذا النظام

الأسري الى اليونان والرومان قديما ، حيث كانت الأسرة تضم جميع الاقارب وكل من يتبناهم رئيس الأسرة أو يدعي بقرابتهم هم أعضاء في الأسرة ولهم من الحقوق والواجبات كبقية الاعضاء الاخرين • وعلى هذا الاساس فان العضوية كانت تقوم على الادعاء ورئيس الأسرة يستطيع أن يعلن اعترافه وعدم اعترافه بالاولاد • اما عند العرب قبل الاسلام فكانت الأسرة تجمع الاقارب والموالي • والقرابة تعتمد على الادعاء على صلات الدم وقد لا يلحق الولد بأبيه الا اذا حاز على اعترافه به ، ولقد وصلت الأسرة في المجتمعات المعاصرة مرحلة الاستقرار وأصبحت أكثر ضيقا عما هي في السابق فهي غالبا ما تضم الزوجة والزوج والاولاد ، ولو ان هذا لايمنع من وجود اشكال أخرى للأسرة في بعض المجتمعات البدائية والمتخلفة ، التي تختلف في وجوه عديدة عن الأسرة الحديثة سواء من ناحية البناء الاجتماعي لها او الوظائف التي تتكون منها •

التحضر والتصنيع والتغيير الاجتماعي للاسرة العراقية :

ظهرت تغيرات عديدة للاسرة العراقية قديما وحديثا نتيجة عوامل التحضر والتصنيع ، حيث كانت الأسرة العراقية التقليدية أسرة أبوية كبيرة ممتدة تتميز بالنسب الابوي والسكني الابوية ، والتعاون الاقتصادي وتنشئة الاطفال ورعايتهم • وهي بكونها وحدة كبيرة تعمل على اشباع حاجات أفرادها وترابطهم وعلى المحافظة على الجنس ، كما أن كل فعاليات الفرد تتجه نحو تحقيق أهداف مشتركة واحدة ، وتتجه هذه الاهداف نحو الداخل فانها تقوم بكل وظائف المجتمع الحيوية ومن مواصفات هذه الأسرة هي :

١ ــ وحدة مسيرة من قبل التقاليد حيث تحدد التقاليد والاعراف تركيبها وأدوار ومراكز أفرادها ووظائفها •

٢ ــ انها أسرة مركبة ممتدة حيث تتكون من عدة أسر نواة اتحدت عن طريق قرابة الدم والنسب الابوي والسكني الموحدة والمصلحة المشتركة

لتكون وحدة واحدة تخضع لرئيس واحد هو الاب ، أي ان الارتباط يكون عن طريق الرجال .

٣ ـ انها وحدة كبيرة نسبيا وذلك لانها مكونة من مجموعة نوي اضافة الى كثرة الانجاب وتشجيع النسل الذي يدل على القيمة الاقتصادية والاجتماعية والدينية العالية الموضوعة عن الاطفال كما أن كبر حجم الأسرة يعتمد على عوامل اخرى على سبيل المثال الأسرة الريفية ، تعد وحدة اقتصادية منتجة مستهلكة وشبه مكتفية ذاتيا ولذا فان الحاجة الى اليد العاملة لتساهم في عملية الانتاج هي التي تدفع الى كثرة الانجاب ، فضلا عن كثرة الاولاد تعد عملية ضمان ماديا ومعنويا للعائلة عند الكبر ، ويتوقع ان يعيلوا والديهم عند الشيخوخة . فضلا عن أهمية كثرة الانجاب خاصة البنون الذي يؤدي الى قوتها وعلو مكانتها وأهميتها في المجتمع . وكذلك فان عملية تعدد الزوجات من الامور المهمة في الاسر الريفية حيث يؤدي الى نجاح العاملين في زيادة اقتصاد الاسرة وفي علو شأنها وقوتها .

٤ ـ تعد الامية عاملا فعالا في كبر حجم الاسرة واعاقة تنظيم نسلها ، حيث الفئات غير المتعلمة وبالتالي كانت أقل طموحا نحو تحسين مستواها الاجتماعي والاقتصادي واكثر قناعة بما فرض عليها الحال ، كما انها تجهل طرق النسل ووسائله وتنظيمه وكيفية ممارستها بصورة صحيحة، ويتخذ الكثير من الاسر وأغلبها من الريف حافزا مشجعا لذلك ، حيث يزداد اعتقاد أعضاء الاسرة الريفية بأن كثرة الانجاب يمثل شفاعة للوالدين وخلاصا للروح وضمانا للنفس في الدنيا والآخرة وهو ثوابا وعملا خيرا ومن قوة الايمان .

٥ ـ تكون العلاقات الأسرية ضمن الأسرة التقليدية ومراكز وأدوار أفرادها محددة مسبقا من قبل التقاليد والاعراف ، ولذا فهي تتميز بالاستقرار والثبات الى حد كبير .

٦ ـ تكون العلاقة بين الجنسين سواء الابوين أو الاخوة علاقة غير موازنة ، اذ تمثل علاقات سلطوية تظهر فيها عدم المساواة ، فلرب الاسرة سلطة مطلقة على أفراد اسرته البالغين والقاصرين ذكورا واناثا ، وبالنسبة لامورهم العامة والخاصة . فالاب يحدد سلوكيات الزوجة والابناء والاخ الاكبر كذلك في حالة غياب الاب .

٧ ـ تتميز العلاقة الزوجية بالقناعة والاستقرار وهدفها الانجاب وتنشئة الاطفال .

٨ ـ تظهر عدم المساواة واضحة بين أفراد الاسرة حيث سلطة الذكر على الاناث والاكبر على الاصغر .

٩ ـ تحتكر الاسرة الريفية القيام بوظائف اقتصاديه تربوية دينية وترفيهية وغيرها ونادرا ما تسمح للمنظمات الخارجية بمساعدتها في ذلك .

١٠ـ يعد الزوج عملية اتفاق بين جماعتين أو أسرتين ، فهو شيء أسري يتضمن اعباء والتزامات عائلية متعددة . وهو يقوم على التلائم في المكانة الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والتشابه الديني والعرقي ويركز على السمعة والشرف . أما العوامل الشخصية كالتفاهم والتعاطف بين الزوجين فلا أهمية لها بالنسبة لاختيار الزوجين كما يفضل الزواج المبكر ضمن هذه العوامل .. وكذلك الزواج الداخلي أي من داخل الاقارب .

١١ـ نتيجة تميز الاسرة الريفية بالاستقرار الظاهري وذلك لتحديد التقاليد مراكز الزوجين ودورهما لذا فان نسبة الطلاق تكون منخفضة ، الا ان هذا لايمنع من وجود الصراع الخفي بين الطرفين .

١٢ـ تكون نسبة المشكلات الاسرية منخفضة نسبيا وذلك لقناعة أفرادها بأدوارهم ومراكزهم وقبولهم للحياة على أنها (قسمة ونصيب) وعليهم قبولها على علاقتها فنجد انخفاض في نسبة الطلاق والاجرام وجنوح الاحداث .

التغيرات الحاصلة على الاسرة في ظل التطورات التقنية :

مما يجدر ذكره ، ان ما تتضمنه كل حقبة زمنية معينة أحداث وحقائق مختلفة تمام الاختلاف عن أحداث سابقتها ولاحقتها . ويعد التصنيع وانتشاره شكلا من أشكال الحياة الاجتماعية له الاثر الاكبر في تغيير مميزات الاسرة عما كانت سابقا . فعند النظر الى متطلبات التصنيع الذي يعد العامل الاول في تغيير النظام القرابي للاسرة لوجدنا ان اول صفة للعمل الصناعي هو ان الفرد يكون له عمل على اساس مقدرته في انجاز ذلك العمل وليس للقرابة تأثير على المكانة المهيئة لهذا الفرد . كما ان هذا العمل يتطلب منه سلوكا مناسبا لطريقة أدائه وبالتالي فان المجتمع الصناعي يتطلب طبقة مفتوحة في كل مجالات التحرك الاجتماعي والجغرافي . فلقد أصبح الفرد حرا في الحركة والانتقال من مجال عمل الى آخر فضلا عن ان مكان السكن المستقل الخاص بالأسرة النواة حرر الفرد من الروابط القرابية الخاصة بمكان اقامة أسرته . ولقد تحرر الفرد من شبكة العلاقات القرابية وأصبح أمامه امكانية في التدرج الى أعلى في مجال العمل . وهذا لايعني انه أصبح لا يدين لاقاربه بالكثير كما انه أصبح حرا في تغيير اسلوب حياته وطريقة ملبسه وكلامه لكي يتلاءم مع وضعه في الطبقة الجديدة دون أن يكون عرضة لانتقاد أقاربه وتدخلاتهم . وقد أدى عاملا التصنيع والتحضر دورا كبيرا في مكانة المرأة الاجتماعية والاقتصادية نتيجة لتغيير وظائف اعضاء الاسرة وأدوارهم . فاتجاه البناء الأسري نحو الشكل الزواجي الصغير أدى الى فقدان الاسرة الكثير من وظائفها التقليدية التي كانت تؤديها بمساعدة الاقارب . وظهرت مؤسسات متخصصة جديدة تقوم بانجاز هذه الوظائف ، حيث أتاح النمو الصناعي الفرصة امام التحرر والمساهمة في العمل والحصول على الاستقلال . كل هذه الامور جعل من الاسرة وأعضاءها ينظرون الى الارتباط القرابي نظرة جديدة متلائمة مع روح الحضارة الجديدة، حيث لم تعد هناك تأثيرات واضحة على الابناء من الاقارب ، وفي الوقت نفسه لم يعد الابناء ملتزمين بالمسؤوليات القرابية كما كانوا سابقا ، اذ أدت ظاهرة

التحضر والتصنيع الى سهولة الاتصال بين الافراد والجماعات وتحقيق درجة من التداخل والاتصال فيما بينهم ، فضلا عن ان النمو الصناعي الحديث ادى الى ظهور مكانة اجتماعية عالية في المجتمع تعتمد بالدرجة الاساس على المهنة والدخل والقوة ولا تعتمد على النسب والرباط القرابي ، اذ يعتمد المجتمع الصناعي المتحضر على المقدرة والمهارة والخبرة الفردية ، فمكانة الفرد في الترتيب الصناعي لا تحدد بالنظام القرابي لانها تحتاج الى قدر معين من التدريب والتأهيل الفني الذي بدونه لا يستطيع الفرد من ممارسة وظيفته في هذا النظام ، وهذا ما عزز فكرة الاعتماد على النفس والتدريب والمهارة الفنية ، كما وان احتساب الاجور وتحديدها تعتمد على هذا المستوى الفني وليس على أي شيء آخر فضلا عن ان الترقية والترفيع والنقلة المهنية والمكانات، كل هذه الامور تخضع الى كفاءة الفرد وقدراته على ما اكتسبه من مستوى ٠

ويمكن ايضاح أهم مميزات الأسرة في ظل التصنيع والتحضر بما يأتي :

١ ــ ضعف حكم التقاليد والعادات على سلوك الافراد ٠ وتغير العلاقات الاجتماعية حيث تصبح ثانوية منفعية بازدياد الادوار الشكلية ٠

٢ ــ أصبحت وحدة صغيرة نسبيا حيث غالبا ما تستقل في سكنها عن بقية الاقرباء ، فهي صغيرة نسبيا كونها تتكون من الابوين والابناء ، وقد يعيش معهم أحد الاجداد ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، لازدياد الاتجاه نحو تنظيم النسل كان هذا الصغر النسبي ٠ كما ان خروج المرأة للعمل من الاسباب التي دعت الى تفضيل الاسرة الصغيرة والاهتمام بتنظيم النسل كي يتسنى لها التوفيق بين عملها ووظيفتها الاسرية ٠ فضلا عن هذا فان صغر حجم الأسرة يرجع الى رغبة العائلة الحديثة في المحافظة على مستوى معاشي معين يتلاءم وطموحاتها مع دور هذه الأسرة في عملية التنمية ٠

٣ ـ فقدت الاسرة الحديثة بعض صفات الوظيفة الاقتصادية اذ لم تعد وحدة منتجة مستهلكة ومكتفة ذاتيا ، فقد أصبح الابوان العاملين الاساسيين في الاسرة والابناء هم المستهلكون الاساسيون ، اذ ان انشغال الابناء بالدراسة ومواصلة التعليم يعني ابتعادهم عن المساهمة الفعالة في العون الاقتصادي للاسرة •

٤ ـ ما زالت الاسرة تقوم بالوظيفة التربوية ، حيث تمثل مجتمع الطفل الكلي فتحول الطفل من الكائن الحيواني الى الاجتماعي بفعل عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها • وهي بذلك تؤدي الوظيفة العاطفية فضلا عن الوظيفة التربوية ، اذ تعد السبيل الاساسي في اشباع حاجات الطفل الاساسية البايولوجية والنفسية والاجتماعية •

٥ ـ أصبح للزواج مفهوم شخصي بين الافراد والأسر حيث لا علاقة أساسية للاقارب في اختيار أو رفض شريك الحياة كما انخفضت نسبة الزواج من الاقارب وأصبح الزواج الاحادي هو المفضل وانخفضت نسبة الزواج المتعدد لاسباب اقتصادية وثقافية • وازدادت نسبة الزواج بين الفئات المختلفة عرقيا وقوميا ودينيا واقتصاديا •

٦ ـ ساعد تعقد الحياة وطموح الشباب الثقافية والوظيفية على ارتفاع سن الزواج ضمن هذه الاسر •

٧ ـ ما زالت بعض شكليات الزواج وتقاليده متبعة عند عدد كبير من السكان على الرغم من أنها بدأت تضعف بالسنين الاخيرة ، حيث لا زال المهر ومتطلبات الزواج تشكل عبئا على الشباب ضمن غالبية حالات الزواج•

مراحل تغير الاسرة :

ومن الاهمية بمكان ، بعد ذكر بعض مميزات الاسرة قديما المتمثلة بالاسرة الريفية وميزات الاسرة الحديثة المتمثلة بأسرة التصنيع والتحضر ، لابد من عرض وشرح له :

« مرت الاسرة العراقية بمراحل انتقالية كبيرة وسريعة وما زالت تمر بها لا سيما في ظل الظروف الاستثنائية التي تعيشها كالحروب والحصار الاقتصادي الظالم • ونظرا لان من مظاهر الانتقال السريع ظهور متناقضات وسلبيات وصراعات حول المعايير والمقاييس والمفاهيم ، فان ذلك يولد مشكلات متعددة لا مفر منها ، وبالتالي كان من الضروري دراستها والحد منها ، وقد بدأت في العراق بوادر هذا الصراع منذ الاربعينيات حيث ظهر الصراع بين نوعين من القيم وهي :

القيم التقليدية والقيم والاساليب الحديثة ــ التي تظهر بين الجيل التقليدي القديم والجيل الحديث ــ التي أدت الى ظهور الصراع بين الوالدين والابناء والاجيال السابقة كالأجداد ، كي تتجسد أيضا تلك الصراعات في اختلاف القيم الدينية والقديمة حول مفهوم الزواج واختيار الشريك والعلاقات العائلية العامة والخاصة ، وكل ذلك أدى الى ارتفاع في نسبة المشكلات العائلية والاجتماعية والنفسية والصحية والعلمية على سبيل المثال :

ــ ارتفاع نسبة ظاهرة الطلاق •

ــ ارتفاع نسبة ظاهرة الجنوح بين الافراد •

ــ ارتفاع نسبة ظاهرة الزواج المتأخر او العزوف عنه •• الخ من المشكلات •

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الا ان هذه النسب والظواهر هي قليلة في المجتمع العراقي اذا ما قورنت بالمجتمعات النامية والغربية الاخرى • وكذلك اذا ما أخذ بنظر الاعتبار الظروف الاستثنائية التي عاشها وما زال يعيشها القطر العراقي ، والتي كانت هي الاخرى آثارا واضحة في ظاهرة التغيير الاجتماعي ، وكما هو واضح في الواقع الحالي الذي نعيشه ، وكذلك كما أشارت اليه الدراسات والبحوث التي أجريت في المجال الاجتماعي والمجالات الاخرى حيث الاشارة الى :

١ ـ عزوف نسبة كبيرة من الشباب والشابات عن الزواج ، بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشها القطر العراقي وأسره ، إذ من الصعوبة ايجاد سكن مستقل لتكوين أسرة مستقلة .

٢ ـ انعكاس ظروف العدوان والحصار على قطاع الخدمات عامة ، في مؤسسات القطر ولا سيما قطاع النقل والمواصلات . فأصبح من الصعب شراء سيارة خاصة بالاسرة وأفرادها مما كان له الاثر السيء في المجال التربوي على سبيل المثال ، حيث من الصعب وصول التلاميذ والمدرسين والمعلمين الى مؤسساتهم التربوية حسب الاوقات المحددة للدوام الرسمي .

٣ ـ بسبب تفاقم الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والصحية والنفسية الناتجة في ظروف الحرب والحصار ، عادت الى الواقع الاسرة الممتدة ، حيث يضطر الابناء المتزوجون للسكن مع الأسرة الأم ، على الرغم من الحصول على بعض الاستقلالية المتمثلة بالاعمال الوظيفية وتحقيق الاهداف الشخصية .. الخ .

٤ ـ نجم عن تعقيد الحالة المعيشية الناتجة عن الحصار الظالم وارتفاع الاسعار بأن اضطر العديد من التلامذة والطلبة الاحداث والشباب الى ترك الدراسة والتذبذب فيها كحد أدنى ان لم يكن التسرب منها نهائيا من أجل مزاولة العمل في القطاع الخاص لمساعدة أولياء أمورهم في توفير متطلبات الحياة ومواجهة ارتفاع أسعار المواد الغذائية والملابس .

٥ ـ معاناة الافراد في مجالات الحياة عامة ، ووقوعهم تحت تأثير ضغوط نفسية مختلفة بسبب الحصار الاقتصادي مما دفع بعضهم الى العمل خارج أوقات الدوام الرسمي لمواجهة متطلبات الحياة . وينتج عن ذلك الاصابة بالامراض المتعددة مثل ضغط الدم والاعياء والقلق النفسي وقد أثر سلبا في عطائهم الذي انعكس بشكل على صورة الواقع الحضاري الملموس للقطر العراقي .

٦ ـ ظهور المشكلات النفسية ـ اجتماعية ـ بشكل واضح بين فئات المجتمع عامة والتي تتمثل بالامراض النفسية والممارسات السلوكية ، كالسرقة والجنوح ومشكلات الجنس .. الخ .

ومن كل ما سبق ، ولكون ان الاسرة هي النواة الاساسية للمجتمع ، كان هناك بعض الظواهر الاجتماعية الاخرى التي نشأت بسبب ذلك ومنها :

- معاناة الكثير من الابناء من فقدانهم سلطة ضابطة ومرشد للاباء ، حيث ظاهرة الاستشهاد والاسر التي كانت نتيجة الحروب وبالتالي كان ذلك سببا رئيسا في تراجع الرقابة الاسرية للابناء ، فلا تستطيع الام الوحيدة أن تمارس جميع الادوار (الاب ، الام) في آن واحد ، لاسيما اذا كانت المعيل الوحيد للاسرة بعد استشهاد أو أسر الاب .
- كما ان عيش الام وابنائها في بيت الجد والجدة بعد استشهاد الأب أو أسره كان ظاهرة اخرى من ظواهر التغيير الاجتماعي الحاصل حاليا.
- يرتبط بذلك التغيير الاجتماعي استمرار هجرة عدد ليس بالقليل من الافراد بفعل العوامل الاقتصادية الى خارج البلاد .
- البدء من جديد بالتفكير ، باستخدام أساليب الشعوذة وقراءة الغيب للتخلص من الحسد والانانية التي يعتقد الافراد أنهم قد أصيبوا بها .
- الرجوع من جديد الى الجلسات العشائرية للتداول في أمور الاسرة والعشيرة وحل المشكلات والخلافات الحاصلة من جهة ، والاستعانة بعلماء الدين والفتاوى الدينية سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة كسبيل في حل المشكلات من جهة ثانية .
- تتيجة لانصراف الافراد عامة ، الى الامور الاقتصادية وكيفية اشباع الحاجات الاساسية المتمثلة بالطعام والشراب والملبس والمسكن ، أصبح من الواضح ضعف التوجيه التربوي ـ الاسري للافراد والابناء خاصة.

الخاتمة :

وخاتمة لما جاء في البحث يمكن ملاحظة التغيرات الاجتماعية على المستويات الاتية :

أولا : البيت

التغيرات في العقدين الاخيرين من القرن العشرين التي رسمت ملامح البيئة الاجتماعية في العراق وتطورها :

أ) العودة الملموسة الى احتواء الوحدة السكنية على الاسر الممتدة والاسر المركبة وضمور ظاهرة الانشطار الاسري بسبب ظروف الحرب العراقية الايرانية (الاسرى ، الشهداء ، المفقودين ، المتضررين الفعليين من الحرب والحصار) .

ب) ضعف السلطة الابوية بسبب اختفاء بعض الاباء بسبب الحرب واضطرار الاسرة الى الاعتماد على الاولاد اقتصاديا مما يهيىء لهم ظروف الشعور بالذات والتمركز الذاتي .

ج) تراجع الرقابة الاسرية بسبب مشاغلها في رواسب الحرب أو مخالب الحصار .

د) استقرار الحالة السكنية وتوقف حركة البناء والتجديد الاسكاني عدا فئة محدودة .

هـ) ضعف الخدمات الاجتماعية مما يولد حالة التذمر .

ثانيا : المحلة

أ) ضعف العلاقات الاولية التقليدية ضمن الجيرة .

ب) تنامي روح الانانية وضعف روح المساعدة .

ج) ظهور ظاهرة التشكي والخوف من الحسد .

ثالثـا : المدينـة :

أ) تفشي ظاهرة الانحراف بين أوساط غير قليلة من الشباب •

ب) ضعف التوجيه التربوي المؤسي لانصـراف جهـود التربويـين نحـو اشغال اخرى توفر لهم سبل العيش •

ج) هجرة الادمغة من (حملة الشهادات الجامعية والعليا) •

د) تصاعد نسبة الجنح والجرائم (سرقة البيوت والسيـارات على الرغـم من صرامـة العقـاب) •

هـ) تحول نسبة كبيرة من المحلات والاسواق الى محلات تجهيـزات غذائية ومطاعم ومحلات بيع الادوات المنزلية •

رابعـا : القطـر :

أ) ان مصاعب الحياة الاجتماعية أقل حدة في الارياف مما هي عليـه في المدن بسبب الترابط القرابي العشائري •

ب) عودة الصلات العشائريـة وتنامي أعرافهـا وتقاليدها ممـا انعكس على التطـور الاجتماعي •

المرأة الأوروبية في المجتمع الصليبي ببلاد الشام من خلال الكتابات التاريخية الاسلامية

د. ابراهيم القادري بوتشيش
جامعة مولاي اسماعيل ـ كلية الآداب
مكنـاس ـ المغـرب

تمخض عن استقرار الصليبيين في بلاد الشام تعايش حضاري بين المجتمعين الاسلامي والأوربي ، وانفتاح كل طرف على الآخـر ، ومعرفـة دقيقـة بعاداته وتقاليده ، وادراك عميق لمكوناته الداخلية . ولعل أكثر الظواهـر الاجتماعية التي أثارت المؤرخين المسلمين في خضم هذا التعايش ، ظاهرة المرأة الأوروبية ، التي شكلت بسلوكها طرازا غريبا لم يألفه المجتمع الاسلامي. لاسيما أنها أصبحت تعيش مباشرة وسط شرائح المسلمين أول مرة خلال هـذه الحـروب ، فظهرت كتابات ونصوص عربية ـ اسلامية تعرض لأخبارها ولـو بكيفيـة مقتضبة ، جاءت في السياق العام لأخبار الحروب الصليبية .

وعلى الرغم من طرافة هذا الموضـوع وأهميته في التاريـخ الاجتماعي ، وامكانية توظيفه في حقل الدراسات الحضارية المقارنة ، فانه لم ينل حظه الكافي في الدراسات المعاصرة .

صحيح أن بعض الباحثين الغربيين عالجوا موضوع المرأة الأوروبية مـن زوايا خاصة مثـل بحاثـة العصور الوسطى جـورج دوبـي G. Duby الا أنه لم يربط دراسته للمرأة الأوربية بالحروب الصليبية ، كمـا أنه لم يخرج عن حدود القرن الثاني عشر الميلادي .[1]

1 — Duby, (G) , Dames du XIIe siecle, TI. II, III, Paris, Gallimard 1995.

واذا كان الباحث R. Pernoud قد لامس الموضوع في دراسته عن المرأة الأوربية خلال حقبة الحروب الصليبية[٢] ، فانه لم يتناول الموضوع من وجهة نظر الكتّاب المسلمين ، وهي النقطة الأساسية التي نروم طرحها في هذه الدراسة .

أما بالنسبة للباحثين العرب المعاصرين ، فلا توجد ـ حسب علمنا ـ دراسة أفردت للموضوع باستثناء البحث القيم[٣] للباحث اللبناني د. عبدالمجيد نعنعي الذي أمدني مشكورا بنصه في احدى المؤتمرات التاريخية ببيروت وهو بحث يستحق كل تنوية، وان كنت لا أشاطر صاحبه الرأي في بعض التخريجات .

إن التساؤل الذي يتبادر الى ذهن الباحث وهو يعالج موضوعا من هذا الطراز هو ما الذي جعل المؤرخين المسلمين يهتمون بموضوع المرأة الاوربية ببلاد الشام ؟ وما مدى حجم هذا الاهتمام ؟ وهل يليق بالمكانة التي احتلتها هذه المرأة في خريطة المجتمع ؟

الراجح أن الادوار البارزة التي نحتتها المرأة الاوروبية في المجتمع الشامي جعلت اهتمام المؤرخين ينصب حولها ، فضلا عن البيئة الاجتماعية المشتركة التي جمعت الطرفين مدة تربو عن القرنين . ومع ذلك يلاحظ أنهم لم يفردوا لها كتبا أو مواضيع مستقلة تتناول أوضاعها ، بل لم يفردوا لها فصولا داخل مؤلفاتهم . قد يفسر ذلك بموقف المؤرخين الذين كانوا كغيرهم من الشرائح الاجتماعية الاخرى يحملون المقت والكراهية لمن اعتبروهم «مشركين» ومحتلين لبلادهم . ولما كانت المرأة الصليبية جزءا لايتجزأ من هذا العنصر الدخيل ، فانهم أشاروا اليها بكثير من الاختزال والابتسار . وحتى في هذه الحالة من

2 — Pernoud (R) , La femme au temps des croisades, ed. Stock Laurence, le livre de poche no 9509, Paris, 1990.

(٣) عبدالمجيد نعنعي ، « صورة المرأة الصليبية في المصادر الاسلامية » ، بحث نشر ضمن كتاب أعمال ندوة المناطق اللبنانية في ظل الاحتلال الفرنجي ، منشورات فليون ، لبنان ١٩٩٧ ص٣١٤-٣٣٧ .

«التعتيم الاعلامي» فانهم صبوا عليها جام غضبهم وكالوا لها كل عبارات القذف والشتائم حيث نعتوها « بالخنزيرة » وغير ذلك من الصفات الذميمة أو ذكروا الشهيرات منهن في صيغة المجهول حطا من قيمتهن مما ينم على التوتر والتشنج الذي يواكب عادة مرحلة الحروب ، وان كانت بعض الاميرات الاوروبيات يستثنين من هذه القاعدة حيث لم يخف هؤلاء المؤرخون اعجابهم بشخصيتهن •

وعلى الرغم من العيوب التي تشوب النصوص التاريخية الاسلامية حول المرأة الأوروبية ، وتشتتها عبر المصادر المختلفة بلا خيط رابط ، فان اهميتها تكمن في أن كتابها المسلمين عاصروا الحروب الصليبية وعايشوا هذه المرأة المقيمة في بلاد الشام عن كثب ، واتصلوا بها وتحاوروا معها ، وسجلوا في كتبهم ما شاهدوه عنها أو سمعوه عن قرب ، مما يجعل كتاباتهم ــ على الرغم من نواقصها ــ وثائق وشواهد أصلية تحمل شحنة كبيرة من الأهمية ، ولها دلالات تاريخية متميزة •

يلاحظ لأول وهلة أن المؤرخين استعملوا مصطلح « الافرنجية » للتعبير عن المرأة الأوروبية وهويتها الصليبية ، وهو مصطلح محرف عن اسم « الفرنسية » • ولا يوجد اختلاف بينهم في توظيف هذا المصطلح ، وان كان لا يقتصر على النساء الفرنسيات كما يفهم من صيغته ، بل يشمل كل النساء اللواتي كنّ يقمن في بلدان أوروبا ، أو ساهمن في الحروب الصليبية ، مع العلم ان معظم الصليبيين الذين وفدوا على الشام كانوا من بلاد غاليا أي فرنسا الحالية ، فكانت لهجتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأنماط عيشهم هي المهيمنة في مجتمعات الإمارات اللاتينية في المشرق •[٤]

كما تجدر الإشارة كذلك الى أن النصوص التاريخية الاسلامية اهتمت بالمرأة الافرنجية التي تنتمي للشرائح الأرستقراطية الصليبية أكثر من اهتمامها بالمرأة العامية ، وهذا ما يفسر غلبة النصوص التي تتحدث عن الأميرات ونساء

---

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور ، «ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام» ، مجلة المستقبل عدد ٨ ، سنة ١٩٨٧، ص٢٩ •

الفرسان وغيرهن ممن أدين" أدوارا طلائعية في المجتمع الصليبي بالشام ، في حين لا تورد الا تنفا متقطعة عن المرأة الاعتيادية التي غالبا ما يأتي ذكرها في سياق القضايا التي اعتبرها المؤرخون المسلمون شاذة وغريبة من منظورهم الخاص ، وهو ما سنوضحه في ثنايا هذه الدراسة .

بداية الاشكاليات : هل هناك نصوص احصائية عن عدد الصليبيات ؟

ما عدد النساء الصليبيات المقيمات في بلاد الشام ؟ وما النسبة التي يمثلها هذا العدد بالنسبة للصليبيين المستقرين في تلك المنطقة ؟

الواقع أن الباحث لا يمكن أن يحصل على جواب مقنع في هذا المجال ، وذلك بسبب انعدام احصائيات مضبوطة حول عدد النساء الافرنجيات اللواتي هاجرن من الديار الأوروبية وأقمن في بلاد الشام ، مما يجعل امكانية ملامسة هذه الاشكالية تبقى صعبة المنال ، الا أن هذا لا يمنع من مسايرة الافتراض القائل أن عددهن كان قليلا ، ذلك أن معظم الذين كانوا يقصدون بلاد الشام ، كانوا من فئة الرجال المقاتلين(٥) ، وان كنا نجد اشارات في المصادر الاسلامية تشير الى مشاركة النساء في الحروب الصليبية كما سنرى لاحقا .

ويؤكد الباحث Pernoud في دراسته المعتمدة على مصادر لاتينية أن عددا من زوجات الفرسان خرجن من أوربا لمرافقة أزواجهن ، في حين خرجت مجموعة من النساء الاوربيات قصد الحج والوصول الى القبر المقدس(٦) . بيد أن المصادر اللاتينية نفسها التي اعتمد عليها الباحث المذكور لاتبدد الابهام الذي يكتنف مسألة عدد النساء الافرنجيات اللاتي قصدن الديار الشامية ، كما أنه لا يفصح عما اذا كانت هذه الرحلة الطويلة تروم الاستقرار أم كانت لمجرد مرافقة ازواجهن أو الحج ثم العودة الى أوربا من جديد .

---

(٥) عبدالمجيد نعنعي المصدر السابق ، ص٣١٧ .

6 — Pernoud. 19.

بيد أننا نرجح أن بلاد الشام بخيراتها وسهولها الخضراء وموقعها الاستراتيجي بين الشرق والغرب ووجود بيت المقدس فيها ، كل ذلك أسال لعاب الصليبيين رجالا ونساء ، مما جعل كثيرا من الزوجات الافرنجيات يفضلن البقاء مع أزواجهن في الديار الشامية . وكانت فترات السلم فرصة لقدوم عدد منهن للاستقرار في هذه المنطقة . وبالمثل فإن الخوف من الذوبان جيلا بعد جيل جعل الحاجة ماسة الى هجرة المرأة الأوروبية نحو المشرق الاسلامي(٧) . مما أدى الى نمو عدد النساء الافرنجيات اللائي اصبحن « النصف المكمل » للرجال داخل المجتمع الصليبي ببلاد الشام . ناهيك عن أن الأدوار التي بدأت تؤديها داخل هذا المجتمع جعل وجودها في صلب هذا المجتمع أمرا ضروريا ، ولا غرو فقد كانت دوما موجودة في الحياة السياسية والعسكرية ، وفي أعمال التجارة والمرافق العامة ، وهذا ما يفسر اشارة ابن الأثير الى كثرة عدد النساء الصليبيات عند حديثه عن عادة صلاح الدين الأيوبي أنه « كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان وسيرهم اليها باموالهم ونسائهم وأولادهم ، فاجتمع بها منهم عدد كثير لا يعد ولا يحصى » وعلى الرغم أن هذا النص لا يفصح عن احصائية محددة ، فانه يكشف عن كثرة عدد النساء الصليبيات بمدينة صور(٨) . وقريبا من هذا المنحى ، يمدنا المؤرخ نفسه باحصائيات دقيقة ، ولو أنها معممة على النساء والرجال ، اذ يذكر في أثناء سرد أخبار عن فتح بيت المقدس أنه كان يوجد بها « على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان»(٩): ويذكر في موضع آخر وهو بصدد الحديث عن استرجاع القدس : « وأخذ أسيرا ستة عشر ألف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي »(١٠).

---

(٧) سعيد عبدالفتاح عاشور ، م.س ، ص٢٧ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت (دون تاريخ) ، ج٩ ، ص٢٠١ .

(٩) نفسه ، ص١٨٣ .

(١٠) نفس المصدر والصفحة .

وهذا العدد لا يخص سوى مدينة القدس ، فما بالك بالأعداد المتوافرة في المدن الشامية الأخرى ؟

على كل حال ، وفي انتظار العثور على نصوص أكثر دقة توضح عدد النساء الافرنجيات المقيمات في بلاد الشام أن نسأل : ما المجالات التي صور المؤرخون المسلمون المرأة الأوروبية عضوة فعالة في كيان المجتمع الصليبي ؟

في محاولة لتحليل عدم اهتمام المؤرخين المسلمين بموضوع المرأة الافرنجية ، يذهب الباحث عبدالمجيد نعنعي الى تفسير ذلك بمحدودية دور المرأة الافرنجية في المجتمع الصليبي بالشام[11] • ونحن لا نجاريه في هذا الرأي الذي يناقض ما أورده الباحث نفسه من أدوار للمرأة الافرنجية اعتمادا على المؤرخين المسلمين الذين أجمعوا ــ كما سنبين من خلال الدراسة ــ على الأدوار الرائدة التي اضطلعت بها ، لاسيما في الميدانين السياسي والعسكري الى درجة انبهار هؤلاء المؤرخين واعجابهم الشديد بما كانت تقوم به في هذين المجالين • وعلى كل حال سنحاول تتبع رؤية الكتابات التاريخية الاسلامية للمرأة الافرنجية بالشام ، ومختلف الادوار التي تركت بصمات واضحة في المجال السياسي أولا ، قبل الانتقال الى المجالات الاخرى •

المرأة الإفرنجية واكتساح مجال السلطة السياسية في المجتمع الصليبي :

يعتبر موضوع المرأة وعلاقتها بالسلطة السياسية بالنسبة للمجتمع الاسلامي ــ وضمنه النخبة المثقفة ــ ظاهرة غريبة وغير مألوفة ، وربما مستفزة تجلب الاستهجان • ولم يكن المؤرخ العربي بمعزل عن هذه القاعدة ، فعقليته لم تعتد على زعامة المرأة واتخاذها القرارات السياسية الحاسمة ، وسعيها الدؤوب للوصول الى سدة الحكم • لكن فجأة وجد هذا المؤرخ نفسه أمام واقع سياسي فرض نفسه ، وأمام نسوة افرنجيات نجحن في تسنم هرم الحياة السياسية والتربع على عرش الممالك التي انتعشت في بيت المقدس والرها

(١١) عبدالمجيد نعنعي ، م.س ، ص٣١٦ •

وأنطاكيه وطرابلس ، بل كن أحيانا ينتزعن الحكم من الرجال انتزاعا ، أو يقمن بأعمال الوصايـة على الامـراء القاصرين •

ومما ساعدها على ذلك كثرة الامراض وما كان ينجم عنها من وفيات كانت تحصد أرواح الاطفال الافرنج • وقد يكون ذلك أيضا بسبب اختلاف المنـاخ والبيئة وأنماط العيش في الشرق ، علما بأن هذه الافات كانت تعصف بأرواح الامراء الصغار ، فيترتب عن ذلك فراغ في السلطة يؤدي الى أيلولة الحكـم الى زوجة الملك بعد وفاته أو الى احدى قريباته(١٢) •

وسواء كانت هذه الظروف وراء تسلم المرأة الافرنجية مهام الحكم ، أو أن العقلية الافرنجية التي لا تمانع في ممارستها للشؤون السياسية كانت وراء ذلك ، فالواقع يثبت بما لا يدع مجالا للشك وصولها الى المسؤولية السياسية• وبما أن الامراء المسلمين اضطروا للتفاوض أو التحالف معها حاكمة ، فـان الكتابات التاريخية الاسلامية «أجبرت» على تناول موضوعها انطلاقا من هذا المستوى السياسي، وان كان طابع الاختزال يغلب على روايات المؤرخين، مع تجاهل ذكر اسم الاميـرات في بعض الاحيان(١٣) •

من بين النصوص الهامة التي نعثر عليها في هذا الصدد ، رواية سردها ابن القلانسي(١٤) عن وفاة الملك «الكند أجور» Foulque d'Anjoo بسبب مرض انتابه ، فنصبت زوجته وصية على العرش حتى يصل ابنها الى سن الحكم « ورضي الافرنج بذلك واستقامت الحال عليه » •

وللتذكير بمعطيات هذه الروايـة ، فان الأميرة الوصيـة على العرش التي يشير اليها ابن القلانسي هي الأمـيرة الصليبية « ميليسند » Melisende التي ورثت عرش أبيهـا « بـودوان الثانـي » Bodowin II ، فحكمت

12— Maalouf (A), Les croisades vues par les Arabes, ed. Lattes- Series j'ailu, no 1916, Paris 1988, p132.

(١٣) عبدالمجيد نعنعي ، م.س ، ص٣٢٠ .
(١٤) تاريخ دمشق ، طبعة دمشق ، دار حسان ، ص٤٣٤ .

امارة بيت المقدس بعد وفاته سنة ١١٣١م دون أن يكـون له ابن ذكر يخلفه ، مما جعلها تنصب ملكة مع زوجهـا « فولك دانجو » المذكـور الذي شاركها الحكم • لكن بعد وفاة هذا الأخير انفـردت بالسلطـة وأصبحت وصية على العرش في انتظار بلوغ ابنها سن الرشد كما ورد في النص •

وقد تستوقف الباحث عبارة «ورضي الافرنج بذلك» ، لأنها توحي بأنهم لم يكونوا معتادين على تولي المـرأة أمور الحكـم ، لكننا نجـد في الواقع السياسي الصليبي ما يثبت ذلك • بيد أن ابن القلانسي أورد هذا النص انطلاقا من المعايير والقيم الاجتماعية التي كانت تتحكم فيه ، وهي قيم المجتمع الاسلامي الذي يقصي المرأة من دائرة السياسة في الواقع العملي في الاقل •

ومهما كان الامر فان هذه الرواية تعكس قوة المرأة الافرنجية ونفوذها ، ويتجلـى ذلـك في ثـلاث نواحـي :

١ ـ حنكتها السياسية التي أفلحت في تجاوز أزمة شغور منصب الوراثة وسد هذة الثغرة التي حدثت نتيجة عدم وجود وريث •

٢ ـ وقوفها في وجه أي محاولة تستهدف معارضة توليها وصاية العرش ،وهو ما تدل عليه عبارة «ورضي الافرنج بذلك» ، مما يعكس قدرتها وحسن تدبيرها لمواجهـة كل الاحتمـالات الممكنة •

٣ ـ نجاحها في فرض الاحترام والهيبة على الزعماء الصليبيين تجاهها ، وهـو ما يتجلى في دعوتها الى عقد مؤتمر لقادة الحملة الصليبية الثانية في عكا في ٢٤ يونيو ١١٤٨م ، حيث ترأسته بنفسها باعتبارها ملكة لامـارة بيت المقدس • ونعتقد أن كل المعطيـات تؤكد بالملموس مدى القوة والنفوذ السياسي اللذين كانت تتمتع بهما المرأة الافرنجية •

ومن بين الأميرات الافرنجيات اللاتي ورد ذكرهن في المصـادر الاسلامية أيضا الاميرة «سبيلا» Sibylle التي يروي ابن الاثير[١٥] في أخبارهـا كيف أن أباها «بودوان الرابع» توفي نتيجة اصابته بمرض الجذام ، وكان قبل

---

(١٥) الكامل ، ج٩ ، ص١٧٤ .

وفاته قد أوصى بالحكم لابن أخته ، غير أن الموت لم يرحم هذا الاخير ،فانتقل الملك الى أمه «سبيلا» ويضيف المؤرخ نفسه في سياق أخبار هذه المرأة رواية عن زواجها مرة ثانية أسفر ضمن ما أسفر عنه انتقال العرش لصالحها ثم لصالح زوجها على الرغم من معارضة البارونات لقرارهـا ، الا أنها تمكنت من كسر المعارضة ، مما يؤكد حنكتها كذلك وتمرسها في أمر السياسة والحكم •

وتذكر النصوص التاريخية الاسلامية أخبار العديـد من الأميرات اللاتي ورثن العرش وفرضـن أنفسهن في السلطـة • فبعـد وفـاة « سبيلا » سنة ١١٩٠م ، ورثتهـا في الحكـم أختهـا «ايزابيل» Esabelle على العرش ، متجاوزة ارادة زوج « سبيلا » الذي كان يطمـع فيه ، وهـو ما يعكس أيضا نفوذ المرأة الافرنجية وتفوقها ، بل ستؤكد هذه الأمـيرة مـرة أخرى قدرتها السياسية عندما تزوجت من ثلاث رجال من النبلاء لم يفلـح أي واحد منهم في انتزاع السلطة من يدها • وعلى العموم فقد اقتصـر دور أزواج الأميرات على مشاركتهن في الحكم دون الاستئثار بالسلطة السياسية الفعليـة ، مما جعل ابن الأثير يقف من هذه الظاهرة موقف الغرابة قائلا : « وان الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم ، وان أمرهم الى امرأة وهي الملكة » •(١٦)

ويبـدو أن مسألة مشاركـة الأزواج للأمـيرات الافرنجيات في الحكم وزواجهم منهن ليست مسألة جوهرية بقدر ما هي مسألة عرفية وعادة تتناسب مع تقاليد الممالك الأوروبية في العصور الوسطى ، وهذا ما يفهـم من كلام ابن الأثير أن الزواج الثالث للملكة « ايزابيلا » بأحد أمراء قبرص سنة ١١٩٨م لم يكن سوى محاولة للخروج من مأزق سببه وجـود ملكـة بمفردها بـلا زوج يشاركها في الحكم ، وهو ما لم يكن يتناسب مع التقاليد الأوروبيـة في العصر الوسيط كما سبق ذكره •

---

(١٦) نفسه ، ص١٢٨ •

ويزداد الدور السياسي للمرأة الافرنجية تعاظما بعد وفاة « ايزابيلا » التي تركت خمس بنات ورثت كبراهن وهي Marie de Mont Ferat الحكم •

ويمكن القول أن القرن الثالث عشر الميلادي كان بالنسبة للصليبيين بالشام « قرن المرأة » وحسبنا أنها ظلت تحتكر السلطة وترث الحكم ، في حين يكتفي المجتمع الصليبي بايجاد الزوج الذي يشاركها في الحكم حتى لا يتم الخروج على التقاليد والأعراف الأوروبية ، وهذا ما يفسر موقف الامبراطور « فريديريك الثاني » الذي حصل قبل مجيئه الى الشرق ـ لاسترداد بيت المقدس على مباركة البابوية وتزكيتها لزواجه من الأميرة Isabelle De Brienne وريثة عرش المملكة اللاتينية حيث تزوج الطرفان في إيطاليا •[17]

من جهته ، يكشف صاحب الفتح القدسي[18] عن المكانة السياسية التي بلغتها المرأة الافرنجية والنفوذ المتعاظم الذي آلت اليه من خلال رواية تتعلق باحدى الاميرات الافرنجيات من دون أن يذكر اسمها ، وهو في ذلك لم يخرج عن القاعدة التي أطرت معظم المؤرخين المسلمين الذين تعمدوا اهمال ذكر أسماء بعض الافرنجيات بقوله أنها «امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر ، وهي في بلدها مالكة الامر» ، مضيفا أنها قدمت الى بلاد الشام في مركب يرافقه خمسمائة فارس بحاشيتهم وخيولهم ، وكان لها من الاموال ما يكفي للانفاق على هؤلاء الاتباع الذين كانوا يأتمرون بأوامرها ولا يخالفونها في أي قرار تصدره •

ويكشف هذا النص مجموعة من الحقائق منها :

١ ـ الشخصية القوية لهذه المرأة ووزنها السياسي وما يتمخض عن ذلك من هيبة واحترام ، وهو ما عكسه النص بعبارة « كبيرة القدر» •

(١٧) عبدالمجيد نعنعي ، م.س ص٣٢٤ •

(١٨) الاصفهاني : الفتح القدسي ، ص٢٤٨ ـ ٢٤٩ •

٢ ـ ثروتها الواسعة التي تدل عليها ما كانت تملكه من أموال طائلة لاتفاقها على الجنود والاتباع •

٣ ـ إن كلمة «الاتباع» أي الفرسان ، تشير الى أنها كانت أميرة اقطاعية ، وأن هذا المنصب لم يكن حكرا على الرجل الافرنجي دون المرأة •

٤ ـ كان لها الكلمة النافذة حيث لم يكن يجرؤ على معارضة قراراتها أي معارض• ولم يكن الحكم قاصرا على الاميرات فحسب ، بل ان أمهات الامراء تقلدن بدورهن الحكم في بعض الامارات الصليبية ، مصداق ذلك ما ورد في رحلة ابن جبير • فابان سفره من دمشق الى عكا في خريف ١١٤٨م ، مرّ بحصن تبنين ، فكان من جملة ما أثار انتباهه أن حاكمة هذا الحصن امرأة افرنجية هي أم أمير عكا • ويبدو أن هذه الظاهرة قد أثارت استهجانه مما جعله يصف هذه الحاكمة بأنها «خنزيرة تعرف بالملكة»[١٩]، وهو تعبير قدحي يحمل دلالة على موقف الكتّاب المسلمين والنظرة السلبية التي كانوا يرون من خلالها المرأة الاوروبية في علاقتها بالمجال السياسي •

واذا كانت النصوص السالفة الذكر تثبت ما اتسمت به الاميرات الافرنجيات من حكمة وذكاء وشخصية قوية ساهمت في حل الازمات السياسية والقضاء على النزاعات الداخلية واطالة أمد الحكم الصليبي ببلاد الشام ، فالكتابات الاسلامية تلقي الاضواء على بعض الحالات العكسية التي تثبت تهور بعض الاميرات الافرنجيات بسبب ولعهن بالسلطة • ونسوق في هذا الصدد نموذج الأميره «ألكس» Alex زوجة «بوهمند الثاني» Bohemound II حاكم امارة أنطاكية • فبعد هلاك زوجها في احدى المعارك ـ وكان قد ترك الحكم لابنته الصغيرة « كونتستانس » ـ ، لم يعجبها هذا القرار ، فسارعت

(١٩) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٨٦ (ط٢) ، دار ومكتبة الهلال ، ص٢٤٧ .

الى الاستيلاء على الحكم رافضة ان ينحصر دورها في مجرد الوصاية على ابنتها وانفعيل دورها ودفع أي خطـر يهددهـا ، سعت الى الاتصال بالامير العربي صاحب حلب آنذاك الأتابك زنكي ، فتحالفت معه وعرضـت عليـه الاعتراف بممتلكاته مقابل دعم تحركها ضد أي تدخل افرنجي معاكس • غير أن والد هذه الأميرة لم يستسغ هذا الأمر ، فبادر الى حصار ابنته بأنطاكية وارجاع السلطة الى حفيدته ، وانتهى الأمر باخراجها من المدينة المذكـورة واقرارهـا في حكم اللاذقية وجبلة •

ومهما كانت نتيجة هذا الصراع ، فالمسألة الأساسية تكمن في اعطاء وجه آخر للمرأة الافرنجية ، وهو وجه سلبي يسير في أتجـاه يعاكس المصلحة العليا للصليبيين في مواجهة أعدائهم المسلمين •

وبطبيعة الحال لم يترك المسلمون مثل هذه الفرصة تمر من دون استغلال ذكي ، لاسيما القائد العربي اللامع صـلاح الدين الأيوبي الـذي عرف كيف يستغل هذه الأخطاء في أنجاح مشروعه التحرري • وحسبنا أنه أقام علاقة طيبة مع زوجة «بوهيند الثالث» Behemound III حاكم امـارة انطاكيـة • ولحسن الحظ فان الكتابات الاسلامية أشـارت الى هذه العلاقات ولـو أنها لم تفصح بما فيه الكفاية عن تفاصيلها[٢٠] •

وفي المنحى نفسه يذكر سبط بن الجوزي أن الملك العادل كانت له علاقـة بامرأة افرنجية في عكا كانت تمـده بكل الأخبار عن بلدهـا وأميرها ، وكـان يتحفها بالهدايا • ولم تتورع هذه الأميرة الافرنجية عن المجاهرة بعلاقتها مع هذا الأمير العربي[٢١] • بيد أن أخطاء الافرنجيات وعمالتهن لصالح المسلمين لم تكن تستغل دوما بالطريقة المثلى ، وهذا ما يفسر صمـت النصوص عن ذكـر كيفية استغلال الأمير العربي في حلب لتحالف الأميرة Alix معه •

---

(٢٠) كتـاب الروضتين في أخبـار الدولتـين ، القاهرة ، مطبعـة وادي النيـل ١٢٨٧ـ١٢٨٨ هـ ، ج٢ ، ص١٣١ .

(٢١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، حيدر اباد ، ج٨ ، ق٢ ، ص٤٤٦ .

تلك بعض النماذج التي استعرضناها من خلال النصوص العربية الاسلامية التي تثبت دور المرأة الافرنجية في مجال السياسة وان كان المؤرخون المسلمون لم يذكروا كل النساء الافرنجيات اللاتي أدين دورا سياسيا هاما ، بل اكتفوا بسرد أخبار الأميرات الشهيرات ، علما بأن هناك أميرات أخريات كان لهن دور سياسي كبير في الرها وطرابلس وأنطاكية مثل « سيسيليا » و « كونستانس » Constance و « هودرينا » Hodrianne و « لوسيا » Lucie (٢٢) وغيرهن من الأميرات اللاتي طالهن التهميش في كتابات المؤرخين المسلمين . لكن على الرغم من هذا التقصير ومع قلة النصوص فقد اتضح أن المرأة الافرنجية فرضت نفسها في قمة الهرم السياسي ، وأنها وصلت الى العرش ومارست الوصاية السياسية واستبدت بالسلطة الفعلية ، وساهمت في اتخاذ القرارات السياسية الحاسمة الكبرى ، فماذا عن دورها في المجال العسكري؟

المرأة الافرنجية والمجال العسكري :

لم تكن الفكرة الصليبية حكرا على الرجل في المجتمع الصليبي فحسب بل كانت عقيدة لشرائح هذا المجتمع كافة بما في ذلك المرأة التي لم تتقاعس عن المشاركة في الحملات الصليبية جندية ومقاتلة . واذا كانت النصوص اللاتينية تكشف عن دور المرأة الافرنجية في مجال نقل الاطعمة والمياه الى المحاربين ورفع معنوياتهم ، ورعاية الجرحى والمعطوبين منهم ، فضلا عن مشاركتها في الحملات الصليبية الاولى كما تؤكد ذلك الاميرة البزنطية « أناكومنين » Anne Commene في اشارتها الى وجود نساء افرنجيات كثيرات ضمن مقاتلي الحملة الصليبية الاولى ، كذا في معركة دار يليوم سنة ١٠٩٧ م (٢٣)، فان النصوص الاسلامية تلقي المزيد من الضوء على الأدوار العسكرية التي أدتها المرأة الافرنجية ، وتنوه بشجاعتها واقدامها في الساحة العسكرية .

---

(٢٢) عبدالمجيد نعنعي ، م.س ، ص٣٢٥

(٢٣) أنظر عبدالمجيد نعنعي ، م.س ، ص٣١٧ ، ٣٢٧ .

يذكر ابن الأثير في سياق الأحداث التي أعقبت سقوط القدس بيد المسلمين أن الصليبيين حشدوا الحشود ، وأخذوا يعبئون أنفسهم ، وكان من بينهم النساء الافرنجيات اللاتي « يبارزن الأقران » على حد تعبيره[٢٤] . وفي موضع آخر من كتابه « الكامل » يذكر من جملة الأسرى الذين أسرهم المسلمون ، ثلاث نسوة كن يقاتلن في زي الرجال ، ولم يعرفن الا بعد أسرهن وتجريدهن من السلاح .[٢٥]

يشي النصان السابقان ببعض الحقائق نذكر منها :

- مشاركة المرأة الافرنجية في المعارك
- وضع نفسها في موقع المساواة مع الرجل .
- الشجاعة الفائقة التي كانت تتمتع بها .
- ذكاؤها المتمثل في التمويه على الخصم عن طريق الظهور بزي الرجال وذلك لارهاب العدو وايهامه بكثرة عدد الجيش الصليبي .

من جهته ، يذكر ابن شداد[٢٦] في معرض حديثه عن حصار عكا نقلا عن جندي شارك في المعركة التي دارت رحاها بين المسلمين والصليبيين أن امرأة افرنجية كانت تقاتل المسلمين بضراوة ، وهي ترتدي بذلة عسكرية خضراء وتوجه سهامها بلا توقف الى الفرسان المسلمين ، وانها نجحت في جرح العديد منهم ، قبل أن يجهضوا عليها ، ومع ذلك نالت اعجاب السلطان صلاح الدين الأيوبي ببسالتها وقدرتها في ميدان القتال . وفي رواية ثانية يذكر أن جنديا مسلما بارز جنديا صليبيا وانتصر عليه أمام مرأى ومسمع امرأة افرنجية ، فكان رد فعلها أن ضربت الجندي المسلم بكوز خشب أصابه بجرح ، مما يؤكد قدرتها على المواجهة والتضامن مع الرجال من بني جلدتها وتحقيق ما عجز هؤلاء عن بلوغه .

---

(٢٤) الكامل ، ج٩ ، ص٢٠١ .

(٢٥) نفسه ، ص٢٠٣ .

(٢٦) النوادر السلطانية ، ١٩٦٤ (دور مكان الطبع) ، ص١٦٧ .

كما استرعت مشاركة المـرأة الافرنجية في الحروب انتبـاه المـؤرخ الأصفهاني[27] الذي أفرد لها فقـرات هامة أكـد فيها ان النساء الافرنجيات الحديثات السن كن يقتدين بالفرسان الصليبيين ، وهي اشارة صريحة الى أن المرأةالمقاتلة وضعت نفسها ندا للرجل . أما النساء العجائـز فكـان دورهن يتمثل على الرغم من تقدمهن في السن في المشاركة في المعارك عن طريق تحريض المقاتلين ورفع معنوياتهم وابعاد كل هواجس اليأس والاستسلام عنهم ، بل ان القتال اعتبر لدى النساء الافرنجيات حسبما يذكر هذا المؤرخ نوعا من العقيدة التي يجب احترامهـا والاخلاص لها ، وهو ما عبّر عنه بقولـه : « وفي الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وقوانس ، يبرزن في حومة القتال، وكل هذا يعتقدنه عبادة » . ولا شك في أن الانطلاق من هذه القاعدة كان يشكل بالنسبة لهن حافزا نفسيا مشجعا .

ومن الشواهد التي تنهض حجة على الدور العسكري للمرأة الافرنجية ، نذكر أنه ابان الحملة الصليبية السابعة التي تزعمهـا لويس التاسع ضد مصر ، كانت زوجته الملكة « ماري » تقف الى جانبـه وتشد عضـده ، بل أنه أسند اليها مهمة تسيير شؤون مدينة دمياط والدفاع عنها . وبعد وقـوع زوجها في شباك الأسر ، تحملت المسؤولية العسكرية كاملـة وأدتها بمقدرة فائقة[28] .

وثمة قرينة أخرى تعكس الـدور العسكري للمـرأة الافرنجية خـلال الحصار الذي طال مدينة طرابلس ، فقبل سقوطها بيـد السلطان قلاوون سنة ١٢٨٩م كانت الكونتية « لوسيا » Lucie d'Antioche آخر جندي يدافع عنها بعد أن أوكل لها جل قادة المدينة ونبلائها هـذه المهمـة العسكرية وان لم تفلح فيها بسبب الأوضاع المتردية للافرنج آنذاك .[29]

---

(٢٧) انظر : الفتح القدسي ، ص٢٤٩ .

(٢٨) نفسه ، ص٣٢٨ .

(٢٩) نعنعي ، م.س ، ص٣٢٩ .

ومن الأميرات اللواتي بلغن شأوا عظيما في القيادة العسكرية أيضا ، يشير الأصفهاني الى قائدة وزعيمة محنكة يصفها بأنها « كبيرة القدر » ، ويذكر أنها وصلت في سفينة عسكرية ضخمة تقل خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم ، وأن لها من الأموال ما يكفي للانفاق على هؤلاء الجنود . وكان لها سلطة عسكرية نافذة عليهم تتمثل في طاعة أوامرها والانصياع لاي قرار تصدره ، فضلا عن اعتبارها قدوة لهم في كل تحركاتهم العسكرية «فهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ويثبتون لوثباتها »[٣٠] .

كل هذه القرائن تعكس الدور الرائد الذي اضطلعت به المرأة الافرنجية في المجال العسكري داخل كيان اجتماعي شكلت الحرب الزاوية فيه .

ومع ذلك ، لم تتورع بعض النساء الافرنجيات عن القيام بأدوار عسكرية سلبية بالنسبة لبنى جلدتها اذ كن يفشين أسرار الجيوش الصليبية . وفي هذا المنحى ذكر سبط بن الجوزي في أخبار سنة ٦٢٤ هـ وهو بصدد الحديث عن ابن السلطان الايوبي العادل أنه كانت له علاقات استخبارية يمده بها بعض الصليبيين ، موجها أصبع الاتهام على الخصوص الى بعض النسوة ، معبرا عن ذلك بقوله : «وأكثرهم من نساء الخيالة فكانت طاقتهم في قبالة الكرمل ، فإذا عزم الافرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فان كان يخرج مائة فارس أوقدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين شمعتين ، وان كانوا يريدون حوران أو ناحية دمشق أشارت الى تلك الناحية»[٣١] .

ويكشف أبو شامة عن دور «العمالة» العسكرية التي كانت تقوم بها بعض النسوة من أمثال «سبيلا» التي سلف ذكرها لصالح صلاح الدين بقوله: «امرأة ابرنس أنطاكية وتعرف بدام سبيل كانت في موالاة السلطان ، عينا له على العدو ، تناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها ويهدي لها اثمن الهدايا»[٣٢] .

---

(٣٠) الاصفهاني ، م.س ، ص٢٤٨–٢٤٩ .
(٣١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ق٢ ، ص٦٤٦ .
(٣٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ج٢ ، ص١٣١ .

ومما تقدم يتضح أن المرأة الافرنجيــة قامت بأدوار عسكرية هامــة في ميدان القتال ، بحيث لم يكن هــذا الدور يقل عن دور الرجل ، وان كانـت فئة منها أدّت دورا سلبيا بتقديمها أسرار الجيش الصليبي •

السمات الاجتماعية للمرأة الصليبية : الحرية الجنسية ، الميوعة الأخلاقية ومسألة الزواج

أمدنا المؤرخون المسلمون بمادة تاريخية قيمة حول المرأة الافرنجيــه وموقعها داخل كيان المجتمع الصليبي ببلاد الشام • ويفسر هذا الاهتمام بثلاثة عوامــل :

١ ــ اصطدام المؤرخ المسلم بنمط غريــب من السلوك الــذي تمثله المــرأة الأوربية ، وهو نمط لم يألفه من قبل ، فاذا كان نمط المــرأة الشرقية في الغالب الأعم لا يتجاوز حــدود دائرة رسمها الشــرع وتقاليــد المجتمع المحافظ ، واذا كانت النساء الشرقيات تكتفين في الغالب الأعــم بالعمل المنزلي وتبتعدن عن المشاركة في أنشطة القطاعات الاجتماعية ، فان المرأة الافرنجية كانت على العكس من ذلك تتمتع بحرية كبيرة وتشــارك في الحياة العامة بحضور وفعالية ، وكان بامكانها اظهــار محاسن جسدها واعلان حبها وعلاقتها بالرجل ، والسفر والتنقل بكامل الحرية

٢ ــ عقلية المؤرخ العربــي المسلم التي كانــت تنطــق في الحكم على المــرأة الافرنجية من مرجعية دينية وقيم خاصة بالمجتمــع الاسلامي ، فما كــان يعتبر عاديا بالنسبة للمرأة الافرنجيــة كالعلاقــة مع الرجل أو السفر والتنقل بمفردها ، كان يعد شذوذا وخروجا عن المألوف بالنسبة للمؤرخ العربي ، لذلك حرص على ايراد ما اعتبره أمرا غريبا بنوع من الاستهجان ومن السخرية •

٣ ــ انتماء هذا المؤرخ الى مجتمع ذكوري تكون فيه السيادة للرجل ، في حين يبقى وجود المرأة وجودا هامشيا • أما المــرأة التي هاجرت من الغرب

الأوروبي فهي تنتمي الى مجتمع لم تكن فيه السيادة للرجل بكيفية مطلقة .

وأول ما اثار استهجان المؤرخين المسلمين من سلوكات هذه المرأة الصليبية ، يتجلى في ما كانت تتمتع به من حرية جنسية . في هذا السياق أورد أسامة بن منقذ(٣٣) رواية طريفة ذكر فيها أن رجلا افرنجيا وجد شخصا نائما مع زوجته ، فلم يتجاوز رد فعله مستوى تحذير الرجل الغريب من دخول منزله مرة ثانية ! . وأضاف في موضع آخر أن امرأة صليبية كانت صحبة زوجها خارج البيت ، فالتقت بأحد الرجال من معارفها واختلت به للتحدث معه، ولما أطالت في حديثها تركها الزوج مع صديقها ومضى الى سبيله ! وهي عادة أخرى لم يألفها المؤرخ المذكور في مجتمعه .

بيد أن أثار استهجان هذا المؤرخ من سلوكات مشينة يكمن في حادث المرأة الافرنجية التي ذهبت مع زوجها الى حمام خاص بالرجال(٣٤) ،

وقريبا من هذه الرواية ذكر المؤرخ نفسه أن فتاة يتيمه توفيت أمها ، مما جعل أباها مضطرا لا صطحابها معه الى حمام خاص بالرجال(٣٥) . لعل هذه الوقائع التي جرت أمام سمع ابن منقذ وبصره ما جعله يخرج بحكم قاس حول عدم غيرة الرجال على زوجاتهن بقوله : « ما فيهم غيرة ولا نخوة ».(٣٦)

لاندري في أي مستوى من مستوى درجات المصداقية يمكن انتوضع هذه الرواياتعن الحريةالجنسيةللمرأة الافرنجية،علما بأن أبن منقذ يرويها من موقع المشاهد اللصيق بالحدث ، لكن يبدو مع ذلك أنها لم تسلم من آغلال الاسفاف والشطط . وحتى لو سلمنا بصحتها ، فانها لاتعدو أن تكون استثناءات . والراجح أن هذا المؤرخ كان يحرص دائما على سرد مثل هذه

---

(٣٣) كتاب الاعتبار ، بيروت ، الدار المتحدة للنشر والتوزيع ١٩٧١ منشورات جامعة برستونن ١٩٣٠ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣٤) نفس المصدر والصفحة .

(٣٥) نفسه ، ص١٢٦ .

(٣٦) نفسه ، ص١٣٧ .

الاخبار الغريبة لأثارة القارىء وتشويقه حول مجتمع غريب عن العقلية العربية بيد أن ما يستشفه الباحث من جميع الروايات التي أوردها ابن منقذ أن هامشا كبيرا من الحرية كانت تتمتع به المرأة الافرنجية ، مقارنة مع المرأة الشرقية لاسيما في مجال الحرية الجنسية الذي وصلت فيه الى حد الميوعة قياسا عن قيم المجتمع الاسلامي ، لذلك نجد المؤرخين الاخرين يجمعون عدى ادانة ما عد شاذا في مخيالهم الاجتماعي • وفي هذا الصدد يطنب الاصفهاني في ذكر العديد من الصفات التي تصور ميوعة المرأة الافرنجية ، فهي حسبما يذكر تتميز بالتبرج والميوعة والتغنج والشبقية من دون أن يخفي ما تميزت به من جمال ربما يكون قد جعلها تنحو نحو مجال الميوعة ، فهو يصف قامتها فيذكر أنها « عجراء هيفاء غناء لفاء » • ولم يخف اعجابه بجمالها فذكر أنها « تسحر بنضارتها نظارها ، وتتثني كانها غصن » • ولم يفته أن يدخل الى عالم جنسها، فأكد أنها تتعاطى للفساد • وفي هذا الصدد يذكر في نص مسجوع أن ثلاثمائة امرأة افرنجية وصلن في مركب ، وهن اية في الحسن والجمال ،ويستشف من النص أن هؤلاء النسوة القادمات على ظهر المركب استطعن أن يغرين بعض العبيد والمماليك المسلمين(٣٧) •

وفي سبيل تحقيق رغباتها في الحب والعشق ، لم تتورع المرأة الافرنجية عن اعلان حبها ولو كان ذلك على حساب الامراء الصليبيين ، فعندما تناول ابن الأثير أخبار الملكة « سبيلا » بعد وفاة زوجها يقول : « ثم ان هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام اسمه « كي » ــ Guy de Lusignan ونقلت الملك اليه »(٣٨) • ولم تجد المعارضة الشديدة من طرف الأمراء والبارونات الفرنج نفعا أمام رغبة هذه الملكة في الزواج بالرجل الذي أغرمت به وتوجته بدوره ملكا• كما لم تجد في سبيل تحقيق أحلام عشقها أدنى حرج في تكسير جدار العداوة حتى مع المسلمين ، وفي هذا

(٣٧) الاصفهاني ، م•س ، ص٢٤٨ــ٢٤٩ •
(٣٨) الكامل ، ج٩ ، ص١٧٤ •

الصدد يتحدث ابن سبط الجوزي عن علاقة حميمية كانت تربط احدى زوجات الفرسان في مدينة عكا مع الملك المعظم ابن السلطان الايوبي العادل • وعلى الرغم من أن هذا المؤرخ لا يفصح بما فيه الكفاية عن هذه العلاقة وهل كانت علاقة عشق وحب ، أم مجرد علاقة نسجت خيوطها المصلحة السياسية ، فان ذكره لنوعية الهدايا التي كان يهديها الطرف الثاني للأول وهي الثياب والعنبر والحرير ، وكذا مجاهرة المرأة بأن هذه الهدايا «من عند صديق لنا من المسلمين »[٣٩] ، ينهض قرينة على أنها علاقات في مجال الحب والعشق ، ولو كانت علاقات من أجل المصالح السياسية لاخفت المرأة أسرار هذه الهدايا •

ويلقي ابن جبير[٤٠] المزيد من الاضواء حول الميوعة الاخلاقية التي طالت سلوك المرأة الافرنجية • فعندما ألقى بعصا الترحال في مدينة صور ، شاهد حفل زفاف عروسة افرنجية ، وكان مما أثار انتباهه في ذلك المشهد الاحتفالي، كثرة الات اللهو والمجون ، والاختلاط الذي وقع بين الرجال والنساء بلاحشمة أو وقار ، كما استفزه بدرجة أكبر امساك رجلين للعروس من اليمين والشمال وهي في وسطهما تتهادى بلباس فاخر ، وتقوم بحركات تنم على الميوعة ، علما أن الرجلين ــ حسب رواية ابن جبير ــ لم يكونا من أقربائها • والأخطر من ذلك أن هذا كان يتم بمشاركة بعض المسلمين ، وهو ما أثار امتعاضه فاعتبره شكلا من أشكال الفتنة ، ولعنة تعوذ منها •

أما عن مشاركة المرأة الافرنجية في الحياة الاجتماعية فيذكر ابن جبير رواية أخرى تفيد في هذا المجال • فعند وصوله الى مدينة عكا ، يروي لنا أنه حل بدار نزل ضيافة في انتظار المركب الذي يقله نحو الأندلس ، والمهم في الرواية أنه ينسب ملكية هذا النزل وادارته الى امرأة افرنجية[٤١] ، مما يؤكد دورها ومساهمتها في تسيير المرافق الاجتماعية •

---

(٣٩) سبط بن الجوزي ، م.س ، ج٨ ، ق٢ ، ص٦٤٦ .
(٤٠) رحلة ابن جبير ، ص٢٥١ .
(٤١) نفسه ، ص٢٤٨ .

المـرأة الافرنجية والزواج :

نظـرا للأدوار الهامة التـي كانـت تؤديها المـرأة الافرنجية في المجتمع الصليبي ، كان من اللازم استقدام أعداد وفيرة من النساء للقيام بهذه الأدوار • كما أن الخوف من الذوبان مع تعاقب الأجيال ، جعل الحاجة ماسـة الى هجرة المرأة من الديار الأوروبية نحو الشـام ، ومن ثـم كثرت أعدادهن مـع توالي السنين ، وأصبح هناك جيل من النساء الافرنجيات في حاجـة الى الـزواج • وللأسف فاننا لا نملك سوى نصوص قليلة تغطي هذا الجانب جـاءت في سياق ذكر أخبار حكام الامارات الصليبية • وعلى عكس ما تزعمـه المصادر المسيحية التي ذهبت الى القول أن الافرنج المقيمين في بلاد الشـام عاشـوا منعزلين عن المسلمين[٤٢] ، فان الزواج بين هولاء و الافرنجيات دليل على انتفاء هذه العزلة• صحيح أن مشكلة اللغة كانت تقف عائقا أمام زواج المسلمين بالصليبيات[٤٣] ، لكن ذلك لم يحل دون زواج الطرفين •

وعلى الرغم من الحرية التي تمتعت بها المرأة الافرنجية على مستوى الحياة العامة ، فان حرية الزواج لم تكن دائما بيدها • ومن غير أن نعمّم هذا الحكم ، فان بعض النصوص تدل على ذلك • فعندمـا سعى الملك ريتشارد قلب الأسد الى تزويج أخته للملك العادل ، لقي معارضـة عارمة لأنه وضـع أخته تحت يد

---

(٤٢) يزعم مؤلف Gesta Frencorum وهو جندي مجهـول مـن اتباع الأمير البولندي أن الافرنج ببلاد الشام عاشوا منعزلـين عـن المسلمين . انظر : منى حماد، «صورة المسلمين في المصادر اللاتينية للحملة الصليبية الاولى». مجلة أبحاث اليرموك ، سلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية ، مجلد ١٣ ، عدد ١ ، ١٩٧٧ ، ص٢٥٦ .

(٤٣) انظر ما ذكره ابن منقذ في روايته حول خروجه الى السوق والتقائه بامرأة افرنجية صرخت في وجهـه « وهي تبربر بلسانهم » دون أن يستطيع فهم ما تقوله . كتاب الاعتبار ، ص١٤١ . وان كـان ابن جبير يشير في رحلته الى ان كتـاب الدواوين الافرنـج في مدينة عكا كانـوا يكتبـون ويتحدثون بالعربية . انظر : رحلة ابن جبير ، ص٢٤٨ .

مسلم دون مشاورة البابا[٤٤] • ومع أن هذا المنع اتخذ مرجعية دينية ـ سياسية، حيث لم يمانع الملك الانجليزي من تزويج ابنة أخته بدل أخته ، فان هذا السلوك يعكس مدى امكانية تطبيق مثل هذه القرارات على المرأة دون الرجل، وتعويض امرأة بأخرى وكأنها مجرد سلعة تستبدل حسب رغبة الرجل أو أصحاب النفوذ الديني والمتنفذين في السلطة • وعلى العموم فالقاعدة السائدة لدى الافرنج أن المرأة الثيب تتزوج باذن البابا ،في حين أن المرأة البكر يقوم أهلها بتزويجها، وفي كلتا الحالتين ، لا نلمس موقعا لحرية الزواج لديها • ومهما كان الامر فان هذه النصوص تثبت ظاهرة الزواج التي تمت بين المسلمين والصليبيات ، فاختلاف الديانتين لم يحل ذلك دون الزواج السالف الذكر • كما أن بعض الافرنجيات اللائي كن يقعن أسيرات في يد المسلمين ، كن يحظين احيانا بالزواج من طرف هؤلاء • ويمكن أن نسوق مثال شهاب الدين مالك بن سلم بن مالك صاحب قلعة جعبر الذي حوّل أسيرة صليبية الى جارية ، ثم تزوجها فأصبحت أما لولده بدران ، وصارت صاحبة الامر والنهي ، ولو أنها فضلت بعد ذلك الهرب والزواج ثانية باسكافي من بني جلدتها[٤٥] • وكان المؤرخ ابن الاثير كما يروي ذلك بنفسه قد اتخذ جارية افرنجية عندما كان مقيما في حلب[٤٦] • وفي رواية أخرى للمؤرخ نفسه ، يأتي ذكر خبر جارية افرنجية جاءت مع سيدها الى صاحب بيت ، وبعد حوار معه أخرج لهما امرأة افرنجية اتضح بعد ذلك أنهما أختان قد افترقتا منذ زمن طويل[٤٧] ، وهو نص يشي بماكانت تتعرض له الجواري الصليبيات من تشتت عائلي نتيجة الحروب الصليبية وظروف الاسر •

وبالمثل ، ترد نصوص أخرى حول زواج المرأة الافرنجية في سياق الاخبار التي رأى المؤرخون المسلمون فيها نوعا من الغرابة بالنسبة للمجتمع

(٤٤) ابن شداد ، م.س ، ص٢٠٣ .
(٤٥) ابن منقذ ، م.س ، ص١٦٦ـ١٦٧ .
(٤٦) ابن الاثير ، م.س ، ص١٨٠ .
(٤٧) نفس المصدر والصفحة .

الافرنجي ، وهي الوقائع التي استهجنوها بنوع من الادانة ، ومن هذا القبيل ما حدث لزوجة مركيز مدينة صور ، فقد قتل هذا الأخير وهي لاتزال في مقتبل العمر ، فتقدم « هنري » كونت شامبانيا للزواج بها وهي حامل ، مما أثار استغراب المؤرخ الأصفهاني الذي تساءل بنوع من الغرابة كيف أن الحمل عند الافرنج لا يمنع الزواج ، معتبرا ذلك مسلكا آخر من مسالك الميوعة الأخلاقية عند الافرنج .[48]

واذا كانت أمثلة الزواج بين المسلمين والنساء الصليبيات كما قدمناه في الصفحات السالفة يؤكد وجها من وجوه التسامح والتعايش على الرغم من طبول الحرب التي كانت تقرع بين الفينة والأخرى ، فان منهج صلاح الدين الأيوبي في التعامل مع الافرنجيات اللاتي كن يقعن في الأسر يعطي وجها آخر من وجوه هذا التسامح . فرغم العداوة التي كانت تكنها المرأة الصليبية عموما للمسلمين ، فان السلطان المذكور ، بفضل ما أوتي به من مروءة كان يعفو عنها ويكرمها ؛ وحسبنا الأمان الذي منحه لزوجات بعض أمراء الافرنج تذكر من بينهن «سبيلا» زوجة « جي دولوسينيان » الذي وقع في أسره ، وعلى الرغم من وجوده في موقف قوة ، فقد أبى الا أن يطلق مالها وحشمها ، وعندما رغبت في الالتحاق بزوجها المأسور بقلعة نابلس استجاب لرغبتها . وبالمثل تذكر المصادر أنه أعطى أمانة لزوجة «أرناط» صاحب الكرك ، فضلا عن أميرة افرنجية أخرى كانت مستقرة بالقدس[49] . كما دفعته مروءته حسبما يذكره ابن منقذ الى البحث عن فتاة افرنجية أخذت من طرف جنوده ، فتوسلت أمها اليه عسى أن يرد لها ابنتها ، فلم يدخر وسعا في البحث عنها الى ان أفلح في رد البنت الى أمها[50] . بيد أنه لم يتسامح مع بعض الصليبيات اللواتي كن يسلكن

(48) الفتح القدسي ، ص٥٩٠ .

(49) ابن الاثير ، م.س ، ص١٨٤ .

(50) ابن منقذ ، م.س ، ص١٦٥ .

(51) ابن الاثير ، م.س ، ص١٨٣ .

طريق الغدر ، فكان يأخذهن أسيرات[٥١] كما تعرضت بعض الصليبيات للسبي من طرف جيوش الملك العادل في أثناء فتحه يافا[٥٢] .

ونختم حديثنا عن المرأة الافرنجية في المجال الاجتماعي بالاشارة الى أن المصادر الاسلامية المعاصرة للحروب الصليبية لم تغفل ذكر أخبار العجائزمن النساء الافرنجيات على الرغم من أن النصوص عنهن قليلة . فالى جانب ما سلف ذكره عن دورهن في مساعدة المقاتلين في المعارك بالتشجيع ورفع المعنويات ، تفرد ابن منقذ بذكر خبر طريف عنهن ، وهو أن امرأة افرنجية عجوزا ساهمت على الرغم من تقدمها في السن في سباق كان ينظمه الصليبيون بالشام ضمن الألعاب التي اعتادوا على تنظيمها في المجال الرياضي .

من حصاد ما تقدم تبدو المرأة الافرنجية في الكتابات الاسلامية بصورة يشوبها التناقض أحيانا ، فهي تتسم بالشجاعة وحسن التدبير السياسي وقوة الشخصية ، وفي الوقت نفسه تتميز بالميوعة الأخلاقية والعمالة للغير ، الا ان ما أجمع عليه المؤرخون والرحالة المسلمون هو أنهم وجدوا أنفسهم أمام امرأة تختلف في نمط حياتها عن المرأة التي ألفوها في حياتهم بالمشرق ، فهي امرأة متحررة ، وحضورها فاعل ومتميز في جميع مستويات الحياة اليومية ، وهي تنهض بأعباء السياسة وادارة المؤسسات والمرافق الاجتماعية وهي مقاتلة من الطراز الرفيع .

ونختم هذه الدراسة بمجموعة من الملاحظات التي يمكن استشفافها من خلال قراءة في واقع المرأة الافرنجية .

١ ـ ان نظرة المؤرخين المسلمين الى المرأةالاوربية تشكلت منخلالعقلية المجتمع الاسلامي وعاداته ، ولذلك فان بعض الاحكام السلبية التي وردت في كتاباتهم انما جاءت قياسا على التقاليد والمرجعية الاسلامية . لقد وجدوا في المرأة الاوربية طرازا اخر لم يألفوه في حياتهم اليومية يخالف نمط المرأة الشرقية، لذلك أصدروا أحكامهم انطلاقا من قيم مجتمعهم وعاداته.

---

(٥٢) نفسه ، ص١٨٠ .

٢ ــ على الرغم من نظرتهم السلبية الى المرأة الاوربية ، فان المؤرخين المسلمين أبدوا اعجابهم بها فذكروا ما تميزت به من شجاعة فائقة في الحروب ،ومن نفوذ سياسي يفوق أحيانا نفوذ الرجال ، كما أعجبوا بجمالها وقدرتها في التأثير على المشاعر ، مما شكل جانبا موضوعيا في كتاباتهم على الرغم من تأجج روح الحروب الصليبية انذاك ، وتوهج شرارة الصراع الحضاري بين المسلمين والصليبيين •

٣ ــ تتمثل أهمية النصوص الاسلامية في اعادة تصحيح الصورة التي وضعتها الكنيسة عن المرأة الأوروبية حيث اعتبرتها رمزا للغواية ومرادفا للشيطان • فمن خلال الأدوار المتنوعة التي أشاد بها المؤرخون المسلمون والمكانة المرموقة التي احتلتها داخل المجتمع الصليبي ، يتضح بطلان النظرة الدونية التي كانت تصبغها الكنيسة على واقع المرأة الأوروبية في العصر الوسيط •

٤ ــ على الرغم مما تكشف عنه المصادر الاسلامية عن وضعية المرأة الصليبية ، فإن صورتها تظل مع ذلك غير واضحة تمام الوضوح حتى ولو قام الباحث بجمع النصوص المتناثرة وتنسيقها ، نظرا لقلتها وتشتتها بالنسبة لمن يتوخى تقديم صورة شاملة عنها •

٥ ــ من خلال مقارنة المرأة الأوروبية بالمرأة الشرقية خلال الحروب الصليبية ، يتضح أن الأدوار التي أدتها الأولى كانت أكثر أهمية ، ولا غرو فان مهامها لم تنحصر في مجال البيت كما كان الحال بالنسبة للمرأة الشرقية ، بل امتد الى مجال السياسة والحروب والتجارة وادارة الفنادق وغيرها من المرافق الاقتصادية •

٦ ــ تعكس حالات الزواج التي تمت بين المرأة الصليبية والأهالي المسلمين التعايش السلمي والاجتماعي الذي فرض نفسه ، على الرغم من تأجج نيران الحروب الصليبية ، وبذلك يمكن القول ان المرأة الافرنجية كانت احدى وسائل خلق مجتمع متجانس وتعايش حضارتين متمايزتين •

قراءة في كتاب ((صدام الحضارات))
لـ ((صموئيل هنتنغتون))

الدكتور رياض عزيز هادي
عضو دائرة العلوم الانسانية بالمجمع العلمي
كلية العلوم السياسية / جامعة بغداد

« صموئيل هنتغتون » استاذ العلوم السياسية وعالم السياسة الاميركي ومدير معهد جون أيلين للدراسات الستراتيجية في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الاميركية ، طرح فرضية على شكل مقالة بعنوان « صدام الحضارات » The clash of civilization في العدد ٣ : ٧٢ (صيف ١٩٩٣) وكانت المقالة تتكون من ٢٩ صفحة . وجاءت هذه المقالة في اطار جدل ومناقشات اوسع في العالم بأسره حول التحولات الكبيرة والجذرية التي يشهدها العالم منذ اوائل التسعينيات على مختلف الصعد وحول اشكال الحياة والعلاقات داخل الاسرة الدولية في القرن الحادي والعشرين بما فيها احتمالات النزاع والصدام . ويرى بعض المحللين ان المؤرخين في القرون القادمة سوف يسجّلون ان جدلا واسعا قد دار في اواخر القرن العشرين حول الصدام المحتمل بين الحضارات تماما كما سَجّل مؤرخون في القرن العشرين ان مفكرا المانيا يدعى « ماهان » طرح في نهاية القرن التاسع عشر القضية نفسها واحدث جدلا بقدر ما سمحت به وسائل النشر والاعلام والاتصال في ذلك الحين .

وتتركز الفكرة الرئيسة لهنتغتون في هذا المقال في القول التالي له :

« ان شعور الانتماء الى حضارة معينة سوف يكون له شأن متزايد في المستقبل وسوف يصوغ العالم الى حد كبير التفاعل بين حضارات ست او سبع

هي الحضارات الاتية : الحضارة الغربية ، الحضارة الكونفوشيوسية ، الحضارة اليابانية ، الحضارة الاسلامية ، الحضارة السلافية ـ الارثوذكسية ، الحضارة الاميركية اللاتينية ، الحضارة الهندوسية •• وربما الحضارة الافريقية • والصراعات المهمة القادمة سوف تقوم على طول الخطوط الثقافية التي تفصل بين هذه الحضارات •• ذلك ان خطوط الصراع بين الحضارات تحل محل الحدود السياسية والعقائدية للحرب الباردة بوصفها نقاط الوميض وسفك الدم • « الستار المخملي » للثقافة يتدلى فيحل محل « الستار الحديدي » للايديولوجية •

ويمكن تلخيص مقالة هنتنغتون في النقطتين الاتيتين :

النقطة الاولى : يستند هنتغتون الى فرضية اساسية مفادها ان المصدر الرئيس للصراعات في عالم ما بعد الحرب الباردة لن يكون ـ في الاساس ـ عقائديا او اقتصاديا • فالانقسامات الكبرى بين الشعوب ، والمصدر الاساسي للصراع ، ستكون ثقافية •• ومع ان الدولة القومية ستستمر في لعب دور اساسي في الشؤون العالمية ، فأن الصراعات المهمة في السياسة الدولية ستكون بين الدول والجماعات التي تنتمي الى حضارات مختلفة •• وستهيمن الصدامات الحضارية على السياسة العالمية ، وستكون ساحتها الاساسية خطوط التماس بين هذه الحضارات •

النقطة الثانية : نظرا الى تنامي أهمية الهوية الحضارية ، فقد تنبأ هنتغتون بان العالم سيضاع أستنادا الى حركة تفاعلات الحضارات السائدة في عالم اليوم ، ومن اهمها ، حسب رأيه : الحضارة الغربية والحضارة الكونفوشيوسية، والحضارة الاسلامية، •• وقد تتعاون الحضارتان الاخيرتان اي الاسلامية والكونفوشيوسية ضد الحضارة الغربية •

ولقد أنهى هنتغتون مقالته بتوصيات حول كيفية تعامل الغرب مع هاتين الحضارتين ..

لقد اثارت هذه المقالة عاصفة من النقد والنقاش .. وصدرت ردود عدة لكتّاب معروفين من اتجاهات فكرية متنوعة عن نقاط الضعف والجدل فيها .. لكن فرضية هنتغتون اثارت اهتماما كبيرا واصبحت احدى الفرضيات الاكثر اثارة للنقاش والجدل بخصوص استشراف مستقبل العلاقات الدولية في الالفية الثالثة .. فالمكانة العلمية لصموئيل هنتغتون في مجال العلوم السياسية والدراسات الستراتيجية ، وجرأة تحليلاته الفكرية وجدّتها في هذا الموضوع ساهمت في أضفاءها له وأهتمام كبير بموضوع « صدام الحضارات » في الاوساط الفكرية والسياسية في كل بقاع العالم .

وعاد هنتغتون الى منتقدي مقالته بطرح فيه شيء من التوسع لفكرته الاصلية من خلال الكتاب الذي اصدره عام ١٩٩٦ بعنوان « صدام الحضارات واعادة صياغة النظام العالمي »

The clash of civilization and the Remaking of World Order, New York: Simonaud and Shuster . 1996

وقد اخذ هنتغتون بعين الاعتبار الانتقادات التي وجهت اليه ، مقدما الكثير من الامثلة والادلة على الصراعات الدائرة في العالم وذلك بهدف اثبات فرضيته عن صدام الحضارات .

ويعيد هنتغتون في الكتاب اثبات فكرته الاصلية وهي : ان الحضارات بمعنى الانتماءات الثقافية ستقوم بتشكيل علاقات التماسك او التفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة واستنادا الى ذلك فأن الصراعات السياسية المحلية التي ستبرز ستكون هي الصراعات العرقية والاثنية ، ولاسيما داخل الحضارة الواحدة ، اما على المستوى العالمي ، فأن الصراع المقبل

سيكون صراع الحضارات ، كما ان القضايا الجوهرية على الساحة الدولية سترتبط بشكل مباشر بالاختلاف بين الحضارات .

ينقسم كتاب «صدام الحضارات واعادة صياغة النظام العالمي» الذي يحتوي على ٣٦٨ صفحة الى مقدمة وخمسة اقسام .

في المقدمة يؤكد المؤلف ان هدفه الاساسي من هذا الكتاب هو توضيح وتطوير افكاره التي صاغها في مقالته الشهيرة التي اشرنا اليها والتي نشرها في مجلة شؤون خارجية سنة ١٩٩٣ ، ومحاولة تفسير السياسة العالمية بعد الحرب الباردة ، من خلال تقديم منظور جديد للسياسة الدولية قد يفيد الباحثين والسياسيين في مجال الشؤون الدولية .

القسم الاول من الكتاب عنوانه «عالم منقسم الى حضارات» ويناقش فيه المؤلف بشكل وصفي صورة النظام الدولي السائد اليوم ويرى انه نظام متعدد القطبية ومتعدد الحضارات . كما ان هناك تمييزا واضحا في عالم اليوم بين محاولات التحديث والتغريب بحيث ان محاولات التحديث لم تقد الى التغريب ، كما انها لم تنتج حضارة عالمية مسيطرة . ويحلل الكاتب طبيعة النظام الدولي اليوم ويعتبر ان السياسة العالمية اصبحت مرتبطة بشكل متزايد بالثقافة .. ولذلك فان الاختلافات الكبرى بين الشعوب لن تكون عقائدية او اقتصادية بل ثقافية ، فكل الامم تحاول الاجابة عن السؤال الاساسي بالنسبة لكل الناس : من نحن ؟ ويجيبون عبر استحضار انتمائهم الحضاري بكل مكوناته . وهذا ما سيجعل العالم متعدد الاقطاب ومتعدد الحضارات . يقول هنتغتون ان النموذج النظري (براديغم) للحضارات هو افضل نموذج إرشادي لفهم الاحداث المهمة في العالم . فهو يمنح خريطة واضحة مبسطة لفهم الشؤون الدولية اساسها ان الانقسام المركزي اليوم هو بين الحضارات الغربية والحضارات الاخرى ، وان الدول / الامم حتى لو بقيت الفاعل

الاساسي في العلاقات الدولية إلا ان مصالحها وتحالفاتها وصراعاتها ستكون محدودة بفعل عوامل حضارية .

كما يحلل هنتغتون طبيعة الحضارات ومميزاتها حيث يعرّف الحضارة باعتبارها كيانا ثقافيا يحتوي مجموع القيم والمؤسسات ، واساليب التفكير التي تتشبث بها اجيال متتالية داخل مجتمع ما .. ثم يبين ان للحضارات مجموعة خصائص : فهي كيانات شمولية تشكّل المستوى الاعلى للهوية الثقافية لدى البشر ، وتتحدد ماهيتها من خلال مكونات موضوعية : اللغة ، التاريخ ، الدين ، المؤسسات ، العادات ... مثال ذلك ان العناصر الموضوعية للحضارة الغربية تكمن في المسيحية الغربية والمؤسسات التمثيلية والفردانية والعلمانية واللغات الاوربية والتعددية الاجتماعية .. ويرى هنتغتون ان للحضارات حدودا واقعية وفعلية ، وهي تتطور وتتكيّف على الرغم من انها تشكل احد انماط التجمع الانساني الاكثر استمرارية وتجذّرا .

ان المؤلف يعتقد ان السياسة الدولية ستتشكل عبر التفاعل بين ثماني حضارات كبرى كما اشرنا سابقا وهي للتذكير بها : الحضارة الاسلامية والحضارة الصينية (وفي الكتاب يستعيض بتسمية الصينية عن الكونفوشيوسية التي استخدمها في مقاله) والحضارة اليابانية والحضارة الغربية والحضارة السلافية ـ الارثوذكسية والحضارة الاميركية اللاتينية وربما الحضارة الافريقية .. وفي كل صفحات كتابه نجد هينتغتون مترددا فيما يخص اعتبار الحضارة السلافية الارثوذكسية والحضارة الاميركية اللاتينية حضارتين مستقلتين ام جزءا من الحضارة الغربية وتابعا لها .

ويقوم المؤلف برصد تاريخي للعلاقات التي جمعت بين متخلف الحضارات عبر التاريخ .. ففي مرحلة تاريخية اولى تمتد حتى العام ١٥٠٠ ميلادية كانت الاتصالات والتفاعلات بين الحضارات محدودة ومنقطعة بفعل التباعد الزمني

والجغرافي فيما بينها ، ثم تبدأ ، حسب رأيه ، مع صعود الحضارة الغربية انطلاقا من القرن الخامس عشر مرحلة جديدة جوهرها تزايد نفوذ وقوة الغرب واكتساحه باقي الفضاءات الحضارية . وعند نهاية القرن العشرين تبدأ مرحلة نظام دولي متعدد الحضارات والاقطاب يتميز بتراجع الغرب واستيقاظ الحضارات الاخرى .

يعالج هنتغتون في هذا القسم من مؤلفه اشكالية العلاقة بين التحديث والتغريب ومدى عالمية الحضارة الغربية حيث يرى ان اعتبار انتشار الثقافة الغربية والمواد الاستهلاكية عبر العالم انتصارا للحضارة الغربية هو في الواقع تنفيه لهذه الحضارة باختزالها في المأكولات والمشروبات .. وان جوهر الحضارة الغربية هي القيم الثقافية وليس ثقافة « الهمبرغر » (الماكدونالد) . كما ان الشعوب غير الغربية لن تتغرب لمجرد انجذابها واستهلاكها للمنتوجات الاميركية .. ويقول يوجد خارج الغرب فقط نحو ٥٠ مليون من البشر اي ١٪ من سكان العالم يتبنون الثقافة الغربية .. وحتى اللغة الانكليزية لا يتحدث بها إلا ٦ر٧٪ من سكان العالم وبالتالي هي غريبة عن ٩٢٪ من البشر ولا يمكن بنظره ان تشكل رمزا للثقافة الغربية العالمية .. كما ان الانتشار الواسع لوسائل الاعلام الذي يراه الغربيون تجسيدا لعالم اكثر توحدا واندماجا يراه غير الغربيين على العكس تجسيدا للامبريالية الغربية .

ويخلص الكاتب في القسم الاول الى القول بان التحديث لا يعني ــ ولا ينتج بالضرورة ــ التغريب .. فبأمكان الشعوب غير الغربية ان تتبنى التحديث من دون ان تتخلى عن قيمها الخاصة ومن دون ان ترتبط بالقيم والمؤسسات الغربية ، لهذا فان العالم ، حسب رأيه ، بصدد التحول ليصبح اكثر تحديثا واقل تغريبا .

القسم الثاني من الكتاب يحمل عنوان « التوازن المتغير للحضارات » ويركز فيه المؤلف على التحدي الذي يجابه الحضارة الغربية وبشكل خاص من الحضارة الاسلامية والحضارة الصينية •• ويؤكد هنا ثلاث عمليات سيكون لها اثر كبير في تغيير توازن القوى الدولية وعلى النحو الاتي :

أ ــ ان الغرب سيشهد انحدارا نسبيا في نفوذه العالمي •

ب ــ ان الحضارات الاسيوية ستقوي نفسها في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية •

جـ ــ ان الحضارة الاسلامية ستعاني مشكلة الانفجار السكاني التي ستكون لها آثار في المجتمعات الاسلامية وفي جيرانها •

يتناول المؤلف في هذا القسم تراجع نفوذ الغرب وامكانية انهياره مقابل انبعاث الحضارات الاخرى •• ويقول من جهة مازالت هناك سيطرة مطلقة للغرب ، إذ اصبح العالم محكوما على وفق اولويات ومصالح الامم الغربية ، لكن من جهة اخرى فان الحضارة الغربية آيلة للانحطاط ، وتأثيرها في السياسة والاقتصاد والتوازن العسكري العالمي يتضاءل بالمقارنة مع الحضارات الاخرى حيث اصبح الغرب معرضا بشكل متزايد لمشاكل داخلية تجعله يفقد ثقته بامكانياته وفي ارادته لسيادة العالم •• وكلتا الصورتين ، كما يرى هنتغتون ، صحيحة • فالغرب مازال مهيمنا ومن المحتمل انه سيبقى كذلك حتى في القرن الحادي والعشرين إلا ان تحولات مهمة سيعرفها ميزان القوى بين الحضارات بحيث ستتراجع قوة الغرب ونفوذه امام انتعاش الثقافات الاخرى •• فالثقافة دائما تتبع القوة •• وتوزيع الثقافات في العالم يعكس موازين القوى الجديدة التي ستطبع السياسة العالمية •

كما يتوقف الكاتب عند ظاهرة انبعاث الديانات التي اصبحت تعرف انتعاشا مهمّا فيما يخص الالتزام والاعتقاد والممارسة الدينية •• ويعود هذا في نظره الى ان الديانات تمنح منابع جديدة للهوية ومفاهيم اخلاقية جديدة كفيلة بايجاد المعنى ومنح الامن في ظل المتغيرات الاجتماعية السريعة •• ولهذا فان هذا الانبعاث هو رد فعل ضد العلمنة والفردانية والتفسخ الاخلاقي وتأكيد قيم النظام والانضباط والتضامن الانساني وهو ليس رفضا للحداثة بقدر ما هو رفض للثقافة الغربية العلمانية •

ثم يناقش المؤلف التحديات الاساسية للغرب التي تتمثل برايه في الشعوب الاسلامية والاسيوية باعتبارها الشعوب الاكثر عداء للغرب ولثقتها بنفسها وبقيمها •• فانبعاث الاسلام حسب قوله هو محاولة لتأكيد الذات من خلال الاخذ بالحداثة ورفض الثقافة الغربية •• كما ان نجاح الصين واليابان ودول اسيوية اخرى على الصعيد الاقتصادي كانت نتيجته ان اصبح الاسيويون لا يترددون في الدفاع عن ثقافتهم وتفوق قيمهم الثقافية وقد شجّع هذا على تطوّر نوع من الكونية الاسيوية مفادها ان القيم الاسيوية هي قيم كونية وان القيم الغربية هي قيم غربية فقط •

اما القسم الثالث من الكتاب وعنوانه « النظام الجديد للحضارات » فيتناول فيه المؤلف ظهور النظام العالمي الجديد على اساس حضاري •• فالمجتمعات التي تشترك في صفات ثقافية تتعاون في ما بينها •• وقد ثبت في الوقت نفسه ان محاولة بعض المجتمعات الانتقال من اطار حضاري الى آخر قد خابت •• وكمثال على ذلك تركيا التي حاولت التخلي عن انتمائها الشرقي الاسلامي والالتحاق باوربا •

كما يحتوي هذا القسم على مناقشة الدور المحوري « للدولة القائدة » داخل كل حضارة .. كما يؤكد هنتغتون ان السياسة العالمية يعاد اليوم تركيبها وصياغتها على وفق محاور ثقافية ، حيث ان الشعوب والدول التي لها نفس الثقافات تتقارب في ما بينها . والتحالفات العقائدية يتم تغييرها بتحالفات محددة على اساس ثقافي ، والحدود السياسية اصبحت تتشكل لتتوافق مع الحدود الثقافية والاثنية والدينية .. واذا كانت ثمة مرونة في اختيار طبيعة التحالفات في اثناء الحرب الباردة فان الولاءات اصبحت الان ذات طابع ثقافي وهي لا تقبل منطق الاختيار او المساومة .

ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن دور العوامل الثقافية في إرساء سياسات التعاون .. إذ اصبح البعد الاقليمي محل اهتمام واسع في السياسة الدولية لكن الاقاليم حتى تكون اساساً للتعاون بين الدول فانها يجب ان تتوافق وتلتقي داخلها الجغرافية والثقافة .. ففي غياب اية قرابات ثقافية يقول هنتغتون ، فأن مجرد الحوار الجغرافي وحده لا يحفز على التعاون السياسي او الاقتصادي او العسكري . وذلك ما يجعل بنظره المنظمات التي تتأسس على روابط ثقافية اكثر فعالية من غيرها ويضرب امثلة حلف الاطلسي والاتحاد الاوربي دليلا على ذلك .

ويثير المؤلف قضية الدول التي يسميها مترددة او ممزقة حول ماهية هويتها وخيارها الحضاري كتركيا بين عمقها التاريخي الاسلامي وانجذابها نحو الغرب ، والمكسيك بين انتمائها الاميركي اللاتيني وطموحها للاندماج الثقافي والاقتصادي مع اميركا الشمالية ، وروسيا بين ريادتها للعالم السلافي الارثوذكسي وتطلعها للالتحاق بالغرب ، واستراليا بين جذورها الحضارية الغربية ورغبتها في الاندماج بالمجتمعات الاسيوية .

وفي القسم الرابع من الكتاب وعنوانه « الصراعات بين الحضارات » يطرح المؤلف موضوع التحدي الذي تشكله الحضارات الاسلامية والصينية

للحضارة الغربية •• وبنظره فان هذا التحدي يضعف من ادعاءات الحضارة الغربية بالعالمية • وعلى المستوى الاقليمي يقول هنتغتون إن الصراعات على النقاط الفاصلة بين الحضارات وبخاصة بين المسلمين وغير المسلمين تولد نوعا من التضامن والتماسك بين الدول المتشابهة حضاريا •• وهناك خطر على السلم الدولي من احتمال تصعيد النزاعات الدولية مما يضع مسؤولية اكبر على الدول (المحورية) لأحتواء هذه النزاعات ••

ويتناول مصير الغرب ومكانته في ظل الصراعات الحضارية وعلاقته بالحضارات الاخرى المنافسة له •• ويعتقد المؤلف أن المواجهات الاكثر عنفا على المستوى الاقليمي ستجمع المسلمين بباقي الحضارات اما على المستوى العالمي فان الانقسام الاساسي سيكون نتيجة التفاعل بين الكبرياء الغربي واللا تسامح الاسلامي والرغبة في تأكيد الذات من جاب الصين على حد قوله •

ويؤكد هنتغتون وجود محور تعاوني اسلامي ـ كونفوشيوسي (ممثلا بالصين وكوريا الشمالية) حيث التعاون في مجال التسلح وهذا ما يشكل بنظره تهديدا للغرب ومصالحة في العالم •

ويرى الكاتب ان جهود الغرب لنشر الديمقراطية عرفت نجاحا محدودا لاسيما في الدول الاسلامية الاسيوية •• ومن اجل حماية الوحدة الثقافية والاجتماعية للمجتمعات الغربية يحث هنتغتون على ضرورة الحد من الهجرة نحو الغرب لانها تهدد الهوية الوطنية لهذه المجتمعات •

ثم ينتقل للحديث عن الحرب الباردة الجديدة بين الاسلام والغرب ويقول ان التدخلات المستمرة للغرب في العالم الاسلامي ادت الى خلق عداء حاد لدى المسلمين تجاهه •• كما ان التزايد السكاني للمسلمين (ويشير الى ان نسبة المسلمين كانت في العالم عام ١٩٨٠ حوالي ١٨٪ من سكان العالم و٢٠٪ سنة ٢٠٠٠ ويتوقع ان تصل الى ٣٠٪ في سنة ٢٠٢٥) يشجع هذا

التزايد على الهجرة الى الغــرب او الانخراط في الحركات الدينية •• كما ان أنهيار الانظمة الشيوعية ادى الى غياب العدو المشترك للاسلام والغرب ولذلك انتقل العداء او احتد فيما بينهما •• كما ان الاتصال والتفاعل الواسع بــين المسلمين والغربيين يؤدي الى تعزيز الوعي بالهوية وبالتمايزات الموجــودة بينهما وهذا ما ادى حسب رأيه الى تراجع قيم التسامح فيما بينهما •

ثم يتناول موضوع العلاقات المتوترة بين الولايات المتحدة واليابــان والصين •• فثمة مشاكل اقتصادية بين الولايات المتحدة واليابان تؤثــر في علاقاتهما الى درجة ان بعض المسؤولين الكبار في اليابان بدأوا يعيدون النظر في الوجود العسكري الاميركي •• اما العلاقات بين الولايات المتحدة والصين فانها اصبحت جد متوترة •• فالاميركيون يعتقدون ان الشرق الاقصى سيصبح قلب الاقتصاد العالمي لذلك فانهم لن يسمحوا للصين بالهيمنة على المنطقــة وتهديد المصالح الاميركية حسب رأيه •

ويتطرق المؤلف الى موقع الاسلام في صدام الحضــارات ويدعــي ان للاسلام حدودا دموية ويزعم ان النزاعات الواسعة والصراعات الدموية خاصة مرتبطة بالمسلمين دون غيرهم من الشعوب •• وهذا ما يجعل الاسلام مصدرا لعدم الاستقرار في العالم حسب رأيه •

وعلى الرغم من تســمية القســم الخامس وهو الاخيــر من الكتــاب بــ « مستقبل الحضارات » فان المؤلف يركز اهتمامه على مستقبل الحضارة الغربية ، ويرى ان بقاء الغرب يعتمد على الولايات المتحددة وعلــى الشعــب الاميركي ويطالب هذا الاخير بتقوية هويته الغربية ، كما يعتمد على قبــول الغربيين لحضارتهم على انها حضارة فريدة وليست عالمية وهذا مطلب مهــم من اجل المحافظة على الحضارة الغربية وتجديدها في وجــه الحضــارات المتحدية •• ويهتم هنتغتون بتأكيد ان تجنب حرب عالمية حضارية (اي بــين الحضارات) يعتمد على القيادة العالمية التي تقبل ان تتعاون في ظل النظــام العالمي الجديد •

ويتساءل المؤلف بقلق عن مدى قدرة الغرب على تجديد ذاته لتفادي انهياره او خضوعه لحضارات اخرى اكثر حيوية اقتصاديا وثقافيا ، ويطرح مجموعة من الاجراءات للحفاظ على قوة الحضارة الغربية وتماسكها منها :

(١) مجابهة مشاكل ومضاعفات التفسخ الاخلاقي والتشتت السياسي وانهيار القيم العائلية (٢) ترسيخ الهوية الثقافية للولايات المتحدة ضد تيار التعددية الثقافية الذي يدافع عن الخصوصيات الثقافية للمجموعات الاثنية داخل الولايات المتحدة وهو ما يشكل تهديدا لوحدتها السياسية والثقافية (٣) التوجه نحو الاندماج السياسي والثقافي والاقتصادي والعسكري بين اوربا والولايات المتحدة • (٤) الحد من القوة العسكرية للدول الاسلامية والكونفوشيوسية •

ومن اجل تلافي حرب عالمية كبرى بين الحضارات فمن الضروري امتناع الدول الكبرى داخل كل حضارة عن التدخل في الصراعات التي تدور داخل الحضارات الاخرى واتخاذ الوساطة اساسا لاحتواء ووقف النزاعات الحدودية بين الدول ذات الحضارات المختلفة وتشجيع ونشر القيم والمبادىء المشتركة بين شعوب الثقافات المختلفة •• لهذا لابد من احترام تعددية الثقفات وتنوعها بقصد تحقيق الأمن العالمي •• لكنه يرى انه في سياق النظام الجديد من الضروري ان يتعلم الغرب على العيش مع التنوّع العالمي وان توجه السياسة الغربية صوب الابقاء على الهيمنة العالمية عن طريق زعزعة الحضارات المتعادية عسكريا ودبلوماسيا وتحريض بعضها ضد بعض بطريقة توازن القوى •

وينهي المؤلف كتابه بنبرة تشاؤمية كارثية حيث يلاحظ ان القانون والنظام وهما الشرطان الاولان لكل حضارة في تراجع مستمر ولذلك فان الحضارة الانسانية اصبحت في انحطاط ودخلت عصر البربرية والظلام •

لقد قدم هنتغتون في مؤلفه بضعة اسباب لفرضية حول صدام الحضارات: إذ يقول ان السبب الرئيس لذلك هو الاختلاف .. ويرى انه ينشأ صراع بين الثقافات المختلفة القريبة الواحدة من الاخرى لان لها ، في رأيه ، آراء وقيما مختلفة . ومن ناحية اخرى تقرّب التقنية اجزاء العالم بعضها من بعض ، مما يقرب من اماكن الحضارات ويزيد بالتالي من حدة الحسّ بالاختلاف بينها .. كما يشير الى ان قوى التحديث والتغيير الاجتماعي تضعف سلطة الدولة / الامة مما يؤدي في رأيه الى حلول قوى الدين محل الهوية القومية . ويجري اضفاء الطابع البلدي على النخب غير الغربية مما يؤدي ، حسب قوله ، الى الانصراف عن التغريب وهو الانصراف الذي يحدث في كثير من المجتمعات غير الغربية .. ومما يزيد حسب اعتقاده من حدة الاختلاف ما ينسبه الى الهوية الدينية والهوية العرقية من الثبات .. ومن الاسباب الاخرى نشوء الاقليمية الاقتصادية مما يسهم حسب رأيه في تماسك مجموعات حضارية مختلفة او ما يسميه في مرحلة لاحقة « تضامن البلد المماثل » ويقول ان العالم سيستمر في ان يكون مؤلفا من مجموعات متداخلة من الدول لكن هذه المجموعات ستكون على هويات حضارية مشتركة وليس على معتقدات عقائدية مشتركة .

تكمن اهمية كتاب « صدام الحضارات » اذا ما انتقلنا الى تقييم فرضيته الاساسية في الامور الآتية :

اولا : اننا قد لا تنفق مع النتائج التي توصل اليها المؤلف في كتابه كلاً او جزءا إلا ان تحليلاته بشكل عام مهمة لفهم المرحلة الانتقالية التي يمر بها الوضع الدولي الراهن ، كما اننا في الوطن العربي معنيون مباشرة بخطاب صدام الحضارات وفرضيتها لما يثيرانه من امور وتكهنات .

ثانيا : أعاد صموئيل هنتغتون الاعتبار والاهتمام بالعوامل والمكونات الثقافية التي تشكّل التمايز والخصوصيات الحضارية كأحد محددات

سلوك الجماعات والدول •• وعلى الرغم من انه ليس اول من اشار الى اهمية العوامل الثقافية في التفاعلات والعلاقات بين الشعوب والدول ولكن وبسبب مكانة المؤلف في الدراسات الدولية ومحاولته صياغة نظرية متكاملة عن « صدام الحضارات » مما يجعل اي جهد بحثي مستقبلي لا يمكنه تجاهل الابعاد الحضارية في العلاقات الدولية •

ثالثا : ان هنتغتون نجح في استثارة العقول لاعادة النظر في المناهج النظرية السائدة حول السياسة الدولية ، ولاسيما تلك التي تعيش اسيرة حقبة الحرب الباردة • فلم يكتف بهذه الاطر الفكرية السائدة حول عالمنا المعاصر بل انه اعاد صياغة الاسئلة الكبيرة حول ماهية النظام الدولي بشكل قد يفتح افاقا جديدة ويقود بالتالي الى مناهج جديدة لتفسير التحول في النظام العالمي •• فالمناقشات والردود والانتقادات التي احدثتها فرضية صدام الحضارات يعتبره بعضهم بمثابة انقلاب على الاطر الفكرية السائدة •

رابعا : حظي كتاب صدام الحضارات باهتمام كبير من طرف المهتمين بالشؤون الدولية •• وترجم الى جميع اللغات العالمية •• وفي الولايات المتحدة الاميركية حظي الكتاب باهتمام خاص نظرا لكون صنّاع القرار ورجال السياسة الاميركية لم يعيروا من قبل اهتماما كبيرا للابعاد الثقافية للعلاقات الدولية ، ولم يبذلوا اي جهد لفهم الفضاءات الثقافية في العالم وذلك قد يرجع ربما الى افتقاد الولايات المتحدة الرؤية التاريخية للتاريخ الانساني •

خامسا : ان الكتاب دعوة صريحة الى إعادة النظر في الاولويات الستراتيجية للولايات المتحدة على اساس ان الحضارة الغربية ليست كونية وان المستقبل سيتّلور على وفق رؤى حضارية مختلفة في ظل عالم متعدد الحضارات •

لقد وجهت انتقادات كثيرة لكتاب « صـدام الحضـارات » واعتبره العديد من المحللين انه يحتوي العديد من الثغرات الكبيرة الفاضحة والمغالطات نجملها في الآتي :

اولا : على الرغم من الاهمية التي تلعبها الحضارات في تشكيل رؤيـة وسلوك الافراد والجماعات في نظر كل منهم الى الاخر إلا ان الحضارة ليست المحدد الاساس لسلوك الدول •• وهنا فان المؤلف قد قدم اطروحة تبسيطية بشكل مفرط وهذا مالا يمنحها القوة التفسيرية اللازمـة لفهم الاضطرابـات والمتغيرات العالمية •• فالتركيز الشديد على الثقافة كعامل احادي حتمي محدد للسياسات الدولية ، هو نوع من الخمول الفكري الذي يتخفى وراء طروحات تريد تحويل البشر الى سجناء ابديين لثقافاتهم التي تحفزهم على الدخول في حروب وعداوات فيما بينهم •• والواقع ان الثقافة لا يمكن ان تكون الفاعـل الاساسي المتحكم في سير العلاقات الدولية ، فالسياسة الدولية نتاج تفاعـل مستمر ، ومعـقد وجد بين مؤثرات متعددة يتداخل فيها الثقافي والاقتصـادي والسياسي والعقائدي بغيره من العوامل •• كما ان مفهوم الثقافة يفتقر الـى التحديد الملموس بنظر بعض الكتاب ، فكل الثقافات تضم كل القيم العالمية •

ثانيا : هنالك نقد يوجه لتصنيف هنتغتون للحضارات إذ انه يصـنفها احيانا على اساس جغرافي (الحضارة الغربية) وتارة اخرى على اساس زمني (الحضارة الكونفوشيوسية في القرن الرابع قبل الميلاد) ومرة على اسـاس ديني (الحضارة الاسلامية والحضارة الهندوسية) وليس على اسـاس مقياس ومعيار واحد في تحديد مفهوم الحضارات المتصارعة •

ثالثا : ان السهولة التي قسم بها المؤلف العالم الى حضارات تتصـل بينها حسب رأيه خطوط صدع سياسي تبعث على الدهشة لان هذه الفرضـية تتسم بنزعة تقريرية مغالى فيها بنظر بعض المختصين • وهذه النزعة تثير خلافا كبيرا حول مسائل معينة من بينها تحديد من هو الغربي ؟ ولماذا لا يعتبـر

هنتغتون اجزاء من اميركا اللاتينية غربية بالنظر الى التغير الكبير الذي مرت به تلك الاجزاء خلال السنوات الاخيرة التي جعلها كما يرى بعض الكتاب اقرب اقتصاديا وثقافيا وسياسيا من اوربا الغربية وامريكا الشمالية فضلا عن ان انحدارات جزء هام من شعوب اميركا اللاتينية هو من شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال) •

رابعا : يتعامل هنتغتون مع الحضارة وكأنها تشكيل متجانس وجامد ومتميز ، وهذه فرضية تفتقر الى الحقيقة بنظر بعضهم فاكثر من اي وقت مضى تساهم ثورة المعلومات والاتصالات في اتجاه التمازج الحضاري وكسر حواجز الجمود والتمايز •• ولا يتناقض هذا التقييم مع حقيقة الاتجاه الخاص باعتزاز ابناء مختلف الحضارات بحضارتهم ومحاولة تجديد عناصر الثبات في هويتهم •• فالفكرة الاساسية هنا هي ان جميع الحضارات تحتوي على عناصر تناقض وانسجام وتمايز وعالمية مما يجعلها اقرب الى الديناميكية منها الى الجمود •

خامسا : ان هنتغتون يبالغ في تأكيد اهمية بعد تصادم الحضارات واهمل التفاعل البنّاء الخلاّق بين الحضارات وهذا التفاعل هو سمة للحضارات اكثر ثباتا من سمة الصراع بينها •• وبالتالي فان الكتاب يرسم صورة قاتمة على دوام الاختلاف وسيناريو حرب عالمية ثالثة تخاض حسب خطوط الصدع الثقافية ويبدو ذلك متعارضا حتى مع صورة الحضارة التي وصفها هنتغتون نفسه بانها كائن ديناميكي •

سادسا : أن ايمان المؤلف بحتمية صدام الحضارات يذكرنا ببعض المدارس التي تتبنى الحتمية ومنها المدرسة الماركسية التي طالما تبنت الصراع الحتمي بين الطبقات •• وكما ان تلك المدرسة قد انهارت بفعل إنهيار معظم أقدم التجارب الشيوعية فان اي حتمية ، بنظر بعض الكتاب ، ستواجه المصير نفسه •• وهكذا فان دعاء هنتغتون بضرورة التخلص من إرث الحرب الباردة لم يحالفها النجاح اذ بدا ان همه الرئيس من مساهمة إدارة الصراعات

مع التحديات التي تواجه الغـرب ـ وبشكل خاص الولايات المتحـدة ـ في عالم ما بعد الحرب الباردة . ان هنتغتون لم يخف هذا الامر فقد انهى مقالته الاولى بتوصيات لقادة الحضارة الغربية حول كيفية ابقاء هيمنة تلك الحضارة كما انه ختم كتابه بفصل عن مستقبل الحضارات وما عناه هو الدفع باتجاه الحفاظ على موقع الحضارة الغربية مستقبلا .. أليس ذلك هو ايضا ترويجا لحتمية الهيمنة الغربية على العالم ؟

سابعا : وهكذا حتى لو كان هنتغتون مصيبا في تأكيد ان الغرب يختلف جوهريا عن بقية العالم فان الصراع بين الحضارات ليس حتميا على الاطلاق.. ومن شأن قبول زعماء الغرب ومفكريه لفرضية هنتغتون ان يجعل نشوب هذا الصراع اكثر احتمالا .. وقد يسأل بعضهم لماذا ستكون العلاقات بين الحضارات ـ مهما كان عددها ـ موجهة صوب الصراع ؟ ولماذا لا يعيش المرء ويدع الاخرين يعيشون ؟ ولماذا يتعين على القيم المتعارضة ان تولد مواجهة سياسية وعسكرية ؟ اسئلة كثيرة بحاجة الى اجابات مقنعة .

ثامنا : وبخلاف تأكيد كتاب « صدام الحضارات » على تعاظم دور الحضارات في العلاقات الدولية فان الدولة بوصفها تنظيما سياسيا ، ستبقى بنظر المحللين ، الكيان الدينامي المركزي في السياسة الدولية .. ويخطىء المؤلف بنظرهم إذ يستخف بالمدى الذي اصبح فيه مفهوم الدولة وقوى التحديث والعلمانية جزءا من ذات الشعب والمجتمع في مختلف اجزاء العالم.. ان مصالح الدول ستبقى اساسية والحضارات لا تتحكم دائما بالدول بل ان الدول هي التي تتحكم احيانا بالحضارات .

تاسعا : وهكذا فان االدولة القومية مازالت هي الوحدة الاساسية في النظام الدولي ، وحقيقة ان الدول التي تنتمي الى حضارة واحدة تتعاون وتتماسك فيما بينها لا تلغي ان الدول نفسها تتصارع فيما بينها ايضا ، وغالبا ما تكون الاعتبارات الاقتصادية والتنافس السياسي والعسكري مسببات

التعاون والتصارع .. فقد جرت حروب بين دول تنتمي الى ثقافة ذات تماثل كبير وليس بين كتل حضارية والحربين العالميتين الاولى والثانية مثال واضح على ذلك .. لذا لا توجد دلائل تؤكد على وجود تماسك دائم بين الدول المنتمية الى نفس الحضارة .

عاشرا : يتميز الحقل العلمي للعلوم السياسية والاجتماعية في الولايات المتحدة ، كما يرى بعض ذوي الاختصاص ، بهاجس البحث عن اضفاء الصفة العملية الموضوعية والكمية على مجال العلوم الانسانية .. وهذا ينطبق على كتاب « صدام الحضارات » حيث تتوزع في صفحات الكتاب عدة خرائط وجداول وبيانات واحصاءات وارقام يحاول ان يعزز هنتغتون بها فرضيته ليمنحها قوة تفسيرية وعلمية تجعل منها افضل نموذج نظري لتفسير الشؤون الدولية .

لكن هذه الفرضية تبقى مجرد محاولة تنظيرية لاستشراف خطوط المستقبل خاضعة في ذلك لمنطق النسبية واللايقين .. وبالرغم من ان قراءة الكتاب تعطي انطباعا بجدية الكاتب من حيث الالتزام بمنهج علمي لاختبار فرضيته إلا انه سرعان ما يتضح ان الادلة والارقام التي يسوقها انتقائية كما انها تحمل تفسيرات متعددة .

حادي عشر : يقول هنتغتون في كتابه ان عامل الحضارة المشتركة هو الذي يحدد وجود المجموعات الاقتصادية الاقليمية .. وهنا نسأل لماذا لم تنشأ مجموعة اقتصادية عربية ؟ .. كما ان اليابان والصين اللتين تجمعهما حضارة واحدة لاكنهما لا تنتميان الى تكتل اقتصادي واحد .. في حين ان محفل التعاون الاقتصادي لبلدان اسيا ــ المحيط الهادي مكوّن من دول اميركا اللاتينية واستراليا والولايات المتحدة ونيوزيلندة ودول اسلامية وكونفوشيوسية في جنوب شرقي اسيا .. ومن ناحية اخرى فان الخلاف بين

دول الاتحاد الاوربي ، التي تنتمي الى حضارة واحدة ، ليس اقل من الخلافات داخل محفل اسيات المحيط الهادي ، وخاصة في الشؤ السياسية •

ثاني عشر : يشير مؤلف « صدام الحضارات » الى ان من المسائل التي ستحل بين الحضارات مسائل حقوق الانسان والديمقراطية وبأن الغرب يعمل جاهدا للنهوض بهما بينما لا تقوم الدول الكونفوشيوسية والاسلامية بأحترامها في حين ان هنتغتون يتجاهل ان مصلحة الغرب المتصورة في تشجيع احترام حقوق الانسان والديمقراطية في مجتمعات غير غربية تبقى كما كانت خلال مرحلة الحرب الباردة مسألة عقائدية وسياسية تنطلق من مصالح وليست مسألة حضارات •• وهذا يعني ان جذور التعاون او الصراع بين الدول ليست بالضرورة في الشبه او التطابق الثقافي لكن في المصالح العقائدية والاقتصادية والسياسية •

ثالث عشر : يتسم خطاب هنتغتون في مؤلفه بالانتقائية ويتجلى ذلك في فصل من فصول كتابه بعنوان « حدود الاسلام الدموية » •• ويعرف في هذا الفصل ما ادعى بانه تصادم الحضارات محاولا ان يبين كثرة الصراعات بين المسلمين وغير المسلمين ويورد احصائيات عن صراعات دارت خلال التسعينيات يزعم ان المسلمين كانوا طرفا في غالبيتها •• واسباب ذلك حسب رأيه في ان الاسلام يعظّم القيم العسكرية وانتشار الاسلام الذي وضع المسلمين في احتكاك مباشر مع شعوب كثيرة ، وصعوبة تعايش المسلمين مع الاخرين ، والاستعمار الغربي (وهو يستخف بهذا السبب) والتزايد السكاني للمسلمين وغياب الدولة القائدة في الحضارة الاسلامية •• وينطلق هنتنغتون في ذلك من نظرته الى ان احد اعداء الغرب هو العدو الذي تركز كتاباته عليه هو الاسلام ، حضارة يصورها معادية للغرب طوال قرون •• ويقول بالرغم من ان الغرب يواجهه بضع حضارات فان التحدي الاكبر للمصالح والقيم الغربية يأتي من الارتباط الاسلامي ــ الكونفوشيوسي الذي هو في نظره

مؤامرة بين ثقافتين ساخطتين لتقويض قوة الغرب عن طريق تدفق الاسلحة من الصين الكونفوشيوسية الى دول اسلامية •• في حين ان دولا معروفة تلقت بين ١٩٨٥ــ١٩٩٧ اسلحة غربية بلغ ثمنها عشرات المليارات من الدولارات ولم تحظ باهتمام هنتغتون •

رابع عشر : لقد تعامل هنتغتون في كتابه « صدام الحضارات » مع الاسلام كموضوع للاثارة الاعلامية من خلال التحفيز على التخويف من المسلمين وكراهيتهم عبر تقديم صورة سلبية عن الاسلام باعتباره دينا دمويا عنيفا يشجع على الارهاب وعدم التعايش والاندماج مع الشعوب الاخرى •• وهذه مغالطات تنم على جهل واضح بالاسلام ومبادئه • وبافكاره هذه فان مؤلف « صدام الحضارات » يساهم بذلك في موجة كره الاسلام التي تجتاح العديد من الاوساط الفكرية والسياسية والستراتيجية في الغرب ، ويعزز بذلك مواقف كثير من الكتاب المتعصبين في الولايات المتحدة وفي اوربا وايّد مزاعمهم التي ترى في الاسلام العدو الشامل والكامل للغرب •

خامس عشر : ان تركيز هنتغتون على الحضارة الاسلامية بنظر الكثير من المحللين يعود الى سببين : الاول : انه ينتمي الى معسكر المتوجسين مما يسمى بالخطر الاسلامي والثاني : انه يرى في ظاهرة الصحوة الاسلامية ما يدعم نظريته عن الاعتداد والتمايز الحضاري الذي يقود الى الصدام الحضاري • وقد احتوى القسم الخاص بالاسلام من كتاب « صدام الحضارات » على الكثير من المغالطات منها :

أ ــ ان هنتغتون يعتبر الاسلام حضارة كالحضارات الغربية وليس دينا سماويا ويفترض ان اتباعه جميعا يشتركون في صفات متماثلة بغض النظر عن انحداراتهم وانتماءاتهم المختلفة وانهم يشكلون تحديا محتملا للحضارات الاخرى ولاسيما الغرب •

ب ـ ان الاسلام بالنسبة لهنتغتـون لا ينسجم ولا يتناسب مع القيم الديمقراطية وهو عدواني بطبعه وانتشر بحد السيف ويحاول فرض قيمـه ومعتقداته على الاخرين بالقوة .

ان هنتغتون يتبنى احكاما قيميـة طالما كررها مستشرقون ضمن عمليـة المواجهة مع العالم الاسلامي ويمثل امتدادا لما يعرف بين الدوائر العلميـة في الغرب بالمستشرقين الجدد . وما يميز هؤلاء عن اسلافهم انهم اقل فهما ودراية للاسلام واكثر التصـاقا بالصهيونية وهـذان العامـلان يدفعان بكثـير من المستشرقين الجدد الى التخلي عن المعايير العلمية . وعندما يتعلق الامـر بدراسة الاسلام تتحول الدراسات العلمية الى مجرد اطلاق احكام قيميـة اقرب ما تكون الى النظرة العنصرية الدونية والى الحضـارات والشـعوب الاخرى منها الى الدراسة العلمية الرصينة .

المصـادر المعتمـدة :

1. Samuel P. Huntinton. le choc des civilisations Paris : Odile Jacob, 1997.
2. Samuel P. Huntington. " The clash of civilizations " , Foreign Affairs 72 : 3 (Summer 1993) .

٣ ـ د. عبدالله عبدالدائم ـ العرب والعالم بين صـدام الثقافات وحـوار الحضارات . المستقبل العربي العدد ٢٢٦ كانون الاول ١٩٩٧ .

٤ ـ جميل مطر ـ حدود على السياسة في عالم بلا حدود ـ المستقبل العـربي العدد ٢٣٦ تشرين الاول ١٩٩٨ .

٥ ـ تيسير الناشف : فرضية هنتغتون لتصادم الحضارات . عرض ونقـد : نشرة المنتدى ـ العدد ١٥٥ آب ١٩٩٣ .

٦ ـ نجيب غضبان : صدام الحضارات واعادة صياغة النظام العالمي . المستقبل العربي العدد ٢٢٦ كانون اول ١٩٩٧ .

٧ ـ د. احمد سعيد نوفل : عرض لكتـاب محمد عابـد الجابـري « قضايـا في الفكر المعاصر » . المستقبل العربي العدد ٢٤٣ مايس ١٩٩٩ .

٨ ـ محمد سعدي ـ صدام الحضارات ـ مناقشة لكتاب هنتغتون . المستقبل العربي ـ العدد ٢٤٤ حزيران ١٩٩٩ .

موازين القــوى في ســوق النــفط الــدوليــة *
الدول المستقلة المنتجة للنفط/ أيبك

سيف الدين محمد الحديثي

أستاذ مساعد / قسم الاقتصاد

كلية الإدارة والاقتصاد /جامعة بغداد

ملــخص البــحــث

على ضوء حالة عدم استقرار أسواق النفط العالمية وتعرضها إلى تذبذبــات في أسعاره خلال العقدين الأخيرين،وانعكاس ذلك على اقتصاديــات الــدول المنتجة ، فقد أشار البحث إلى :ـ

١-ترجع دور منظمة الأقطار المنتجة والمصدرة للنفط (أوبك) في الأســواق العالمية للنفط لعدة أسبابها منها التأثير الواقع على بعض أعضاؤها من قبــل الولايات المتحدة الأمريكية بما أثر على وحدة الاوبك في اتخــاذ القــرارات وتنفيذها .

٢-تزايد دور الدول المستقلة المنتجة للنفط (خارج أوبك) وتواجد نفوطها فــي الأسواق العالمية ، وأهمية التعاون والتنسيق مع دول أوبك بما يحافظ علــى استقرار الأسواق النفطية العالمية (إنتاجاً و تسعيراً) وبما يحقق مصالح الدول المنتجة والمستهلكة معا من خلال تعادل تزايد الطلب على النفط ومشــتقاته مستقبلا مع المعروض منها في الأسواق .

---

* قــدم هــذا البحــث إلــى الحلــقة الــنقاشيــة التي أعــد لها المجمــع العلمي بتأريخ ٢٠٠١/٩/١٢

المقدمة :

تعرضت سوق النفط الدولية إلى إعادة هيكله في أعقاب الحقبة النفطية في مرحلة السبعينات تحت مسميات متباينة ولأسباب عدة ومن أطراف وسياسات متفاوتة المصالح منتجين ومستهلكين وإن كان الدور الأكبر تقوده وكالة الطاقة الدولية ومنظمة التنمية والتعاون OECD وصولا إلى تحقيق غاية وهدف يتمثل في تهميش دور منظمة أوبك أكبر تكتل دولي في ما يملك من احتياطيات المواد الهادروكاربونية التي استطاعت أن يكون لها دور مؤثر في أسواق النفط (إنتاجاً وتسعيراً) خلال فترة السبعينات ولفترة قصيرة مقارنة بهيمنة شركات النفط الاحتكارية الدولية على هذه الصناعة وأسواقها فترة طويلة.وذلك لان هذه الشركات ودولها الصناعية ترسخت قناعتها بعدم الاستغناء عن النفط الخام ومنتجاته لأنه الأساس في تقدمها الصناعي وتطورها الاقتصادي مقارنة بغيره من مصادر الطاقة الأخرى ومن غير المتوقع أن يتم التخلي عن هذه المادة أو أن تتحول السياسة العالمية عنه وعليه فأن إعادة هيكلة هذه الصناعة وأسواقها تجري صياغتها من خلال تزايد الاستثمارات المالية فيها من قبل الشركات متعددة الجنسية بعد توجهاتها المتزايدة نحو الاندماج وكذلك التعامل مع هذه المادة بوصفها سلعة تجارية كغيرها من السلع الرئيسة التي تحاول الدول الصناعية عولمتها في إطار منظمة التجارة الدولية وأن يكون لها الدور في تحديد مستقبل الطلب على النفط ومنتجاته واستقرار أسواقه بعيدا عن منظمة أوبك أو في الأقل تهميش دورها يساعدها في ذلك وجود أطراف غيرها يتحكمون في إنتاج هذه المادة وتصديرها ويشكلون عناصر في موازين القوى في سوق النفط الدولية،فضلا عن الدور غير المنضبط لبعض الدول الأعضاء في منظمة

أوبك وفي مقدمتها السعـودية التي تمثل المنتج المرجح في أسـواق النفـط الدولية ولأنها طالما تثبت لأصدقائها في الدول الصناعية دورها في التجـاوز على قرارات منظمة أوبك تسعيرا و إنتاجا بما يخدم مصالح هؤلاء الأصدقاء على حساب مصالح من نشاركهم في عضوية المنظمة وكما وضح ذلك السيد الرئيس القائد صدام حسين في حديثه لجريدة العرب بتـأريخ ١٩٩٩/١/٢٥ (إن أمريكا اتفقت مع السعودية والكويت على رسم سياسات لمواجهة منظمة أوبك وإجهاض أية محاولة لزيادة الأسعار)[١] وهم بذلك شاركوا الأجنبي في صنع اتجاهات السياسة الدولية وتحالفاتها ضد العراق وتوجهاته القومية التي استقطبت الجماهير العربية مما دفعها (أي السعودية والكويت) إلى مشاركة الولايات المتحدة الأوبكية في عدوانها على العراق في أم المعـارك وكيـف إنهما يعملان على تنفيذ سياستها في زيادة إنتاج النفط بالاتجاه الـذي يبقـى أسعاره منخفضة متحملين والدول المنتـجة في منـظمة أوبك أضراره كسبا لرضى الأمريكان عليهم .

وعليه فأن الفرضية التي تعتمدها هذه الورقة تقوم علـى مـا رافـق هـذه الصناعة وأسواقها من متغيرات وظروف حتى أصبحت واحدة من أهم قضايا العصر والعالم وسنعتمد على المنهج الوصفي للنظرية الاقتصادية في جـزء منها . التحليلي لتلك الأحداث والمتغيرات والعناصر المكونة لـها التـي لا يمكن أن نبتعد عن أحدها في الوصول إلى هدف الورقة في استقرار أسـعار عادلة للنفط في ظل أسواق أكثر توازنا مـع إبـراز دور الـدول المسـتقلة المنـتجة للنفط / ايبك وبما يحقق مصالح المنتجين والمستهلكين .

أولا : تساؤلات في أوضاع سوق النفط الدولية

اعتدنا أن نسمع بين الآونة والأخرى عدة تساؤلات عما يجري في سوق النفط الدولية من متغيرات تعصف بالأسعار ارتفاعا وانخفاضا إلى الحد الذي أخذ يقلق الدول المنتجة والمستهلكة كلاً متأثرا بما يصيب مصالحه من دون النظر إلى مصالح الطرف الأخر ونحن نقول إن هذه السوق منذ أن نشأت لم تشهد أي استقرار وإن وجد فأنه مرحلي ينبأ بحدوث ما يعكر صفوه . وفي هذا ننطلق من حقيقة يتفق عليها المعنيون بصناعة النفط واقتصادياتها هي إنها نشأت في خضم الصراع والتنافس في الغرب الأمريكي ، ومنها أمتد ليشمل مناطق أخرى من العالم وفي مقدمتها منطقة الشرق الأوسط التي تعرضت لموجات من الغزو والصراع بين دول الغرب وشركاتها النفطية كلاً يحاول السيطرة والهيمنة على ثرواتها النفطية الضخمة التي أجبرتهم على الاتفاق والتكتل من خلال اقتسام هذه الثروات باتفاقيات الامتيازات التي فرضتها الرأسمالية الغربية التي أولت النفط أهمية خاصة ضمن أهم وسائل تنفيذ إستراتيجيتها في التوسع والسيطرة منطلقة من المقولة (من يملك النفط يملك العالم)[٢] فضاعفوا من استثماراتهم المالية التي حصدوا منها أرباح هائلة فاقت الأرباح التي حصلت عليها كبرى شركاتهم الصناعية والتجارية في دولهم الغربية مقابل حصول الدول المنتجة على القليل من العوائد المالية والتي لا تشكل في مجموعها ما حصلت عليه أي من شركاتها النفطية منفردة ، مما جعل حقول النفط في هذه المنطقة تبدو للعيان اقرب أليها من ميادين القتال في الحرب العالمية الثانية حيث تزايدت أهمية هذه الصناعة حتى أصبحت تشكل عنصرا رئيسا في

الاستراتيجيات الغربية ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية . ومنذ ذلك الحين اصبح من المستحيل تخليص النفط (كسلعة اقتصادية) من صفته السياسية لانه لم يكتسبها بإرادة أي من الأطراف (المنتجين والمستهلكين) وإنما فرضها الواقع وأهميته الاستراتيجية في ظروف الحرب والسلم [٣]. حتى أصبحت هذه المادة تتحكم في أسواق النفط الدولية وتفرض نفسها ليس على هذه الأسواق فقط ، بل امتدت لتشغل حيزاً كبيراً من الأسواق التجارية والمالية مقارنة بغيرها من السلع الرئيسة الأخرى كالحبوب والزيوت والسكر والمعادن التي تهم الأمن الغذائي للشعوب حتى أن أسواق الأخيرة تراجعت أمام المسيطر على أسواق النفط ومنتجاته . وعليه فان هذه التساؤلات أخذت تطرح معها عدة تبريرات في تفسيرها لمجموعة الظواهر التي سادت أسواق النفط الدولية منذ الحقبة النفطية في السبعينات وحتى ألان ، وهذه التبريرات هي :-

١- إن طبيعة السوق النفطية تجعل منها عرضة لدورات متعاقبة Oil Market Cycles لان تجارة النفط الدولية تمر بدورات تنعكس بالتغير على عوامل السوق وتجعلها غير مستقرة نتيجة للتباين الكبير بينها وبين أهداف وسياسات القوى المتواجدة في هذه الأسواق (الدول المنتجة والمستهلكة وشركات النفط الصناعية والتجارية والمضاربين) المتواجدين فيها والتأثير المتبادل والمتشابك والمتناقض بين هذه القوى وسياساتها وعوامل السوق " حتى أصبحت صناعة النفط الدولية اكثر من أن تكون علاقة تبادلية بين مصادر العرض والطلب في الأسواق أو بين الشركات والحكومات ، فنظام هذه الصناعة يعمل من خلال إطار النظام الأوسع

والأكثر تعقيدا للعلاقات السياسية والاقتصادية الدولية "[٤] وصارت أمريكا قادرة على أن تدخل دول الإنتاج النفطي وشعوبها بسلسلة من الأزمات طبقا لستراتيجيتها والرغبات الصهيونية وذلك عن طريق ما تفتعله من تذبذب في الأسعار بين الصعود والنزول بفواصل زمنية تتحكم هي بتوقيتاتها[٥] كالتي حصلت في السنوات ١٩٨٠، ١٩٨٦، ١٩٩٧ .

٢- إن العلاقات بين كبار المنتجين والمستهلكين التي سادت في أسواق النفط الدولية ومنذ تأسيس منظمة الأقطار المصدرة للنفط (أوبك) بقيت تحكمها الشروط التي يرى كل منهم تحقق مصالحه ولم تشهد أي فترة من الفترات السابقة التعاون والتنسيق بالاتجاه الذي يخدم مصالحهم المشتركة والنافع المتبادلة في إنتاج هذه المادة وتسويقها متأثرين بالمتراكم عن الظروف والمتغيرات التي رافقت هذه الصناعة منذ بداية القرن الماضي والسياسات التي وجهتها .

٣- وهناك رأي ثالث يشير إلى إن العصر الذهبي للنفط ومنتجاته لن يتكور وإن عصر حضارة النفط اصبح تحت مطرقة الدعوات التي أخذت الدول الصناعية تروج لها في مؤتمراتها الدولية ومنها المحافظة على البيئة من التلوث وضريبة الكاربون والاحتباس الحراري وتحميل مسؤولية ذلك للدول المنتجة للنفط وهي تحصد العوائد والأرباح والضرائب التي أنهكت المستهلكين لديها ، وفي هذا نذكر ما قامت به الدول الصناعية خلال الحقبة النفطية في السبعينات عندما شهرت سياسيا و إعلاميا بالدول المنتجة للنفط (أوبك) وحملتها مسؤولية ما أصاب الاقتصاد العالمي من ظواهر بسبب سيطرتها على أسواق النفط الدولية (إنتاجاً وتسعيراً) في

الوقت الذي تناست سيطرتها وشركاتها النفطية الاحتكارية على هذه الصناعة وأسواقها واستغلتها ابشع طرق الاستغلال الاستعماري .

٤- وأخيرا تعالت دعوة عولمة النفط Oil Glopalized كجزء من الفعاليات الاقتصادية والسياسية لظاهرة العولمة التي تروج لها الولايات المتحدة الأمريكية في ظل ظروف انفرادها في العالم والتي تدعوا إلى تسريع تنمية العالم من خلال إطلاق شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان وتطوير اقتصاديات الدول النامية وفرض هيمنة الشركات الأجنبية متعددة الجنسيات التي ستتاح لها ولدولها ألام حصد الأرباح والفوائد التجارية بحيث تصل بالرأسمالية المستغلة إلى أعلى مراحلها تساندها في ذلك وكالة الطاقة الدولية ومنظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي وشركات النفط العالمية التي اتجهت الى الاندماج كظاهرة جديدة في العقد الأخير للدخول إلى صناعة النفط بنمط استثماري جديد مما يعكس صورة متشائمة لمستقبل الطلب على الطاقة وفي مقدمتها النفط الخام ومنتجاته ويهدد بقاء منظمة الأقطار المصدرة للنفط (أوبك) وتدعيم دورها في الحفاظ على حالة التوازن والاستقرار في أسواق النفط الدولية (إنتاجا وتسعيرا) أو تحطيم هذا الدور مقابل بقائها كغيرها من المنظمات الدولية وفي مقدمتها (الأمم المتحدة ومجلس الأمن) تحت الهيمنة الأمريكية تمرر من خلالها التوجهات الأمريكية في السيطرة على إمدادات النفط ليس إلى أسواقها فقط بل إلى الأسواق الغربية واليابان ولها من يساعدها في تنفيذ هذه السياسة من كبار المنتجين في المنظمة وخارجها كالمملكة العربية والسعودية والمكسيك ودول بحر الشمال وبالتالي العمل على استمرار حالة عدم الاستقرار في أسواق

النفط طالما ظلت المصالح بين كل من المنتجين (كمنظمة) والمستهلكين متباعدة حتى أفقدوا هذه الأسواق مبادئها Markets principles .

ثانيا : تراجع دور منظمة أوبك في سوق النفط الدولية

أن المتراكم من الظروف والمتغيرات الدولية التي رافقت هذه الصناعة طوال النصف الأول من القرن الماضي دفعت بعض الدول المنتجة إلى التشاور في الهموم والمشاكل التي أثرت على اقتصادياتها إلى الحد الذي لا يمكن السكوت عليه جراء السياسات النفطية التي اتبعتها الشركات النفطية الأجنبية في استغلال ثرواتها النامية والتلاعب بحركة الإنتاج والأسعار بما يؤثر على عوائدها المالية ، مما دفعهم للاتفاق خلال اجتماعهم ببغداد عام ١٩٦٠ على تأسيس منظمة أوبك – OPEC حفاظا على ثرواتهم النفطية إنتاجا وتسعيرا ولإيقاف التدهور فيهما وإذا كانت المنظمة خلال عقدها الأول لم تستطع تحقيق سوى إيقاف تدهور الأسعار وانخفاضها وإلغاء خصومات البيع وتنفيق الريع (الإتاوة) في بعض الدول المنتجة والذي اعتبر في حينه مكسبا اقتصاديا إلى جانب أنها أحبطت كل محاولات الشركات النفطية الاحتكارية ودولها الغربية في احتواء هذه المنظمة وصولا إلى إثارة الخلافات بين أعضائها بحكم التشكيلة التي تتكون منها والتي تقع تحت تأثير الهيمنة والتبعية السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية واستمرت المنظمة تجاهد من اجل التوصل إلى اتفاق مع الشركات يحقق سعرا عادلا لنفوطها فقضت عقد الستينات تبحث عن زيادة بضع سنتات على الأسعار المعلنة آنذاك ، وفجأة اعتلت مكانة الريادة وامتلكت زمام الأمور إلى حد

السيطرة والتحكم على أسواق النفط الدولية إنتاجاً وتسعيراً حتى أوصلت سعر البرميل إلى نحو(٤٠) دولار عام ١٩٧٩ بعد أن كان اقل من دولارين علم ١٩٧٢.[٦] ساعدها في ذلك عدة عوامل وظروف منها :-

١_ احترام أعضاء منظمة ألاوبك لقراراتها الإنتاجية والتسعيرية ، والالتزام بتنفيذها

٢_ إجراء تأميم النفط في العراق وليبيا والجزائر .

٣- حرب تشرين/١٩٧٣ والدعوة إلى استخدام العرب للنفط سلاحاً في المعركة .

أن هذه المرحلة (الحقبة النفطية) في صناعة النفط العالمية لم تقع ضمن تطور تلقائي أملتها الظروف والمتغيرات السياسية والاقتصادية الدولية آنذاك فحسب وإنما هي نتيجة لتراكم أعباء المراحل السابقة خضعت خلالها الدول المنتجة لابتزاز سياسات الدول الغربية وشركاتها النفطية التي تناست أن الضجة التي طالما تثيرها مع كل زيادة في الأسعار هي لا تعدو أن تكون ديونا سابقة أو ضرائب متأخرة على حساب سيطرتها الاستعمارية على الدول المنتجة ونهب ثرواتها النفطية الرخيصة التي لا تزال تشكل الأساس في تقدمها الصناعي .

وفعلا وقفت الدول الصناعية وشركاتها النفطية مذعورة عندما وجدت نفسها في هذه المرحلة (الحقبة النفطية) تفقد أول مرة زمام السيطرة على أسواق النفط والتغيرات الجذرية التي طرأت على العلاقات النفطية الدولية التي حولت سوق النفط إلى سوق الباعة الجدد يتحكمون بها إنتاجاً وتسعيراً

مما دفعها إلى إعادة ترتيب أوراقها بعدة إجراءات إتخذها مجتمعة* لمواجهة الارتفاع الحاد في أسعار النفط وما رافقه من زيادة في معدلات التضخم المصحوب بالكساد الاقتصادي (الركود التضخمي) والبطالة والمخاطر التي أخذت تحيط موازين مدفوعاتها وموازينها التجارية ، في الوقت الذي قدرت الفوائض المالية المتحققة للأقطار العربية المصدرة للنفط بحدود (٢) تريليون دولار ذهب غالبيتها وقود إضافية لتغذي حركة الثورة الصناعية الثالثة الزاحفة إلى كل مكان من دون أن يكون لها مقر في دولة معينة بالذات[٧] . ولم يعد كما يتصور بعضهم أن الثراء المالي الذي حققه العرب كان من العناصر الهامة والمؤثرة في حركة المتغيرات والأحداث الاقتصادية والسياسية بالمنطقة العربية وعلاقاتها مع دول العالم لو إنهم أحسنوا استثمارها لصالح العمل الاقتصادي العربي المشترك ولكن هذه الاقتصادية العلاقات أخذت تتشكل وتتبلور ليس كما يرغب العرب وإنما كما خططت له الدول الصناعية ونفذته وهكذا وجد العرب أنفسهم في حلقة جديدة من التبعية غير التي كانوا فيها قبل هذه المرحلة من خلال سياسة تدوير "البترو دولار" ووجدت منظمة أوبك إنها عاجزة إلى التوصل لسياسة جماعية تلزم الدول الأعضاء بها وهي الاتفاق على أن يكون إنتاجها بالمستوى الذي يعيد لاسواق النفط توازنها ويحافظ لها أسعارا عادلة أو حتى لإيقاف التراجع والتدهور الذي أصابها في تحقق من خلال تبعيتها لمصالح الدول الصناعية

---

*إنشاء وكالة الطاقة الدولية IEA عام ١٩٧٤ لمواجهة منظمة أوبك وقراراتها وقد أعلنت هذه الوكالة سياستها بشأن الطاقة في أول اجتماع عقد لأعضائها من الدول الصناعية (باستثناء فرنسا) وهذه السياسة تقوم على :-

١- تكوين خزين ستراتيجي لكل من الدول الصناعية يكفي استهلاكها لمدة (٩٠) يوما.

٢-إقرار سياسة ترشيد استهلاك الطاقة وخاصة المنتجات النفطية .

←

الفترات اللاحقة أمام نمط العلاقات النفطية الذي أخذت به الدول الصناعية في أسواق النفط الدولية بحيث غيرت من أنماط استهلاك الطاقة في الامدين القريب والبعيد ساعد على خفض اعتمادها على نفوط أوبك من (٣١) م . ب . ي عام ١٩٧٩ إلى (١٥ – ١٦) م . ب . ي عام ١٩٨٥

٣-تنشيط مراكز البحوث في مجال الطاقة وزيادة استثماراتها لإيجاد الطاقة البديلة المتجددة .

٤-أتباع سياسة مشتركة لاحتواء منظمة أوبك من خلال التسليم بالأمر الواقع وتنشيط شركاتها للاستفادة من زيادة الأسعار في زيادة إنتاجها في المناطق التي تتواجد فيها والتي لا تزال تشكل جزأ كبيرا .

٥- تفعيل أجهزتها الدبلوماسية والاستخبارية والتجارية باتجاه تعميق الخلافات بين الدول الأعضاء في منظمة أوبك من خلال إيهام البعض منهم بأن مصلحته تتحقق من خلال تبعيتها لمصالح الدول الصناعية .

٦-إقناع حكام دول الخليج العربي بالأخذ بالسياسات المالية والتجارية الآتية:

أ-استثمار الفوائض المالية المتحققة لديها كودائع واستثمارات في الدول الغربية والتي بلغت أكثر من (٧٨٠) مليار دولار حتى عام ١٩٧٩ ولدول السعودية والكويت والإمارات المتحدة فقط .

ب-إتباع سياسة تدوير البترو دولار من خلال :ـ

١-تنشيط صادرات الدول الصناعية من السلع الاستهلاكية والعسكرية إلى أقطار الخليج العربي بأسعار مرتفعة .

٢-إقامة مشاريع خدمية غير إنتاجية باستثمارات باهظة تقوم بتنفيذها الشركات الغربية ومنها منشآت ومباني عسكرية وضعت في خدمة قوات التحالف في عدوانها على العراق عام ١٩٩١ .

٣-تخفيض حدة التضخم التي تعاني منه اقتصادياتها ودعم القدرة الشرائية لعملاتها والمحافظة عليها من الهزات والاضطرابات التي أصابتها ودعم موازينها التجارية والمدفوعات وتقليل ظواهر العجز التي أخذت تعاني منه في تلك المرحلة .

وتراجع عائداتها المالية من (٢٨٥) مليار دولار عام ١٩٨٠ إلـــى (٧٦,٨) مليار دولار عام ١٩٨٦ وهبوط نصيبها في المعروض في أسواق النفط من (٥٠%) إلى نحو (٣٠%)[٨] وفي هذا المجال تتحمل دول أوبك الأعباء التي ترتبت عن زيادة أسعار نفوطها خلال الحقبة النفطية حيث كـــان عليـــها أن تواجه :ـــ

١-انخفاض الاستهلاك العالمي من النفط فـــي الـــدول الصناعيـــة بســـبب الإستراتيجية التي اتفق عليها في وكالة الطاقة الدولية .

٢-زيادة الإنتاج لدى المنتجين الحدين خارج أوبك نتيجة لطفـــرة ارتفـــاع الأسعار .

ومع بداية الثمانينات وجدت دول أوبك التي كانت تهتز لاجتماعاتها أســـواق المال في العالم تتخلى تدريجيا عن أهم وظائفها لتبدأ مرحلة من التنـــازلات لمواجهة السياسة الغربية التي أحاطت بالمنظمة وبعـــض دولـــها وأخـــذت بالتأثير عليها وقد أدرك العرق مبكرا هذه سياسة وحـــذر مـــن الطفـــرات السعرية في الامدين القريب والبعيد[٩] .

وهكذا أخذت دورات ارتفاع أسعار النفط وانخفاضها تعصف بأسواقه كـــل يحاول التأثير فيها مفهوم أمن الطاقة Energy Security أمـــام قـــوة النفـــط الدافعة لخلق فرص تجارية تقوم علـــى المنافســـة ليـــس بيـــن المنتجيـــن والمستهلكين فحسب ولكن فتحت الأبواب أمام لعبة جديـــدة للطاقـــة دخلـــت إستراتيجيات العالم ولم تخرج منه وكان أحد أطـــرافها الـــدول المنتـــجة

خارج أوبك " المستقلة " أيبك التي استفادت من الفرصة التي أتاحتها الحقبة النفطية بارتفاع أسعار جميع النفوط في العالم وتزايد الصادرات بحيث زادت مساهمتها فيها من (١٥,٩) م . ب . ي عام ١٩٦٥ إلى (٤٠,٦) م . ب . ي عام ١٩٧٨ وقد دفعت هذه الدول من قبل وكالة الطاقة الدولية لتساهم بشكل مباشر في الاختلال الذي أصاب التوازن في أسواق النفط وعدم استقرار أسعاره .

ان تواجد دول " ايبك " في السوق النفطية كان مبكرا ولاسيما الاتحاد السوفيتي (سابقا) والمكسيك وبعضها الآخر تواجد مع تزايد أهمية صناعة النفط وتزايد أسعاره في الحقبة النفطية حيث أخذت تنشط في مجال الإنتاج والتصدير بعد أن غادرت المستوى الحدي الذي كان عائقا أمامها إلى المستوى الذي يحقق لها الأرباح حتى أخذ يشكل مجموع إنتاجها أكثر من نصف الإنتاج والطلب العالمي كما يؤشر ذلك الجدول الملحق .

ثالثا :ـ النفط وتوجهات السياسة العربية

مع كل مرحلة تاريخية هناك من الأحداث ما يفرض عليها الكثير من المظاهر والعوامل التي تقتضي المسؤولية التصدي لها ليس فقط بالدراسة والتحليل وإنما بوضع ستراتيجية المواجهة لكي تحد من تأثيراتها السلبية وعندما نفتش عما وراء هذه الأحداث أو حتى مظاهرها نجد في مقدمة ذلك النفط ومستقبل الطاقة في العالم وتحميل العرب مسؤولية كل ما يقع تحت هذا الموضوع ولا سيما من قبل الدول الصناعية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية التي ترى في ارتفاع أسعار النفط ما يهدد تدفقه

إلى أسواقها ويعرض اقتصادياتها إلى الركود أو تباطؤ النمو في الوقت الذي تلتزم فيه الصمت عند تدهور أسعاره وانخفاضها بحيث يعرض شعوبها إلى الفقر والتبعية . مما دفعها إلى التحرك وبكل الوسائل والطرق وعلى مختلفة المستويات الإقليمية والدولية لكي تضمن استمرار إمدادات النفط من أضخم احتياطي موجود في العالم من منطقة الخليج العربي ومن خلال التوجهات الآتية : ــ

١- تصريحات كبار السياسيين الغربيين[١٠] ولا سيما تلك التي صدرت عن رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ووزراء الخارجية والطاقة التي تصب مجملها في تأمين حصولها على النفط ليس من خلال التعاون التجاري والتقني بين المنتجين والمستهلكين ، وإنما من خلال التهديد بالسيطرة واحتلال منابع النفط وكأنهم الوارثون لهذه الثروة في أماكن غير بلادهم.

٢- تجمع الدول الصناعية في إطار مؤسسي (وكالة الطاقة الدولية) التي نشأت عام ١٩٧٤ وأقرارها لستراتيجية مستقبل الطاقة وفق ما أكده (كيسنجر) في أول اجتماع لها "أن نعمل أولا على تنسيق البيت الغربي من الداخل وألا ندخل في أي حوار مع منتجي النفط ألا إذا كنا في مركز القوة [١١] .

٣-دعوة الدول الصناعية ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحوار بين الأطراف المعنية بالطاقة والنفط والعمل على توجيه جولات الحوار بالاتجاه الذي يخدم مصالحها ولا سيما استمرار تدفق النفط بألاسعار والكميات التي تراه مناسبا لها وليس للدول المنتجة .

وعلى النحو الاتي :ـ

أ- دعوة الرئيس الأمريكي نيسكون / ١٩٧٤ في خضم الحقبة النفطية (السبعينات) لرؤساء الدول المنتجة للنفط للاجتماع في واشنطن لمناقشة موضوع تزايد أسعار النفط . في الوقت الذي أصرت فيه هذه الدول إلى أن يكون الاجتماع في نطاق الأمم المتحدة وتناقش فيه مواضيع أخرى تهم الدول النامية ومنها أسعار السلع الصناعية والحصول على التكنولوجيا وفعلا عقدت الأمم المتحدة دورتها السادسة عام ١٩٧٤ والسابعة ١٩٧٥ من دون أن تخرج بقرارات حاسمة وإن كانت فرصة لتبادل الآراء بين المنتجين والمستهلكين ، وإن المنتجين قد أظهروا وحدتهم في هذه الاجتماعات .

ب-عقد لقاءات الحوار بين المنتجين والمستهلكين وهذا ما تم الاتفاق عليه خلال مؤتمر التعاون الاقتصادي الدولي الذي عقد بباريس في كانون الأول /١٩٧٥ وتحت ما يسمى بالحوار بين دول الشمال والجنوب وقد مثل الدول الصناعية في هذا اللقاء وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية (كيسنجر) ومثل دول أوبك محمد زكي يماني وزير النفط السعودي . وعقد اللقاء الثاني في حزيران ١٩٧٧ ولم يتوصل هذان الاجتماعان إلى أي صيغة للاتفاق سوى الإشارة إلى إنهما ساهما في تحسين مستوى التفاهم وتبادل الآراء بين الدول المشاركة . وقد عقدت عدة لقاءات أخرى في باريس /١٩٩١ والنرويج ١٩٩٢ وإسبانيا /١٩٩٤ وفنزويلا / ١٩٩٥ والهند /١٩٩٦ وكيب تاون /١٩٩٧ والرياض /٢٠٠٠ ، وفي كل هذه اللقاءات تصر الدول الصناعية ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية

على استبعاد مناقشة أسعار النفط الخام وتدعو إلى تركه إلى قوى العرض والطلب في الأسواق ، في الوقت الذي تضغط الدول المنتجة على مناقشة أسعار المنتجات النفطية التي تضمن للدول الصناعية قدرا كبيرا من الريع الاقتصادي وعوائد الضرائب . وخلال هذه الاجتماعات كانت تجري لقاءات بين مجموعة دول أوبك ودول أيبك تتبادل الآراء حول ما يهم الأسواق النفطية ومسؤولية التواجد فيها بما يحقق الأسعار العادلة لنفوطها .

ج-عقد لقاء الحوار العربي ـ الأوربي الذي بدأ منذ منتصف السبعينات تحت وطأة وتأثير ما ترتب للعرب خلال الحقبة النفطية من تزايد ثرواتهم المالية ودعوتهم لاستخدام سلاح النفط ضد الدول التي تساند العدوان الصهيوني على العرب الذين أجادوا الحرب النفسية لإنذار الغرب بأنهم على استعداد للمضي حتى النهاية إذا اقتضى الأمر مما دفع غالبية الدول الأوربية على رفض تأييدها لإسرائيل في عدوانها على العرب وكذلك منع توريد الأسلحة والمعدات الأمريكية عبر أراضيها إلى الكيان الصهيوني . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا تخلى العرب عن الحوار والتعاون فيما بينهم ولم يتخلوا عن الانغماس في التبعية مع الولايات المتحدة الأمريكية والتفاوض مع الكيان الصهيوني . ولمصلحة من ؟ !

٤- تأسيس عدة تجمعات بعضها أخذ الطابع المؤسسي ، وبعضها الآخر اقتصر على عقد اللقاءات كلما تطلب الأمر ودعت الضرورة في أسواق النفط الدولية ومنها :

أ-وكالة الطاقة الدولية .

ب-مجموعة الدول المستقلة المنتجة للنفط ـ أيبك .

ج-رابطة منتجي النفط الأفارقة ــ أبا التي نشأت عام ١٩٨٧ .
د-ميثاق الطاقة الأوربي / التابع للاتحاد الأوربي بعد إقراره من قبل مؤتمر الأمن والتعاون الأوربي الذي عقد عام ١٩٩١ .
هـ-المعاهدة الدولية للبيئة والتنمية التي أقرت في مؤتمر الأمم المتحدة في البرازيل / ١٩٩٢ (قمة الأرض) وضريبة الكاربون .
و-اهتمام منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD بأمور الطاقة ومستقبلها وأسواقها.

٥- عقد مؤتمرات وندوات اقليمية ودولية لمناقشة مواضيع تتعلق بمصادر الطاقة ومستقبل الطلب على النفط الخام تشارك فيها مؤسسات حكومية وغير حكومية ومنها :
أ-مؤتمر القمة العالمي للبترول التي تشرف عليه النشرة البترولية Petro Strateies بالتعاون مع شركة توتال ــ والفا والمعهد الفرنسي للبترول .
ب-مؤتمر دول حوض البحر المتوسط للبترول الذي عقد اجتماعاته بالتناوب سنويا بين إيطاليا عام /١٩٩٣ومصر عام/٢٠٠٠ .
ج-المؤتمر الدولي للنفط والغاز برعاية شركة أي . أي . اراكسهبشانز وبمشاركة دول في الشرق الأوسط والمغرب العربي .
د-مؤتمر الطاقة والبترول العالمي الذي تنظمه مؤسسة كامبردج لأبحاث الطاقة .
هـ- مؤتمر النفط والغاز للشرق الأوسط الذي تنظمه مؤسسة Conference Connection (I.n.c) ومقرها في سنغافوره .

و-مركز دراسات الطاقة الدولية

Center For Global Energy Studies – London- CGES

ز-مؤتمر الطاقة العربي الذي عقد أخر مؤتمره السابع في القاهرة عام ٢٠٠٢وهو البديل لمؤتمرات البترول العربية التي كانت تعقد في نطاق جامعة الدول العربية ما بين الفترة ١٩٥٩/١٩٦٩.

فضلا عن أن موضوع مستقبل الطلب على النفط أخذ يستحوذ على الاجتماعات واللقاءات الدورية والطارئة لرؤساء الدول الصناعية والنامية وهذا إن دل على شئ فأنه يدل على إن النفط سيبقى يتصدر مصادر الطاقة لانه أكثر أمنا والأفضل استخداما والأرخص أسعارا والأنظف استعمالا وإن كان طالما يشكل سبب رئيسا لتعارض مصالح الدول المنتجة والدول المستهلكة ولا سيما الصناعية منها التي تعمل من خلال وكالة الطاقة الدولية على إجهاض أي محاولة للحوار والتعاون كما فعلت ذلك في اجتماع باريس عام ١٩٩١ . مما يبقي قضية أسعار النفط تشكل أهم القضايا الشائكة التي تشغل العالم كلا ينظر إليها من الزاوية ألتي تتعلق بمصالحه السياسية والاقتصادية . في الوقت الذي لا تزال منظمة أوبك تعصف بها خروج بعض أعضائها عن ما يحقق مصالحها من جهة وسياسات الدول الصناعية حتى أصبحت كأنها في المراحل الأخيرة من عصر النفط على الرغم من إنها تسيطر على النحو (٧٧%) من الاحتياطي العالمي ، منها (٨٤%) للأقطار العربية من مجموع احتياطي دول أوبك و (٦٤%) من الاحتياطي العالمي . وهذا يعني تراجع فكرة النضوب المادي لهذه الثروة ــ لانه غير محدد في الامدين القصير والمتوسط ــ بحكم تداخل كثير من العوامل الفنية والاقتصادية والسياسية التي ترافق هذه الصناعة وهذا لا يدعو

إلى التفاؤل إذا ما أدركنا إن مجموعة دول أوبك أخذ ينحسر دورها وأخذت تعاني من النضوب الاقتصادي الذي هو أشد من النضوب المادي لان ذلك يدخل في حساب فقدان النفط لأهمية الستراتيجية التي كان يتمتع بها في عقد السبعينات . وإن ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب إن بعض دول أوبك لم تحاول الاستفادة من خبرتها وتجاربها في الصناعة النفطية القديمة لديها ومن خلال علاقاتها مع الشركات الأجنبية العاملة لديها والدول التابعة لها ، كما أنها لم تستطع توظيف خبرتها الدبلوماسية (دبلوماسية النفط) لمصلحتها الوطنية حتى يمكن أن توصف سياستها بقصر النظر في الوقت الذي أجادت الدول الصناعية إدارة هذه الدبلوماسية وهذا الصراع في الوقت نفسه باتجاه تعميق الخلافات والتناقضات داخل أوبك وخارجها بما يخدم مصالحها .

رابعا :ـ الدول المستقلة المنتجة للنفط / أيبك

يتفق المعنيون باقتصاديات صناعة النفط ، إن إنتاج النفط في الدول خارج أوبك في معظمه محكوم بمأزق تدني الأسعار وانخفاضها بحكم المواصفات التي تتصف بها هذه الصناعة في هذه الدول وطبيعة إنتاجها ونوعية النفوط وبالتالي فأن مع كل انخفاض في الأسعار نرى الكثير من هذه الدول يأخذ الإنتاج فيها بالتراجع ويتم تقليص أنشطة الحفر والاستكشافات ومعدل خطط تطوير الآبار المنتجة حديا وتنخفض عوائدها المالية وهذا ما حصل فعلا في السنوات ١٩٨٠ ، ١٩٨٦ ، ١٩٩٧ ، .

وقد سجل إنتاج غالبية هذه الدول أرقاما مرتفعة خلال السبعينات وخلال

الفترات اللاحقة التي شهدت أسواق النفط الدولية انتعاشا ملحوظا ومنها عام ١٩٩٩ حيث تزايدت إمدادات النفط خارج أوبك بشكل ملحوظ ، وأن كانت لم تكن قادرة على استيعاب الزيادة في الطب مما أدى إلى إحداث زيادات تدريجية في الأسعار واللجوء إلى دول أوبك لزيادة الإنتاج على فترات وحتى بداية عام ٢٠٠١.

ويمكن أن نؤشر جملة من المؤشرات على الإنتاج في هذه المجموعة (أيبك) ودورها في التواصل مع منظمة (أوبك) إلى أسعار عادلة للنفط ومستقبلها الإنتاجي في أسواق النفط وعلى النحو الآتي :ـ

١-الاتحاد السوفيتي (سابقا)

تتمتع مجموعة الدول المستقاة (الاتحاد السوفيتي سابقا) باحتياطات نفطية وغازية هامة وتمتلك طاقات إنتاجية واسعة ولا سيما في روسيا الاتحادية وأذربيجان . حيث تقدر الاحتياطيات المؤكدة فيها بحدود (٥٧) مليار برميل ويمكن أن يصل إنتاجها اليومي إلى (١٠,٥) م . ب . ي في ظل ظروف اقتصادية مستقرة ومتطورة . ويشكل الاحتياطي من الغاز الطبيعي نحو (٤٠%) من الاحتياطي العالمي[١٣] ، وإن أي تطور في الاقتصاديات روسيا الاتحادية في ظل توجهاتها الإصلاحية التي يمكن أن تنال صناعة النفط بإدخال :ـ

أ - إدخال تقنيات جديدة إلى هذه الصناعة .

ب-تحويل هذه الصناعة إلى النشاط الخاص بالتعاون مع شركات النفط الأجنبية .

ج-زيادة برامج التطوير للآبار منتجة وإعداد برامج جديدة للحفر والاستكشاف في مناطق جديدة في روسيا .

وإذا ما نجحت هذه السياسة ستعمل على زيادة تواجد النفط الروسي في الأسواق الدولية كما كانت على سابق عهدها قبل الانهيار الذي أصاب هذه الدول وما رافق ذلك من عدم استقرار سياسي واقتصادي واضطرابات طالت العاملين في صناعة النفط والمناجم حتى تراجع الإنتاج فيها من (٤,٣)م . ب . ي عام ١٩٨٨ إلى (٢,٤) م . ب . ي عام ١٩٩٥ . وعلى الرغم من إن الإنتاج قد تزايد حتى بلغ عام ٢٠٠٠ نحو (٦,٦)[١٤] م . ب . ي فمن غير المتوقع أن تقدم هذه الدول أكثر مما هي مرغمة عليه بحكم ظروفها التي أخذت تنعكس على استعدادها للتعاون مع توجيهات منظمة أوبك بالتواصل إلى أسعار عادلة .

٢- أما بالنسبة إلى المكسيك ، فأن ارتفاع الإنتاج فيها من (٢,٧) م . ب . ي عام ١٩٩٤ إلى (٣,٦) م . ب . ي عام ٢٠٠٠[١٥] فأن ذلك لم ينعكس على زيادة صادراتها بل بالعكس انخفضت بمعدل (١٠%) عن مستواها عام ١٩٨٨ لعدة أسباب منها تزايد الاستهلاك المحلي والمشاكل الاقتصادية التي تعاني منها

وفي مقدمتها المديونيه الخارجية التي تصل إلى (١٠٠) مليار دولار وتزايد معدلات نمو السكان فيها وما تفرضه عليها اتفاقية النافتا NAFTA من التزامات اتجاه شريكها الولايات المتحدة الأمريكية مما يجعلها واقعة تحت تأثير سياسة الأخيرة وتوجهاتها ولاسيما في مجال إنتاج النفط لذلك نراها قد دأبت على التشاور مع بعض الدول من منظمة أوبك (السعودية وفنزويلا) وقد يكون هذا بتوجيه من الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها .

٣- الصين . إن ما نشهده هذه الدولة من تطورات اقتصاديـــة فـــي العقـــود الأخيرة حيث ارتفع معدل النمو الاقتصادي مـــن ٤,٢% عـــام ١٩٨٩ إلـــى ١٣,٤% عام ١٩٩٣ انعكس على زيادة الطلب على الطاقة من (٩) مليـــون طن عام ١٩٨٠ إلى (١٧,٤) مليون طن عام ١٩٩٨ والمقدر أن يصل إلـــى (٣٤,٤) مليون طن عام ٢٠١٠[١٦] فان تواجد نفطها في السوق الدولية ضعيف جدا إن لم تعمل على التحوط مستقبلا لكي تكون دولة مستوردة رئيسية للنفـــط الخام ومنتجاته .

٤- وبخصوص الدول المنتجة في أفريقيا (أنغولا ، كولومبيا ، مصر) فـــأن ما تعانيه الأولى والثانية من مشاكل تتمثل بعدم استقرارها سياســـيا وتدهـــور أوضاعها الاقتصادية إلى الحد الذي هدد بتوقف الإنتاج فيها عدة مرات وهـــذا أنعكس على انقطاع صادراتها إلى الأســـواق العالميـــة وتخوف المستهلكيـــن من التعاقد معهما .

أما بالنسبة إلى مصر التي زادت في تعاقداتها مع عشرات الشركات النفطية الأجنبية فأن الإنتاج فيها لا يزال من الضآلة بحيث لا يزيد من صادراتـــها إلا بنسب ضعيفة لا تؤثر على الأسعار ، هذا مع مؤشرات العمر الزمني غـــير المشجع للإنتاج المستمر في الدول أعلاه .

٥- أما بالنسبة لليمن فأنها دولة حديثة للإنتاج والتصدير وبالتالي فأن قدراتها على التـــأثير في الأســـواق الدولية قليلة بحكم اقتسام الشريـــك المســـتثمر الأجنبـــي فضلا عن إنها تتمتع بما تعارف عليه في صناعة النفط من إفســـاح المجال أمام المنتجين الجدد في تنمية حقولهم حتى تبلغ ذروتها ويمكن التشاور

معها بشأن تحديد الإنتاج والأسعار . وان كان من المتوقع إذا ما استمر الإنتاج فيها إلى التزايد أن تنضم اليمن إلى منظمة أوبك.

٦- وهناك أيضا . عمان وماليزيا وكلاهما يمكن أن يحققا عوائد مالية اكثر فيما لو أحسنوا التعاون والتنسيق مع مجموعة دول أوبك ، ويتضح هذا الموقف اكثر بالنسبة إلى سلطنة عمان .

٧- وهناك من الدول المنتجة / التي يعول على إنتاجها ليس فقط في الكميات و إنما في التأثير على قواعد التسعير في الأسواق الدولية وهي الدول التي تتقاسم الإنتاج في بحر الشمال (نفط برنت) وتتخذ سياسات نفطية فيها من الخبث الاستعماري ولأنها تخضع لتأثير توجيهات الولايات المتحدة الأمريكية ووكالة الطاقة الدولية وميثاق الطاقة الأوربي . وان كان تواصل إنتاجها يخضع إلى مستوى الأسعار السائدة وظروف الإنتاج في المياه العميقة والبعيدة عن الشواطئ . فعلى سبيل المثال إن انخفاض أسعار النفط عام ١٩٩٧ أدى إلى تباطؤ أنشطة الحفر والاستكشاف حتى إن عدد الآبار المنتجة قل عددها من (١٨٧) بئرا إلى (١٣٢) بئرا وانخفاض عدد العاملين في هذه الصناعة بنسبة ٤٨ % قي النرويج و٢٥ % في الدانمارك و ٣٥,٥ % في هولندا[١٧] مقارنة بجهود الشركات النفطية العاملة في بحر الشمال وتزايد نشاطها التطويري والاستكشافي في مرحلة ارتفاع أسعار النفط عام ١٩٨٩ . وقد سجل انخفاض الإنتاج عام ١٩٩٨ أول مرة منذ عشر سنوات ليسجل (٦,١) م.ب.ي. بانخفاض قدره (٠,٦%) سنويا ولا سيما في النرويج التي لم تعمل زيادة الإنتاج الطفيفة في إنكلترا و الدانمارك وهولندا من تعويض ذلك .

فالمملكة المتحدة بلغ إنتاجها عام ١٩٩٨ حوالي (٢،٧) م . ب . ي بزيادة قدرها (٣,٥ %) عن عام ١٩٩٧ ، وتعتبر أكبر منتج في المنطقة من الغاز الطبيعي حيث يشكل إنتاجها نحو (٤٣%) أي بحدود (٩٦,٨) بليون م٣ وهي من لديها قدرة تصديرية من النفط الخام بمعدل (١،٠) م . ب . ي وهي من الدول الرئيسية في وكالة الطاقة الدولية التي ترفض التعاون والتنسيق مع منظمة أوبك ومجموعة أيبك بشأن استقرار أسواق النفط والتوصل إلى أسعار متوازنة ، وإن شاركت في بعض لقاءات الحوار التي جرت بينهم .

أما النرويج فهي أكبر منتج للنفط في بحر الشمال ، عملت على زيادة إنتاجها من (١,٤) م . ب. ي عام ١٩٨٨ إلى (٣,٣) م . ب . ي عام ٢٠٠٠ بعد الانخفاض الذي شهدته عام ١٩٩٨ وبنسبة (٤،٢ %) وذلك يعود إلى تردي الإنتاج في حقولها القديمة وحاجتها إلى استثمارات مالية ضخمة لتطوير حقولها الجديدة وهذا لا يشجعها إلا في ظل أسعار مرتفعة نسبيا ومن خلال اتفاقيات مشاركة مع الشركات النفطية العالمية . أما في مجال الغاز الطبيعي فأن إنتاجها قد وصل عام ١٩٩٨ إلى نحو (٤٣,٦) بليون م٣ . وتشارك النرويج في لقاءات التشاور والحوار مع الدول المنتجة أوبك وأيبك وتدعوا إلى تحقيق أسعار عادلة وأسواق مستقرة .

أما بالنسبة لإنتاج كل من هولندا والدانمارك فأنه محدود . وفي كل الأحوال فأن إمكانيات بحر الشمال وتأثيرها على إمدادات النفط في الأسواق الدولية لا يزال يكتنفه الكثير من التساؤلات والمحاذير وإن كانت هذه الدول والاتحاد الأوربي يأملون أن تستمر المنطقة منتجا رئيسيا له وزنه وتأثيره في سوق النفط الدولية .

نلخص مما تقدم إن كل المؤشرات الفنية والاقتصادية التي تتحكم في إنتاج النفط في مجموعة الدول المستقلة (ايبك) تشير إلى إنها ستفقد بحدود (٢,٥) م . ب . ي من قدراتها الإنتاجية يضاف إلى ذلك توقعات زيادة الطلب على النفط الخام مستقبلا بحدود (٢,٥%) حتى عام ٢٠٠٥ كل ذلك سيتحول إلى الدول المنتجة في منظمة أوبك وهي وحدها القادرة على زيادة إنتاجها وصادراتها لتغطية احتياجات السوق الدولية في الوقت الذي أخذت بعض الدول المستقلة المنتجة تتجه إلى خفض قدراتها الإنتاجية بسبب حالات النضوب والتقادم الزمني لحقولها وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية مع استخدامها لأحدث التقنيات وتكنولوجيا الحفر والتطوير في حقولها الحالية أو مناطق الإنتاج في تكساس والاسكا والبرتا في كندا مما سيبقي قضية الطاقة في الولايات المتحدة الأمريكية من القضايا الملحة والحادة كما كانت في المراحل السابقة في ظل هاجس النقص الحاد في مصادرها داخل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها في المكسيك وكندا ، وعليه فأن إستراتيجية الطاقة الأمريكية الجديدة في عهد بوش كما كانت في عهود من سبقوه الرؤساء في التركيز على التعامل مع كل عناصر أمن الطاقة وتنشيط كل الوسائل والسياسات التي إتبعتها منذ السبعينات من خلال وكالة الطاقة الدولية ومنظمة التعاون والتنمية مدعومة بتوجيهات جديدة ومنها :

١-تدعيم مخزونها الستراتيجي الذي أقرته وكالة الطاقة الدولية منذ السبعينات بإقناع بعض الدول المنتجة الرئيسية ولا سيما السعودية بتخزين نفوطها في الولايات المتحدة الأمريكية في الحقول الجافة وفي خزانات كبيرة عائمة تكون تحت تصرف الولايات المتحدة الأمريكية ومن خلال

تشجيع هذه الدول (الخليج العربي) بزيادة إمداداتها من النفط والمشاركة معها في مشاريع نفطية مشتركة تقام في الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا ولا سيما في مجال التوزيع والنقل .

٢- تعزيز اندماج أسواق الطاقة مع أسواق السلع والمنتجات الصناعية والغذائية الرئيسية الأخرى وأن تأخذ اهتماما أكبر في المنظمات والتكتلات الدولية كمنظمة التجارة الدولية ومنظمة النافتا والباسفيك .

٣- تنشيط الشركات العالمية الكبرى النفطية والصناعية والتجارية لزيادة استثماراتها في هذه الصناعة من خلال خلق مناخ مناسب مستخدمين تقنيات حديثة في مناطق الإنتاج الرئيسة في الخليج العربي وبحر القزوين وتشجيع هذه الشركات على الاندماج بما يحقق لها مكاسب مادية كبيرة وسيطرة أوسع على مناطق إنتاج النفط . أن هذه السياسة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية من خلال عولمة هذه الصناعة وتدويل هذه الثروة ومشاركة غيرهم ولا سيما العرب وإشعار البعض منهم وكأنهم (أي أمريكا) شركاء لهم في ثرواتهم النفطية والانتفاع باستخدامها وعوائدها المالية وهذه السياسة تدعو إلى الحذر والتبصر لعدة احتمالات :-

١- أن الولايات المتحدة الأمريكية تعمل من خلال سياستها النفطية حاليا الاعتماد على استيراداتها من منطقة الشرق الأوسط بما يؤمن ليس حاجاتها الاستهلاكية فحسب وإنما تكوين الخزين الاستراتيجي لها وإقناع بعض الدول المنتجة ومنها السعودية والكويت والإمارات وعمان على أن يزيدوا من صادراتهم النفطية لخزنها في الولايات المتحدة الأمريكية

وإيجار الاحتياطيات النفطية الموجودة في هذه الدول لشركاتها النفطية وفي هذا تأييد للدعوات الأمريكية السابقة التي روج لها وزير الخزانة الأمريكي السابق (وليم سايمون) ووزير خارجيتها (كيسنجر) التي تقول :ـ

" إن هؤلاء الناس لا يملكون النفط ... وإنما جالسون عليه "[١٩] إنهم جيران أباره وليسوا مالكيه ، وإنهم لهذا السبب مستعدون لتقديم كل شئ مقابل لا شيء لمن يفاوضهم "[٢٠]وتحول الدول المالكة مجرد محطات للحماية.

٢- إنها تبقي عملياتها الإنتاجية في حقول تكساس والآسكا والبرتا في كندا لمستقبل الطاقة المجهول ، وهذا ما يمكنها من أن تضمن إنتاج هذه الحقول إذا ما تعرضت مناطق التجهيز الحالية في الشرق الأوسط إلى أزمات سياسة وحروب تقطع إمدادات النفط إليها أو حتى نضوب حقولها الإنتاجية في الأمد البعيد . وفي كل الأحوال فأن كل المؤشرات تؤكد عدم إمكانية الشركات الأمريكية من تلبية الزيادة في الطلب على النفط الخام ومنتجاته نتيجة لتراجع إنتاج الولايات المتحدة الأمريكية وإن إنتاج المكسيك وكندا والاسكا لا يمكن الاعتماد عليها لأنها محدودة الإنتاج مع كل ما تصرفه الولايات المتحدة من استثمارات مالية وتقنية .

خامسا :ـ استقراء في مستقبل الطلب على النفط الخام

وهكذا وجدت الدول المنتجة للنفط صاحبة الرأي النهائي في مسألة تحديد معدلات الإنتاج لأنها صاحبة الحق المطلق بما تملكه من ثروات نفطية

وجدت نفسها وقد فقدت هذا الدور لصالح الدول الصناعية منذ بداية الثمانينات وبالتالي فأن النفط كان ولا يزال يشكل أهم عوامل الدعم لمقومات القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي يجتمع حولها تحالف الدول الصناعية بقيادة أمريكا " حتى صارت قادرة على أن تدخل شعوب ودول الإنتاج النفطي بسلسلة من الأزمات طبقا لستراتيجيتها ولرغبات الصهيونية وذلك عن طريق ما تفعله من تذبذب في الأسعار بين الصعود والنزول بفواصل زمنية تتحكم هي بتوقيتاتها " [٢١] التي حصلت في الأعوام ١٩٨٠ , ١٩٨٦ , ١٩٩٧ .

وهذا ترك خبراء التحليل الاقتصادي وهم يتناولون أنماط الطلب على النفط في أسوقه الدولية ونتيجة التغيرات الهيكلية و تعدد الأطراف التي تتعامل فيها يجدون هذه الأسواق فيها الكثير من المتغيرات والمجاهيل ، تتضارب فيها التنبؤات وتعدد المصالح حتى إن إحداث أي تغير في العلاقات النفطية في هذه الأسواق أخذت تشكل تحديا لأسس النظرية الاقتصادية والعلاقات الدولية بسبب تلك المتغيرات ومنها :-

١-دراسات عن نظرية الموارد الناضبة .

٢-دراسات اقتصاديات الطاقة والنفط .

٣-نماذج الأسواق النفطية .

٤-المنظمات والتكتلات للدول المنتجة والمستهلكة للنفط ومنتجاته .

٥-تقنيات صناعة النفط .

٦-عامل المناخ وتلوث البيئة .

٧-عوامل أخرى .

وعليه فأن كل المؤشرات الاقتصادية والفنية والسياسية المرتبطة بهذه الصناعة مع غيرها من المتغيرات ساهمت في عدم استقرار أسعار النفط التي

تركت من الآثار السلبية على الدول المنتجة أكثر مما هو عليه في الدول الصناعية التي لم تكف أي مرحلة تاريخية من حصد الأرباح والضرائب من خلال مبيعاتها للمنتجات النفطية المتحققة حيث بلغ سعر البرميل منها عام ١٩٩٥ (٨٦,٧) دولار في الوقت الذي كان فيه سعر برميل النفط الخام حوالي (١٠) دولار .

وفي كل الأحوال فأنه مهما كانت أسعار النفط مرتفعة أو منخفضة فأن الطلب عليه سيستمر بالوتائر والمعدلات نفسها تقريبا لانه من غير الممكن وجود البديل الذي يعوض عنه كمصدر رئيسي رخيص للطاقة و كمادة أولية تساهم في إنتاج سلع استهلاكية ووسيطة غير محدودة العدد حتى الآن .

وفي هذا رد على التوقعات التي نشرت في أعقاب الحقبة النفطية (مرحلة السبعينات) والتي انصبت على:ـ

١-انهيار منظمة (أوبك) أمام الصدمات التي تعرضت لها أسعار النفط وإخراج هذه المنظمة من دائرة التحكم في أسواق النفط.

٢- استنفاذ الدول المنتجة للنفط لاحتياطياتها بأسرع وقت بحكم تزايد قدراتها الإنتاجية في مراحل ارتفاع الأسعار .

٣- أفول نجم النفط تحت تأثير تزايد اهتمام الدول الصناعية بالاستثمار في بدائل الطاقة حتى أن بعضهم حدد نهاية القرن السابق لتحول النفط إلى سلعة بائرة ، وانتهاء عصر النفط أمام تصاعد دعوات تلوث البيئة والاحتباس الحراري .

إن هذه التوقعات التي كانت تتسم بعدم اليقين أو التضليل المتعمد للحقائق من قبل الدول الصناعية وكأنها لم تكن هي المستفيدة الأولى من هذه الثروة والدليل على ذلك هو تزايد الطلب على النفط الخام في الأسواق الدولية حتى وصل (٧٨) م . ب . ي عام ٢٠٠٠ بعد أن كان (٦٨) م ز ب . ي عام ١٩٩٥ [22]. وفي هذا ردا على الدعوات التي أطلقها (نادي روما) في تقريره حدود النمو Limits of Grwth خلال الحقبة النفطية بشأن النقص في إمدادات النفط وقرب نضوب أهم مصادره في العالم . كما جاءت دعوة أخرى أخذت تقلق العالم وهي ظاهرة التغير في المناخ Climate Change والتضليل الإعلامي الذي يصدر عن الدول الصناعية حول ظاهرة الاحتباس الحراري Green House efect إلى الوقود الاحفوري على الرغم من عدم اليقين العلمي لكل أبعاد هذه الظاهرة التي تعود إلى التعقيدات في نظام الطبيعة Complexity of Natural System .

وهذا لا يعني في كل الأحوال استبعاد الحيطة والحذر وإن على الدول المنتجة للنفط أن تواجه مثل هذه الدعوات المشوهة التي يقصد من وراءها عدم استقرار أسعار النفط . في الوقت الذي تعلم الدول الصناعية مقدار تحملها المسؤولية في بقاء تخلف الدول النامية ولا سيما القطاع الزراعي والغابات ومقاومة ظاهرة التصحر التي أخذت تزحف وتتوسع من خلال الحرائق وإبادة الغابات باسم تجارة الأخشاب في الدول الصناعية.

وعليه فأن توقعات مستقبل الطلب على النفط الخام ومنتجاته المبنية على حقائق ومؤشرات الطلب واستهلاك هذه المادة طوال قرن من الزمن مع فعل الكثير من العوامل والمتغيرات التي رافقت أسواقها فأنها مجتمعة لن تخرج النفط ومنتجاته من دائرة الضوء لانه سيبقى لعقود قادمة يتصدر قائمة

مصادر الطاقة يؤيد ذلك استمرار تزايد استثمارات في هذه الصناعة واستخدام احدث التقنيات في البحث والإنتاج وتطوير الآبار المنتجة والتوجه إلى اندماج كبريات الشركات النفطية المشارة إليها آنفا في غمرة ما يسود العالم من توجهات "العولمة " هي أمثلة على الاتجاه نحو تكامل العمليات النفطية والسيطرة عليها من قبل الشركات العملاقة متعددة الجنسية التي أخذت تعود مجددا لتدخل هذه الصناعات كما دخلتها في بداية القرن السابق ولان حركة رؤوس الأموال أخذت تتجه في استثماراتها الصناعية أو في بورصات الأموال بحدود (٤٠٠) بليون دولار يومياً ، في حين إن تبادل السلع والبضائع من خلال التجارة الدولية لا تزيد حركتها عن (٤) بليون دولار يوميا [٢٣]. وقد وصفت حركة هذه الأموال " أوراق مالية تطارد أوراق مالية أخرى " من أجل تحقق الثراء الفاحش لهذه الشركات والمؤسسات المالية مع إشاعة المضاربات وحرب الإشاعات والصفقات الورقية الوهمية في أسواق النفط في الوقت الذي تبقى حصيلة الدول المنتجة قليل من العوائد المالية إن لم يكن العودة إلى تبعية البترو دولار التي سادت الحقبة النفطية خلال السبعينات .

وهناك ثلاث توقعات حول تزايد الطلب على النفط الخام ومنتجاته مستقبلا صادرة عن ثلاثة مراكز مهمة في الدول الصناعية وهي :-

١-إن خبراء وكالة الطاقة الدولية أشاروا في دراستهم إلى حصول زيادة في معدل الطلب على النفط بمعدل (٢,١%) يرتفع من (٦٨) م . ب . ي عام ١٩٩٥ إلى (٨٦) م . ب . ي عام ٢٠٠٥ وإلى (١٠٥) م . ب . ي عام ٢٠١٠ ، وإن أسعاره ستكون في الحد الأدنى وهي (١٨) دولار وهو سعر

تستبعده كل المعايير بسبب تنامي الطلب الذي سيوصله إلى (٢٥ – ٢٨) دولار للفترة أعلاه . ستتحمل مجموعة دول أوبك مسؤولية توفير نحو (٤٧–٥٠) م . ب . ي ولترتفع مساهمتها من (٣٩%) حاليا إلى (٤٤% – ٥٨%) خلال ٢٠٠١ –٢٠٠٥[٢٤] وإن غالبية النفط القادم إلى الأسواق سيكون من السعودية ، العراق ، إيران ، الكويت ، فنزولا . وذلك بسبب تدني الإنتاج في غالبية الدول الأخرى أن لم يكن قد غادر الإنتاج الكثير منها بسبب النضوب الذي يصيب آبارها .

٢- أما الاتحاد الأوربي ممثلا بمجلس وزراء الطاقة ، فقد دأبوا في كل اجتماعاتهم على التأكيد أن تأمين احتياجاتهم الحالية والمستقبلية من النفط الخام ومنتجاته سوف يكون من منطقة الشرق الأوسط لان المتوفر من احتياطيها لا يسد الطلب المتزايد لديها ، لذلك تراهم طالما يدعون إلى الحوار مع الدول المنتجة في أوبك و أبيك .

٣- أما وزارة الدفاع الأمريكية التي يقع عليها مسؤولية تأمين حماية إمدادات النفط ومنتجاته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومصالحها العسكرية في الخارج يعتمد على استيراداتها من الخارج وخاصة منطقة الخليج العربي لذلك دأبت على التواجد عسكريا في هذه المنطقة وتواصل الدعم للكيان الصهيوني والتهديد أمن المنطقة وحكامها الذين يعملون على مشاركة الأجانب في الانتفاع من هذه الثروة على حساب المصالح الوطنية والقومية إذ أن منطقة الخليج العربي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية تشكل إحدى نقاط الهامة في ستراتيجية التواجد الأمريكي في العالم وإن الخبراء الأمريكان

عادوا في أعقاب حرب الخليج الثانية " أم المعارك " يراجعون توقعاتهم كما تشير إدارة معلومات الطاقة الأمريكية بشأن انقطاع إمدادات النفط من منطقة الخليج العربي بعد تدمير قدرات العراق العسكرية وفرض الحصار عليه وإخضاع السعودية وغيرها من دول الخليج لزيادة الإنتاج باتجاه الذي يبقي على الأسعار منخفضة واقل من (٢٢) دولار وطالما يؤكدون على أنهم مصدر آمن ومستمر لتوفير النفط الخام إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتعويض توقف صادرات العراق النفطية مع كل أزمة تخلقها الولايات المتحدة الأمريكية باسم الأمم المتحدة للعراق متأثرة بتصريح صادر عن ونستون تشرشل أمام مجلس العموم البريطاني في ١٩١٤/٥/٧ الذي جاء فيه " أن يمتلك موارد نفطية كبيرة يكسبه القدرة على التأثير في الأسعار وتضاعف من قدرته على المساومة "[٢٥]. وقد أكد هذه التوجهات السيد الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله ورعاه حيث أشار "هناك اتفاق بين الولايات المتحدة الأمريكية والسعودية والكويت[٢٦] على رسم سياسات لمواجهة منظمة أوبك وإجهاض أية محاولة لزيادة الأسعار . في الوقت الذي لا يتفق العراق مع أحداث قفزات جديدة ومتلاحقه في الأسعار وننصح بان أي زيادات جديدة يحسن أن تكون متدرجة[٢٧] .للعمل إلى تحقيق الاستقرار في السوق النفطية والسيطرة على مستوى الأسعار وعدم تركها سائبة تتحرك على وفق المضاربات التي تقوم بها الشركات النفطية والوسطاء [٢٨].."

وتقدر الإحصائيات أن يصل حجم الاستهلاك في الولايات المتحدة الأمريكية إلى نحو (١٩,٦) م.ب.ي عام ٢٠١٠والى (٢٣,٦) م.ب.ي عام ٢٠٢٠ وهذا يعني بالضرورة توفير نحو (١٥) م.ب.ي أي اكثر من ٥٠% من خارجها ولا سيما منطقة الخليج العربي هذا إلى جانب حاجتها

إلى نحو (٢,٨) م.ب.ي من منتجات النفطية عام ٢٠١٠ [٢٩]. أيضا إنها لأنها تتجه لخفض طاقاتها التكريرية تحت تأثير اتفاقية كيوتو ـ والانحباس الحراري وهكذا أخذت رياح التغير تعصف بأسواق النفط من عدة جهات كلا يحاول التأثير عليها فيما يحقق مصالحه حتى تراجع مفهوم أمن الطاقة أمام قوة النفط الدافعة لخلق فرص تجارية تقوم على المنافسة ليس فقط بين المنتجين داخل أوبك وخارجه ولكن شرعت الأبواب أمام لعبة جديدة روجت لها الدول الصناعية من خلال وكالة الطاقة الدولية دفعت بالكثير من الممارسات التي شهدتها أسواق النفط الدولية ومنها:ـ

١- قيام بعض دول أوبك بالإنتاج أكثر من السقف الإنتاجي المحدد لها بموجب قرارات المنظمة ، بل إن الأمر أصبح أخطر من ذلك إذ بدأت تمارس عدة سياسات ترمي للتفرقة بين الأقطار العربية المنتجة للبترول عن طريق إثارة التضارب بين مصالحها البترولية .

٢- تشجيع الدول المستقلة المنتجة (إيبك) على زيادة إنتاجها من خلال تنشيط الاستثمارات الأجنبية فيها بما يساعدها على مغادرة إنتاجها الحدي لمنافسة نفوط الاوبك وخفض أسعاره .

٣- استخدام الخزين الستراتيجي في الدول الصناعية ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية ، وإقناع الدول المنتجة على تخزين نفطها في أعالي البحار أو في الحقول الجافة ووضعه تحت الهيمنة الأمريكية لاستخدامه للتأثير على أسواق النفط بالاتجاه الذي يبقي أسعاره منخفضة . وهذا يعني إن

المتحكم الفعلي في أسعار النفط هي الجهات القادرة على تخزين أكبر الكميات وتسويقه وتحويل صفقاته في الوقت المناسب لاستخدامه في ضبط الأسعار من الارتفاع المفاجئ وهذا ما حصل بعد أم المعارك عام ١٩٩١ والحد من ارتفاع الأسعار في نهاية عام ٢٠٠٠ .

٤- توجيه تجارة النفط الدولية لصالح الولايات المتحدة الأمريكية من خلال:[٣٠]

أ- شراء جزء أو كل الاحتياطي النفطي لبعض الدول المنتجة من قبل شركات النفط التجارية الأمريكية كما حصل في نيجيريا و أنغولا ودول في أمريكا اللاتينية .

ب-إقامة مشاريع مشتركة نفطية بين دول الخليج العربي والشركات الأمريكية ولا سيما في مجال النقل والتوزيع بما يؤدي إلى إعادة ربط هذه الصناعة ودولها بالاقتصاد الأمريكي .

٥- إشاعة نوع من العقود النفطية تقوم على المضاربة الآجلة والمقايضة التبادلية والبيوع الصورية وتحويل سوق النفط إلى بورصة دولية للنفط يتعامل فيها الكثير من غير المعنيين بصناعة النفط وتجارته مما كان له تأثير واسع ومباشر في عدم استقرار أسواقه في السنوات الأخيرة .

٦- لقد كان لانهيار أسعار النفط في السنوات الأخيرة أن عجلت بتوجه كبريات الشركات النفطية إلى الاندماج منذ عام ١٩٩٨ ومنها شركتي اكسون وموبيل برأسمال قدره (٨٠) مليار دولار وشركتي النفط

البريطانية وآمكو برأسمال قدره (٥٣) مليار دولار وشركتي توتال الفرنسية وبتروفينا البلجيكية برأسمال قدره (٥٠) مليار دولار وهي تهدف إلى :-

أ- تقليل المنافسة في الأسواق الدولية .

ب- تقليل تكاليف الإنتاج والنفقات .

ج- اقتسام المناطق النفطية الجديدة ولاسيما في الشرق الأوسط و بحر قزوين.

د- أخذ دور مهم ومتزايد في وزنها التفاوضي في أسواق النفط الدولية

هـ- فرض المزيد من الهيمنة والسيطرة على صناعة النفط الدولية في جميع مراحلها لاستعادة أمجادها القديمة.

و- ستساهم هذه الاندماجات إلى محاصرة الشركات الوطنية النفطية والشركات النفطية المستقلة وتعرضها لمشاكل فنية ومالية وبالتالي انهيار أعمالها وتقليص أنشطتها .

٧- تبني الدول الصناعية ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية سياسة مزدوجة في علاقاتها النفطية مع الدول المنتجة فهي تدعوا إلى التشاور والحوار والزيارات المكوكية من كبار المسؤولية فيها عندما ترتفع أسعار النفط والمنتجات النفطية إلى الحد الذي تشكل تهديدا وضغطا سياسيا بإجراءات المقاطعة كما حصل في السنوات الأخيرة . وتبتعد عن ذلك عندما تتعرض الأسعار إلى الانخفاض بما يؤذي اقتصاديات الدول المنتجة وكأن الموضوع لا يهمها بل تلقي باللائمة على الدول المنتجة ذاتها .

أن هذه الدلائل الإحصائية فضلا عن الحقائق والأحداث التي شهدتها المنطقة العربية طيلة القرن السابق تؤكد حقيقة واحدة لا مجال للشك فيها هي"إن المنطقة سوف تبقى إلى أمد غير محدود بؤرة للصراع والتدخل الأجنبي بالاتجاه الذي يضمن تدفق النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي ترى فيه مصدر قوتها العسكرية وتطورها الاقتصادي من خلال استخدامه ليس لمصلحتها فقط و إنما للضغط سياسيا" واقتصاديا"على أوروبا واليابان بما يمكنها من تنفيذ مشاريعها وسياستها في العالم، والعمل على إخراج الدول المنتجة للنفط في منظمة أوبك من مسؤولياتها في تحديد معدلات الإنتاج والأسعار وقد اعتبرت هذا الحق مطلق وهي قادرة على توجيهها بالشكل الذي ينسجم مع سياساتها وضرب الدول التي تقف معارضه لها كما فعلت مع من تحالف معها في ضرب العراق عام ١٩٩١ ويوغسلافيا وفرض الحصار على السودان وليبيا وإيران .

النتائج والتوصيات

أمام هذه المعلومات سالفة الذكر في الصفحات السابقة يقتضي الأمر من منتجي النفط في أوبك وأيبك العمل بالاتجاه الذي يخلق حالة مستمرة من التوازن في أسواق النفط والمنتجات النفطية وبما يحقق أسعار عادلة تقوم على حقيقة أن النفط ثروة لمن يملكها ومن حقه أن يحصل على أسعار عادلة لهذه الموارد الناضبة وهذه الحقيقة تنسجم مع المادة الثانية من الميثاق العالمي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الذي أقرته الأمم المتحدة في ١٩٦٦/١٢/١٦ والتي تنص على " إن من حق أي شعب أن يتصرف بحرية في ثرواته وموارده الطبيعية."

وفي ضوء ذلك نصل إلى بعض التوصيات والنتائج التي إذا ما تحققت يمكن أن نتوقع استقرار الأسواق النفط وأسعارا اكثر عادلة تتحقق مصالح الأطراف جميعها المنتجة والمستهلكة وهي : ــ

أولا :ــ أن منظمة أوبك هي وحدها التي استطاعت أن تحقق استقرارا في أسعار النفط منذ تأسيسها بعد عام ١٩٦٠ وهذا يعني صحة أن التكتل بين الدول المرتبطة بالاستقلال النفطي يسمح بنوع من التوازن في أسواق النفط ضد سيطرة الشركات النفطية الاحتكارية وتدخلها هي والدول التابعة لها في تحديد الإنتاج والأسعار تدخلا مصطنعا وليس لعوامل السوق . ولاجل استقرار سوق النفط الدولية طالما سعت منظمة أوبك إلى إيجاد نوع خاص من العلاقات فيما بينها لتحقيق مصالح دولها .وهذا يدعو المنظمة العودة إلى هذه الحالة بعد ما أصابها من اختراق في العقود اللاحقة لمرحلة السبعينات ولان احترام الأعضاء لهذه المنظمة يشكل جزءا من احترام سيادتها وذلك لأنها صادقت على اتفاقيتها وأهدافها بكامل حريتها ولمصلحتها الوطنية. وهذا يدعو بعض الأعضاء مغادرة حالات الاختراق والتضليل التي أوقعتها به الولايات المتحدة الأمريكية ومقاومة التبعية لها ورفض سياساتها التي تؤمن استمرار تدفق النفط بالكميات والأسعار التي ترضى عنها بغض النظر عن إن ذلك يتعارض مع مصالح الدولة الوطنية ومصالحها الاقتصادية ومصالح شقيقاتها من الدول الأعضاء في المنظمة .

ثانياً :ــ إيجاد قنوات الاتصال والتعاون وتبادل المعلومات بين دول أوبك ودول أبيك فيما يتعلق بدراسات سوق النفط لان استقرار الأسواق يحتاج

إلى تعاون جميع الأطراف المنتجة فيما بينهم ولان قرارات أوبك ــ في العقود الأخيرة ــ بشأن تحديد الإنتاج وتوزيع الحصص بين الأعضاء لم تكن الحل الأمثل وان كانت تساعد على تخفيف حدة التقلبات التي أصابها لذلك تتجه منظمة أوبك إلى إيجاد علاقات تشاوريه واتصالات منفردة وجماعية مع الدول المنتجة الأخرى لأنها ترى فيها ضرورية لتوازن أسواق النفط واستقرار أسعاره من خلال ما تشكله مجتمعة من أهمية ومسؤولية في نظرة العالم إلى أهمية النفط بوصفه مصدرا رئيسا للطاقة، وأن كان هذا التوجه يصطدم بتأثيرات سياسة الولايات المتحدة الأمريكية .مما حمل الآخرين تبعيات ذلك وتضحيات كبيرة مع كل صدمة نفطية .

ثالثا:ــ تعاون الدول المنتجة للنفط في مواجهة الشركات العالمية النفطية (الصناعية والتجارية) التي لا تزال تسعى لكي تتواجد في هذه الدول من خلال ايجاد فرص جديدة للاستثمار أو تطوير تواجدها بصيغ اكثر إيجابية وبما يحقق مصالح الجميع من خلال حصول الدول المنتجة على تقنيات ومعدات حديثة تساهم في تطوير إنتاجها بنفس الوقت الذي يبقى تواجد الشركات محققة أرباحا معقولة وهذا يتحقق من خلال :ــ

ا- حصول الدول المنتجة على استثمارات جديد وبشروط أفضل .

ب- حصول الدول المنتجة على تقنيات متطورة في مجال صناعة النفط بما يساعدها على تطوير حقولها وزيادة إنتاجها.

ج- إحلال مبدأ التعاون في مجال تطوير هذه الصناعة على أساس احترام المصالح النفطية وسيادة الدول المنتجة بعيدا عن الهيمنة والاستغلال الاستعماري البشع .

رابعا :ـ أن تتجه دول منظمة أوبك إلــى إقامـــة مـــركز دول لتبـادل المعلومات ولاسيما معلومات تقنيات صنـــاعة النـفط والغــاز ومنتجاتهــا على غرار المركز الذي أنشأته الدول الصناعية عام ١٩٩٤ .

خامسا:ـ أن يعمل كل من المنتجين والمستهلكين على إشاعة روح التعـاون واحترام المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة التي لا يمكن أن تتحقق إلا فـي ظل أسواق للنفط و المنتوجات اكثر استقرارا وأسعارا اكثر عدالة منطلقين من أن هذه الثروة هي نعمة الله لاسعاد الإنسانية ورفاهيته وليس أن تحول لتكـون نقمة على الشعوب المالكة لها. ويمكن أن تدرك هــذه النعمـــة مـــن خـلال ضخامة الاحتياطيـــات الموضحة في الجدول أدناه.

جدول يوضح الاحتياطيات المؤكدة

من النفط الخام والغاز الطبيعي في الدول المنتجة حاليا

والمتوقع حتى عام ٢٠١٠

	١٩٧٨	١٩٨٨	١٩٩٨	٢٠١٠
النفط الخام / كمية:مليار برميل	٦٤٨	٩١٨	١٠٥٣	١٨٠٠
الغاز الطبيعي/ كمية : تريلون م٣	٧٠	١١٢	١٤٦	

المصادر:

د.أنور العبد الله/ المصدر السابق ص ٦٣

سادسا:ـ إذا كان التاريخ مؤشر المستقبل فان ما توضحه الجداول الخاصة بالاحتياطيات المؤكـدة للـنفط والغاز في الدول المنتـــجة تثبـــت مـرة أخرى كم كانت تقديراتها السابقة متحفظة وإنها في حقيقة الأمر اكثر بكـثير

وذلك بحكم ارتباطها بالتطور التقني في العالم وبالكفاءة والرخص والآمان في الاستعمال مقارنة بغيرها من مصادر الطاقة الأخرى ولا يتوقع أن يتخلى النفط عن هذه المكانة في المدى القريب أو أن تتحول السياسة العالمية عنه حتى في ظل توجهات العولمة. وهذا يعطي رجحان دور الدول المنتجة في منظمة أوبك ولاسيما دولها (السعودية، العراق،الكويت ،الإمارات المتحدة،إيران) وهذا يعتمد أيضا على التوقعات المتفائلة المبنية على ما تملكه هذه الدول من احتياطيات ضخمة في الوقت الذي أخذ فيه تراجع الإنتاج في الكثير من الدول المنتجة الأخرى ولاسيما خارج أوبك بحكم احتياطاتها القليلة وأنها تنتج بأقصى طاقتها ولاسيما في فترات تزايد الأسعار مما سيقرب مغادرتهم لأسواق النفط الدولية حتى مع أستخدامها لأحدث التقنيات لإعادة تأهيل حقولها النفطية . مع وجود توقعات تزايد الطلب العالمي على النفط بنسبة ١٠٠% في عام ٢٠١٠ أي بزيادة قدرها ٤٤% عن الطلب العالمي المتحقق عام ١٩٩٥[٣١] .وهذا ما دعا الدول الصناعية وشركات النفط الكبرى إلى أن تتجه إلى المزيد من الاستثمارات في الدول التي تمتلك حقولا عملاقة لا تتمكن الدول المنتجة أن توفرها إلا من خلال الاعتماد على الاستثمارات الأجنبية وبالطريقة والأسلوب التي يصار إلى تحقيق استقرار في الأسواق و أسعار عادلة وأفضل هذه الطرق هو الاعتماد المتبادل بين الدول المنتجة والمستهلكة الذي هو الضمان الوحيد لذلك الاستقرار المطلوب.وهذا بدوره يعمل على تصحيح معدلات التبادل التجاري والموازين التجارية لهذه الدول وتطوير اقتصادياتها .

جدول (١)

يوضح الإنتاج العالمي وانتاج أوبك وحجم تصديرها من النفط الخام والعوائد المالية المتحققة

الكميات : مليون برميل / يومياً **المبالغ : مليار دولار**

السنوات	الإنتاج العالمي	إنتاج منظمة أوبك	حجم التصدير منظمة أوبك	فوائد منظمة أوبك المالية
١٩٦٥	٣٠,٢	١٤,٣	١١,٨	٧,٩
١٩٧٠	٤٥,٧	٢٣,٤	٢٠,٢	١٤,٥
١٩٧٣	٥٥,٨	٣٠,٩	٢٧,٥	٣٦,٥
١٩٧٩	٦٢,٨	٣٠,٩	٢٦,٨	٢٠٠,١
١٩٨١	٥٦,٠	٢٢,٦	١٨,٤	٢٦١,١
١٩٨٦	٥٥,٥	١٧,٩	١٢,٦	٧٦,٩
١٩٩٠	٥٩,٥	٢٢,١	١٦,١	١٤٧,١
١٩٩٥	٦٠,٤	٢٤,٦	١٨,١	١٣٣,٢
١٩٩٦	٦١,٩	٢٤,٦	١٨,٣	١٦٥,٤
١٩٩٧	٦٣,٠	٢٥,٤	١٩,٢	١٦٥,٩
١٩٩٨	٦٥,٣	٢٧,٨	٢٠,٤	١١٠,١
١٩٩٩	٦٣,٩	٢٦,٢	١٩,٤	١٥٤,٧
٢٠٠٠	٧٦,٧	٢٧,٨	٢١,٣	

OPEC: ANNUAL Satistical Bulletin . 1999 : P . 15
OPEC:ANNUALSatistical Bulletin .1996 : P . 15
OPEC:ANNUALSatistical Bulletin .1985:P .15

جدول رقم (٢)

صادرات النفط الخام والمنتجات النفطية

من العالم ومنظمة أوبك للسنوات ١٩٦٥-١٩٩٩

الكميات : ملايين البراميل / يوميا

السنوات / لأقاليم	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٣	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨٥	١٩٩٠	١٩٩٥	١٩٩٨	١٩٩٩
أمريكا الشمالية	٠,٤١٦	٠,٩٨٥	١,٤٥١	٠,٩٩٠	٠,٩٧١	١,٥٠٢	١,٨٣٥	٢,٣٤١	٢,٥٠١	٢,٤٥٠
أمريكا اللاتينية	٤,٥٤٤	٥,١٩١	٥,٤٣٦	٤,٣٦٤	٤,٤٧٣	٤,٠٨٧	٤,٦٣١	٥,٦٩١	٦,٩١١	٦,٤٣١
أوربا الغربية	١,٢٤٩	٢,٣٠١	٢,٨٧٦	٣,٧٣٦	٣,٧٦٠	٣,٦٧١	٦,٢٩١	٨,٤٠٢	٨,٨٤٨	٨,٩٨٩
الشرق الأوسط	٧,٩٨٨	١٣,٢٩١	٢٠,٢٨٥	٢٠,٦٢٢	١٧,٦١٣	٨,٦٠٦	١٤,٧٣٤	١٦,٨٨٠	١٩,٠٩٥	١٨,٤٣٨
أفريقيا	٢,١٥٩	٥,٩٥٥	٥,٢٥٠	٥,٩٩٩	٥,٤١٤	٤,١٧٧	٥,١٥٥	٥,٣٥٥	٥,٧٧٩	٤,٧٢٤
جنوب شرق آسيا	٠,٦٥٢	١,٣١٩	١,٩٥٨	٢,٢٦٦	٢,١٨٢	٢,٩١٥	٣,٣٥٨	٤,٠٥٩	٤,٤٨٤	٤,٤٢٣
استراليا	٠,٠٢١	٠,٠٣٢	٠,٠٦١	٠,١٠٩	٠,٠٩٧	٠,١٨٨	٠,٣١٤	٠,٤١٦	٠,٤٤٨	٠,٤٦٧
الاتحاد السوفيتي	٢,٠٨١	١,٤٨٠	٢,٥٦٣	٣,٩٢٩	٤,٠٤٣	٥,٣٣٦	٣,٣٠٣	٢,٩١٩	٣,٥٣١	٣,٧٣٠
مجموع العالم	١٨,٥٠٨	٣١,١٥٥	٤٠,٤٢٣	٤٢,٠١٦	٣٨,٥٥٣	٣٠,٤٨٦	٣٩,٦٢١	٤٦,٠٦٠	٥١,٥٩٧	٥٠,٤٦١
منظمة أوبك	١٣,٤٠٦	٢٢٠,١٩٦	٢٩,٢٢٢	٢٨,٨٦٣	٢٤,٨٦٣	١٢,٩٢٠	١٩,٦٠٥	٢٢,٢١٧	٢٥,٠١١	٢٣,٧٨٩
الدول المستقلة أيبك	٥,١٠٢	٨,٩٥٩	١١،٩٠١	١٣,١٥٣	١٣,٦٩٠	١١,٥٦٦	٢٠,٠١٦	٢٣,٨٤٣	٢٦,٥٨٦	٢٧,٦٧٢

OPEC; ANNUAL SATITISTICAL BULLETIN; 1985.P.31
OPEC; ANNUAL SATITISTICAL BULLETIN; 1996. 1998.1999
P.31.P.27-29

جدول رقم (٣) أ

النفط الخام : مليار برميل

الغاز الطبيعي :تر بليون م٣

يوضح احتياطي النفط الخام والغاز الطبيعي في العالم حسب المناطق

	أمريكا الشمالية		أمريكا اللاتينية		أوربا الغربية		الشرق الأوسط		جنوب شرقا آسيا	
	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي
١٩٦٥	٣٨,٨	٩,٣	٢٥,٢	١,٨	٢,٦		٢١٤,٨	٦,٢	١١,٤	٠,٨
١٩٧٠	٤٩,٧	٩,٧	٢٦,٢	١,٨	٦,٩	٤,١	٣٧٦,٢	١٠.٠	١٢,٨	١.١
١٩٧٥	٣٩,٨	٨,١	٣٦,١	٢,٣	١٩,١	٤,٣	٣٦٨,٣	١٥,٤	١٩,٦	٢,٤
١٩٨٠	٣٩,٢	٨,١	٧٤,١	٤,٦	٦٥,٧	٤,٥	٣٦٤,٨	٢٤,٠	٣٧,٣	٤,٦
١٩٨٥	٣٦,١	٨,٣	١١٨,٦	٥,٧	٦٤,٤	٥,٤	٤٣١,٩	٢٧,٨	٣٦,٧	٦,٦ذ
١٩٩٠	٣٥,٥	٧,٥	١٢٢,٣	٧,٥	٥٨,٧	٥,٤	٦٦٢,٧	٣٨,٠	٤٠,٩	٨,٥
١٩٩٥	٣١,٦	٦.٦	١٣٠,٥	٧,٩	٥٩,٣	٥,٨	٦٦٥,١	٤٥,٦	٤٢,١	٨,١
٢٠٠٠	٢٩,٧	٦,٤	١٢٣,٧	٨,١	٦٧,٢	٧,١	٦٧٨,٨	٥١,٧	٤١,٣	١١,٤

OPEC; ANNUAL SATISTCAL BULLETIN; 1985, P. 12,13
OPEC; ANNUAL SATISTCAL BULLETIN; 1996, P.10,13
OPEC; ANNUAL SATISTCAL BULLETIN; 1999, P. 11,13

جدول رقم (٣) ب

النفط الخام : مليار برميل

الغاز الطبيعي :تر بليون م٣

يوضح احتياطي النفط الخام والغاز الطبيعي في العالم حسب المناطق

	أفريقيا		استراليا		الاتحاد السوفيتي "سابقا"		دول أوبك		العالم عدا الاتحاد السوفيتي		أجمالي العالم	
	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي	نفط خام	غاز طبيعي
١٩٦٥	٢٣,١	٢.٢	٠,٠٩	٠,١	٣٧,٢	٣,٢	٢١٠,٣	٩,٢	٣١٦,١	٢٢,١	٣٥٣,٢	٢٥,٣
١٩٧٠	٥٢,٩	٥,٣	٢.٢	٠,٤	٦٣,٠	١٢,٦	٤٠٢,٢	١٥,٩	٤٨٦,٧	٣٢,٤	٥٤٩,٧	٤٥,٠
١٩٧٥	٦٠,٩	٥,٨	١٠,١	١,٠	٧٩,١	١٩,٨	٤٤٨,٨	٢٢,٥	٥٤٥,٥	٣٩,٢	٦٢٤,٦	٦٠,٥
١٩٨٠	٥٢,٤	٥,٩	١,٩	١,٠	١٠٣,١	٣٠,٩	٤٣٥,٩	٣٢,٠	٥٦٠,٩	٥١,٣	٦٧٠,١	٨٨,٦
١٩٨٥	٥٦,٧	٦,١	١,٧	١,٦	٩٥,١	٤٠,٥	٥٣٥,٨	٣٦,٢	٦٤٩,١	٥١,٥	٧٦٧,٩	٠٢,٠
١٩٩٠	٥٩,٩	٨,٥	٢,٠	٢,٥	٥٨,٨	٥٤,٩	٧٦٦,٠	٥٠,٧	٩٣٩,٨	٧٨,٠	٩٩٨,٦	٣٢,٩
١٩٩٥	٦٧,٣	١٠,٠	٢.٢	٣,٥	٥٩,١	٥٨,٨	٧٨٥,٢	٦٠,١	٩٩٥,١	٨٨,٥	١,٠١٤,٢	٤٧,٣
٢٠٠٠	٧٧,٠	١١,٥	٣,٢	٣,٦	٦٧,٣	٥٧,١	٨١١,٥	٦٨,١	٣٧٥,٢	٨٩,٤	١,٠٢٤,٥	٥٦,٧

OPEC; ANNUAL SATISTCAL BULLETIN; 1985, P. 12,13

OPEC; ANNUAL SATISTCAL BULLETIN; 1996, P.10,13

OPEC; ANNUAL SATISTCAL BULLETIN; 1999, P. 11,13

جدول رقم (٤)
يوضح تطور إنتاج النفط الخام
في بعض والدول الصناعية الدول المستقلة المنتجة للنفط للسنوات ١٩٧٢/٢٠٠٠

الكميات : مليون / برميل يومياً

الدول	١٩٧٢	١٩٨١	١٩٨٥	١٩٩٣	١٩٩٥	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠
الولايات المتحدة الامريكية	٩,٢١٠	٨,٥٥٢	٨,٩١٢	٦,٨٤٦	٦,٥٥٨	٦,٣٤٢	٥,٩٠٥	٥,٢٧٥
كندا	١,٥٣٢	١,٢٢٣	١,٨٤٤	١,٣٠٤	١,٣٨٠	١,٣٧٢	١,٣٢٥	٢,٦٩٢
البرازيل	٠,١٧٠	٠,٢٢٠	٠,٥٤٠	٠,٦٤٣	٠,٦٩٠	١,٢٤٣	١,٢٠٥	١,٤٧٢
كولومبيا	٠,١٩٤	٠,١٣٣	٠,١٧٦	٠,٤٥٣	٠,٥٨٥	٠,٧٥٤	٠,٨١٨	٠,٧٢٥
المكسيك	٠,٤٤٠	٢,٣١٢	٢,٧٥١	٢,٦٧٣	٢,٦١٧	٣,٠٧٢	٢,٩١٥	٣,٥٣٤
الاتحاد السوفيتي	٧,٩٣٢	١٢,١٧٣	١٢,٠٩١	٧,٨٥٥	٦,٩٦٤	٧,٣٠٢	٧,٤٣٥	٧,٨٤٥
النرويج	٠,٣٣١	٠,٤٧٣	٠,٧٤٢	٢,٢٦٨	٢,٦٩٧	٢,٩٤٢	٢,٩٢٣	٣,٣٠٥
المملكة المتحدة	١,٧٢١	١,٨٠٠	٢,٨٠٠	١,٩٨٧	٢,٤٢٠	٢,٥٠٢	٢,٥٦٥	٢,٨٤٥
عمان	٠,٢٨١	٠,٣٢٨	٠,٤٩٨	٠,٧٧٩	٠,٨٤٨	٠,٨٩٦	٠,٩٠٣	٠,٩١٠
مصر	٠,٢٠٢	٠,٦٢٧	٠,٨٧٧	٠,٩٠٦	٠,٨٩٢	٠,٨١٦	٠,٧٧٤	٠,٨٦٢
ماليزيا		٠,٢٥٨	٠,٤٢٠	٠,٦٤٣	٠,٦٦٥	٠,٦٥٠	٠,٦١٩	٠,٦٧١
الصين	٠,٦١٠	٢,٠٢١	٢,٥٠٤	٢,٩١٠	٣,٩٩٦	٣,٢٠٠	٣,٢٣٠	٣,٢٥٠
مجموع الانتاج العالمي	٥٠,٨٢٠	٥٦,٠٣٢	٥٣,٤٦٤	٥٩,٣٦٠	٦٠,٤١٦	٧٣٠,٠٠٠	٧٠,٦٢٠	٧٦,٩٨٠
مجموع انتاج أوبك	٢٧,٠٩١	٢٢,٥٩١	١٥,٥٥١	٢٤,٢٣٠	٢٤,٦٠٠	٢٧,٨١٠	٢٦,٢٣٥	٢٧,٥١٠
مجموع الانتاج خارج أوبك	٢٣,٧٢٩	٢٣,٥٤١	٣٧,٩١٣	٣٥,١٣٠	٣٥,٨١٦	٤٥,١٩٠	٤٩,٣٨٥	٤٩,٤٧٠

OPEC; ANNUAL SATITISTICAL BULLETIN; 1976 P. 44/45
OPEC; ANNUAL SATITISTICAL BULLETIN; 1985 P. 56
OPEC; ANNUAL SATITISTICAL BULLETIN; 1996,1968,1999; P.54
OIL & GAS JOURNAL MAR. 19. 2001

<u>الهوامش والمصادر</u>

١- الرئيس صدام حسين	جريدة العرب في ٢ / ١ /١٩٩٩
٢-بوريس راتشكوف	النفط والسياسية الدولية .ترجمة د. خضير زكريا بيروت / ١٩٨١ ص ١٧
٣-محمود رشدي	مجلة البترول المصرية / الهيئة المصرية للبترول العدد ٤/ ٥آب/ ١٩٧٨ ص ٨
٤-عادل حسين	النفط من خلال الثورة والتجربة العراقية ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر .. بيروت/١٩٧٧ ص٣٨
٥-الرئيس صدام حسين	جريدة العرب المصدر السابق
٦-جاسم الكمر	مجلة النفط والتعاون العربي العدد ١٩٩٦/٧٧/الكويت ص٧٨
٧-الهيئة المصرية للبترول	مجلة البترول العدد/اكتوبر/١٩٩٩ ص٣٣
٨-الهيئة المصرية للبترول	مجلة البترول العدد الخامس /١٩٩٥ ص١١
٩-جريدة الثورة	العدد الصادر بيوم ٢١ / ١٩٩٩/٧
١٠-بيت الحكمة	الحلقة النقاشية / النفط والتآمر _ مداخلة للسيد وزير النفط _ بغداد _ ١٩٩٩ ص٥٥

١١-سيف الدين محمد الحديثي الصراع الدولي على العراق ،بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي السادس/ كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة بغداد ٢٢_٢٣/١٠/١٩٧٧ ص١١_١٣

١٢-حسين عبد الله مجلة النفط والتعاون العربي _العدد ٧٦ الكويت ١٩٩٦ ص٤٢

١٣-د.حامد ربيع التعاون العربي والسياسة البترولية

١٤-الهيئة المصرية للبترول مجلة البترول العدد مايو /٢٠٠١ ديسمبر/٢٠٠٠

الهيئة المصرية للبترول مجلة البترول العدد أيلول /٢٠٠٠ أكتوبر /١٩٩٨

١٥-حسين عبد الله المصدر السابق ص٤٣

١٦-الهيئة المصرية للبترول مجلة البترول/ العدد/ نوفمبر/٢٠٠٠ ص٣٢

١٧-د. حسين عبد الله المصدر السابق ص٤٢

١٨-R-Lakman , opec beyond the year 2000 , Madrid 18/2/2000

١٩-د. محمود عبد الفضيل النفط والوحدة العربية – بيروت ١٩٨١ ص١٨٨

٢٠-د. حامد ربيع البترول وستراتيجية الارض المحتلة / القاهرة / ١٩٧١ ص ٨٢

٢١-الرئيس صدام حسين جريدة العرب/ المصدر السابق

د. محمد حلمي مراد — التعاون العربي في مجـال البـترول/ بحـث / القاهرة / ١٩٧٦ ص٧

٢٢-حسين عبد الله — مجلـة النفـط والتعـاون العربـي / العـدد ١٩٩٦/٧٦ / المصدر السابق ص٥٧

٢٣-د. محمود عبد الفضيل — المصدر السابق ص٢٩٠

٢٤-الهيئة المصرية للبترو — مجلة البترول مارس / ١٩٩٨ ص ٤٠-٤

٢٥- U.S. Energy Information Administra InternationalEnergy Out. Look – 1991

٢٦-الرئيس صدام حسين — جريدة العرب / المصدر السابق

٢٧-الرئيس صدام حسين — تصريح على ضوء اجتماع منظمة أوبـك فـي الكويت فـي ١٩٧٣/١٠/١٧ وطـهران فـي ١٩٩٣/١٢/٢٢

٢٨-الرئيس صدام حسين — جريدة العرب / المصدر السابق

٢٩-أنور العبد الله — النفط والتعاون السـوري العـدد /٢٠٠٠/٩٢ ص٥٩

٣٠-محمود عبد الفضيل — الاقتصاد العربي في مواجهة التحديات القـرن /٢١- معهد البحوث والدراسـات العربيـة – القاهرة/ ١٩٩٨ص٢٨٧ -٢٨٩

أنظر كذلك :

د. حميد الجميلي — * رؤية استراتيجية للاشكالية الراهنة والحاليـة والمسـتقبلية للنفـط العربي /مجلة الزحف الكبير/حزيران/ ١٩٩٩

* النفط العربـي والتوجيـهات الستراتيجية النفطيـة الأمريكيـة / مجلـة آفـاق عربيـة – العـدد ٣-٤ /آذار/١٩٩٦

٣١-أنور العبد الله — مجلة النفط والتعاون العربي العدد /٢٠٠٠/٩٢ ص٦٧ الكويت/

٣٢- OPEC; ANNUAL Satitistical Bulletin, 1976

٣٣- OPEC; ANNUAL Satitistical Bulletin, 1985

٣٤- OPEC; ANNUAL Satitistical Bulletin, 199

٣٥- OPEC; ANNUAL Satitistical Bulletin, 1999

صناعة السيوف الدمشقية وأسرارها العلمية والتقنيـــة

الدكتورة فداء صفاء محمد علي
خبيرة في هيئة التصنيع العسكري

الملخص :

ما تزال السيوف الدمشقيـــة تحفاً نادرة تتنافس المتاحف العالميـــة على اقتنائهـــا وعرضها على روادها، ليس لجماليتها فحســب بــل لمـــا يكتنف صناعتها من أسرار، تلك الأســـرار التي حيرت علماء المعـــادن والمواد حتى يومنا هذا. ويعتقد بأن تصنيع السيوف الدمشقية (بالنوعيـــة المعهودة) توقف منذ نهاية القرن الثامـــن عشـــر الميلادي (الثاني عشـــر الهجري)، الا ان الفهم الكامل للسر العلمي التقني الكامن وراء النوعيـــة العالية للمنتج القديم ما زال خافيا" على الرغم من التطور الكبيـــر الـــذي حصل خلال القرن العشرين في علم المعادن وعلم المواد.

جرى في هـــذا البحث تحليل للمعارف التي يمكـــن ان ينطـــوي عليها هـــذا السر الصنـــاعي من وجهة نظر علم الميتالورجيا الحديـــث، بما يجعل موضوع صناعة السيوف الدمشقية أرضـــاً خصبـــة لمحـــاورة التفاعل بين العلم والتقنيـــة (معرفة الكيف ومعرفة لماذا).

ان اسلوب التحليل والتحري المعتمد في هـــذا البحـــث بمقارنـــة المنظور النظري الحديث للمعارف المشخصة ومطابقته مع المفاهيم التـــي كانت سائدة في العصر القديم يؤكد امتلاك العرب المعرفة والسبب ممـــا كان له اكبر الأثر في توطيد صناعة السيوف الدمشقية الفريدة.

* محاضرة القيت في المجمع العلمي ، يـوم ٢٢/١٠/٢٠٠١ على قاعة العلامة محمد بهجة الأثري .

المقدمـــة :

تنوعت الأسلحة في العهد القديم واشتملت على السيوف والرمـــاح والأقواس والسهام والدروع والمنجنيق ولكن بقي السيف الســـلاح الأهــم والأشرف عند العرب منذ عصر البرونز حتى بداية القرن الثامن عشـــر، وقد صنفـــت السيوف الدمشـــقية علـــى أنـــها الأفضـــل (١-٤) حتـــى أن الأسطورة تـــروي كيف يمكن للسيف الدمشقي أن يمرر قاطعـــا وشـــاحا حريريا وهو منســـاب في الهواء. **هذه الصفة الفريدة فـــي حـــدة نصـــل السيف الدمشقي متلازمة مع تصنيع الصلـــب الدمشـــقي (Damascus Steel) ذلك الصلب المعروف بكونه الأجود بيـــن الأنـــواع** (٥) والممـــيز بظهور النقشـــــة الدمشـــقية المموجـــة (Wavey Pattern: Damask or Damascene) التي تزين سطحه والتي تمثل اللغز الذي حير الباحثين أكثر من قرنين سعياً في الوصول إليه، ليس لما تضفيه النقشة الدمشـــقية مـــن جمالية المظهر على سطح نصل السيف الدمشقي فحسب بل لكونها ناتجـــة انعكاسا للبنية التركيبية الداخلية المجهريـــة (micro structure) الواجـــب تحقيقها لضمان مواصفة ميكانيكية تؤمن سيفاً متيناً، مرناً وحاداً لاينثـــم ولاينكسر.

توصيف النصل الدمشقي:

بالرغم من الاعتزاز بالسيوف الدمشقية الأثريـــة تحفاً نادرةً تشير البحوث الى ان الهاوي الأوربي Henri Moser تـــبرع بأربعـــة ســـيوف وخنجرين لأغراض البحث العلمي، إذ فحص البـــاحث Zschokke عـــام ١٩٢٤م نماذج منها واحتفظ بالأجزاء المتبقية فـــي متحـــف بـــيرن فـــي

سويسرا لينال الباحث Verhoeven في عام ١٩٩٣ حظاً منها [٢٠٦]، ومع استمرار البحث والتحري بين هذا التاريخ وذاك، اتفق الباحثون على توصيف نصل السيف الدمشقي بأنه:

١- مصنع من صلب يحوي نسبة لا تقل عن ١,٥ % كاربون ونسباً اقل من الشوائب S, P, Mn, Si.وكما موضح في الجدول (١).

٢- تزين سطحه النقشة الدمشقية المموجة المعروفة والناتجة عن بنيته التركيبية (المجهرية) شكل (٢،١).

٣- يتميز ببنية مجهرية فريدة تحتوي على حزم صغيرة من كاربيد الحديد (Fe_3C) (طور السمنتايت[١] الصلد) في أرضية من البيرلايت[٢] عموماً (أو الفرايت[٣] احياناً).

٤- قد تزين سطحه نقشات مختلفة مثل نقشة السلم Ladder Pattern المسماة سلم محمد وفيها تظهر التموجات على سطح السيف مصفوفة بما يشبه السلم على طول نصل السيف (انظر إلى الشكل ٣) التي يعتقد أنها ترمز إلى طريق ارتقاء المؤمنين إلى الجنة، كما قد يظهر بين ادراج السلم نقشة دائرية تسمى نقشة الوردة.

---

[١] السمنتايت : أحد الأطوار التي تظهر في البنية التركيبية لسبائك الحديد والكاربون وهو مركب كاربيد الحديد .

[٢] البيرلايت : خليط ميكانيكي من طوري الفيرايت والسمنتايت .

[٣] الفيرايت : محلول جامد من الكاربون الذائب في حديد طور الفا .

تصنيع النصل الدمشقي:

انصبت المحاولات في جمعيات الميتالورجيا خلال القرنين الماضيين على كيفية صناعة النصل الدمشقي ولماذا تظهر على سطحه النقشة الدمشقية وادعى الباحثون و المريدون مبكراً ومنذ عام ١٨٢٤م (مثل Robert Breant في فرنسا وبعده Pavel Anstoff في روسيا) تصنيع نسخ مطابقة للأصل[٢]، واستمر الباحثون خلال القرن العشرين (أمثال Jeffrey Wandsworth and Oleg D.Sherby في عام ١٩٨٥ وحديثاً الباحث J.D.Verhoeven بالتعاون مع الحداد A.H.Pendray) في سلسلة من البحوث والمحاولات (١٩٩٢-٢٠٠١) [٦-٨] معلنين عن التوصل إلى طريقة لتصنيع شفرات تماثل في مظهرها الخارجي وبنيتها الداخلية صلب النصل الدمشقي، ويمكن وصف الطريقة بمخطط سير العمليات المبين في الشكل (٤) وتفاصيله مدونة في الملحق (١)، وباختصار فإن الطريقة المثلى المقترحة تشتمل على:

١- عمليات الصهر والتسبيك لإنتاج مصبوبات صغيرة من الصلب cakes مطابقة في تركيبها الكيمياوي للصلب الدمشقي بما يؤمن تحقيق البنية الداخلية المطلوبة (١,٥% كاربون، ٠,٠٠٣ % فناديوم).

٢- تشكيل المصبوبة إلى شفرة وذلك بالطرق على مراحل تتضمن التسخين إلى درجة حرارة تكون بنيتها الداخلية مكونة من خليط من طوري السمنتايت Fe_3C والاوستينايت (γ[١]) فتنخفض درجة حرارة المصبوبة في أثناء الطرق بحدود ٢٠٠ درجة م (من ٥٠ درجة م أقل

---

[١] الاوستينايت : أحد أطوار الحديد وهو محلول جامد من الكاربون في حديد كاما .

من Acm[٢] إلى ٢٥٠ درجة م اقل من Acm) ومع هذا الانخفاض تـــزداد نسبة طور السمنتيات وهكذا يعاد تسخين المصبوبة إلى دورة طرق لاحقة (٥٠ دورة تسخين كافية لتجمع السمنتايت علـــى شـــكل حـــزم carbide banding phenomenon).

٣- عمليات التشغيل والقطع وصولاً إلى الشكل والأبعاد النهائية للشـــفرة مع درجة الإنهاء السطحي المطلوب وطبع سلم محمد ونقشة الـــوردة بحسب الرغبة.

٤- معالجة كيمياوية لإظهار النقشة الدمشقية وذلك بمسح سطح الشـــفرة بمحلول الإظهار (كلوريد الحديديك مثلاً).

وعلى الرغم من أن الطريقة المقترحة تنطوي على كثـــير مـــن العوامل المهمة التي استطاع Verhoeven تحديدها عبر سلسلة أبحاثـــه إلا انه يجمل في آخر ماتوصل إليه أنّ نسبة الشوائب في العناصر المكونـــة للكاربيدات (Cr, Mo, V, Mn) ولاسيما عنصر الفناديوم بنسب لا تتجاوز ٠,٠٠٣% تمثل العامل الأهم والحاسم في إظهار النقشة الدمشقية وذلـــك بسبب ظاهرة الانعزال الدقيـــق لـــهذه العنـــاصر عـــبر جبهـــة التجمـــد للمنصهر(٢،٦) مما يجعلها تصطف كحبات اللؤلؤ في العقد لتكون مراكـــز لنمو جزيئات السمنتايت خـــلال عمليـــات التســـخين والتـــبريد اللاحقـــة (شكل٥)، وعلى هـــذا الأساس يعتقد الباحث بان الفولاذ الوارد من جنوبي

---

[٢] Acm خط التحول الطـــوري على منحى التوازن الحراري للحديد ــ كاربون يمثل درجة حرارة تحول طور السمنتايت إلى الاوستينايت.

الهند (قرب حيدر آباد) وعلى شكل كتل بوزن ٢,٥ كغم والمعروف في المصادر الإنكليزية في القرن التاسع عشر wootz steel هو السر الأهم في صناعة السيوف الدمشقية، ومع ان اعتقاد Verhoeven هذا مبني على سلسلة من الافتراضات يمكن تفنيدها لاحقاً فهو يذهب بالقول لو ان أحوال التجارة تغيرت في ذلك الوقت لتصل إلى دمشق كتل من فولاذ خالية من هذه الشوائب ما استطاع الحدادون من تصنيع السيوف بالنقشة الدمشقية المميزة وربما من دون أن يعرفوا لماذا [٢].

المعارف التي تنطوي عليها صناعة السيوف الدمشقية :

إن التمحيص في تفاصيل الطريقة المقترحة لصناعة النصل الدمشقي التي توصل إليها الباحث Verhoeven بالتعاون مع الحداد pendray يقود المختص إلى فرز عدد من المعارف النظرية التي تضمنتها الطريقة المبينة على أساس المفاهيم الحديثة في الميتالورجيا ومنها:

- التركيب الكيمياوي وتأثير نسب العناصر (التركيب الكيمياوي الأمثل لصناعة النصل الدمشقي هو ١,٥% كاربون مع نسب منخفضة من Si,P,S,Mn وعنصر الفناديوم ٠,٠٣%).شكل(٦)
- منحنى التوازن الحراري وما يبنى عليه من طرق التعامل الحراري (تغير البنية المجهرية بتغير درجات الحرارة ويتبعها التغير في قابلية التطريق).شكل (٧)
- تحديد المسالك التكنولوجية (تعاقب التسخين والطرق وإعادة التسخين والتبريد).شكل (٧)

- التصليد الانفعالي بالتثقيب وشق الحزوز ثم إجراء عمليات التطريق شبه النهائية.
- عمليات التنعيم والصقل ومحاليل الإظهار.
- التجمد والتبلور و الانعزال الشجيري.شكل (٨)

إن مراجعة تاريخ نشأة هذه المعارف مقارنة مع تاريخ صناعة السيوف الدمشقية أمر مشوق, فالنشأة الحديثة لعلم فيزياء المعادن التي ضمَّنها العالم R.W.CAHN في كتابه الموسوم بـ((فيزياء المعادن))(٥) الذي يعد مرجعاً مهماً بهذا الخصوص تظهر حداثة هذه المعارف النظرية قياساً إلى أساليب التصنيع المعروفة منذ القدم وعلى سبيل المثال :

١- عام ١٧٤٨م فهم لعملية تجمد المعادن على إنها عملية تنويه ونمو (Nucleation & Growth).

٢- عام ١٧٥٥م ملاحظة الحبيبات الطولية Columnar grains وحصول الانعزال الشجيري Micro segregation خلال عمليات التبريد لمنصهر حديد الزهر.

٣- عام ١٧٧٦م إثبات ان عملية تحول المادة من الحالة السائلة إلى الحالة الصلبة هي عملية تبلور.

٤- عام ١٨٢٢م تأثير الحجم الحبيبي للمعادن وبعض التنبؤات عن بعض التغيرات الفيزيائية التي تطرأ خلال عمليات التعامل الحراري ومنها تأثير الحجم الحبيبي لطور الاوستينايت في عملية التصلب.

٥- عام ١٦٠٠م ظاهرة التآصل والتحول الطوري الحديد من فرايت إلى اوستينايت مع تغير درجة الحرارة.

٦- عام ١٧٨١م تأثير عنصر الكاربون على خواص للحديد وتمييز موصفات الفولاذ والحديد المطاوع وحديد الزهر نتيجة لهذا التأثير.

٧- عام ١٧٩٨م إثباتات قاطعة على تأثير عنصر الكاربون وبعض العناصر الأخرى.

إن تاريخ بلورة المعارف النظرية الواردة آنفا يؤشر وجود فارق زمني كبير بالمقارنة مع تاريخ صناعة السيوف الدمشقية، فالمعارف النظرية بمفهومنا الحديث التي انطوت عليها أسرار صناعة هذه السيوف تبلورت خلال القرن الثامن عشر وهو القرن الذي اندثرت في نهاياته صناعة السيوف الدمشقية، فإذا علمنا ان السيوف الدمشقية كانت أهم الأسلحة التي واجهها (اصطدم بها) الغربيون خلال حملاتهم الصليبية وان ذروة الحروب الصليبية كانت في نهايات القرن الحادي عشر يصبح الفارق الزمني بين المعرفة النظرية ومعرفة الكيف كبيرا بما يصعب تفسير صناعة السيوف الدمشقية على أساسه نظرا لتعدد المعارف التي تنطوي عليها هذه الصناعة وتداخل السبب والكيف فيها .... **فهل امتلك العرب المعرفة النظرية بالفارق الزمني نفسه؟**

السيف عند العرب :

السيف هو اشرف أنواع الأسلحة وكان يجلب قديماً من أطراف الجزيرة ومشارفها ولذلك سمي المشرفي أي من صناعة المشارف عامة، ثم تخصصت مواطن صناعته فنسبت إلى كل منها [السيوف العربية، والسيوف الإغريقية (كالخنجر قصير منبعج)، والسيف

الروماني ثم الأوربي (مستقيم طرفه مسنن أو مستديم أو مثلث)، ثم استحدثت التقوسات بعد فتوحات التركستان والهند (٤).

وقسم العرب السيوف على وفق :

- الشكل (نسبة الطول والعرض والوزن).
- مكان الصنع (الهندي والبصري[1] والسريجية[2]).
- نوع خام الحديد.

إن التصنيف على وفق الحديد هو محور الاهتمام في هذا البحث إذ قسم العرب السيف على هذا الأساس إلى:

١- معدني: وهذا بدوره ينقسم إلى:

أ- حديد مذكر يتميز باليبوسة وسرعة الانكسار وعدم الاهتزاز ⟵ يعبر عنه حديثاً هش(Brittle).

ب- حديد مؤنث رخو ⟵ يعبر عنه حديثاً طري ومطيلي (Soft & Ductile).

إشارة إلى معرفة العلاقة بين طبيعة المادة وخواصها الميكانيكية شكل (٩)

٢- لا معدني[3]: مصنع من الفولاذ المصفى يضاف إلى حديده مواد أخرى لتشد رخاوته (معرفة تأثير عناصر السبك) وهذا بدوره يقسم إلى:

أ- العتيق
ب- المحدث
ج- الوسيط

---

[1] البصري أو البصروي: نسبة الى مدينة بصرى في الشام (١).

[2] السريجية: نسبة إلى الحداد سيريج.

[3] لامعدني: تعبير مجازي لوصف رخاوة الفولاذ.

ولكل منها صفات تتأثر بمواطن ضربه وطبعه (معرفة تأثير تقنيات الإنتاج) [١].

مميزات السيف الإسلامي:

امتازت النصال الإسلامية على غيرها بظاهرة فنية تعرف باسم جوهر السيف أو فرنده[١] (معرفة البنية التركيبية وتأثيرها في الخواص الميكانيكية الناتجة، ومعرفة المعالجات الكيمياوية ومحاليل الإظهار). وللجوهر عند المسلمين أسماء عديدة يسمونه: الأثر والفرند والسفسقة [٢،١] والفرند في اصطلاح صناعة السيوف هو تموجات ترى على صفحات النصال، على شبه عقد متناسقة متقاربة متلاصقة، أو بقع يستدير بها (خانات) متعددة تخيل إلى عين الرائي إنها مؤلفة من ألوف أسلاك الفولاذ الدقيقة ممتزجة بمعدن آخر يختلف عنها لوناً، وربما ظهرت تلك التموجات متراكبة بعضها فوق بعض، ومنظمة مع كثرتها على هيئة أشكال هندسية جميلة ذات ترتيب أنيق وأحكام بديع. وقد عرف الفرند أيضاً بأنه ما يرى في السيف شبه الغبار أو مدب النمل.

وللجوهر أنواع مشهورة منها:- الهندي والارناؤودي والإيراني والدمشقي أو الشامي.

ويعرف الجوهر الدمشقي أو الشامي بالجوهر الحنون وله أشكال عديدة تظهر على النصال وتشاهد له تموجات وبقع ومن أهم أنواعه (الف اسلمبول) يظهر فيه شبه نقط متطاولة وخطوط دقيقة متقاربة.

---

[١] فرنده: فرند فارسي معرب

أهم خصائص الجوهر الدمشقي :

١- يمتاز بأشكال بقعه الهندسية المحكمة كتموجات رائعة.

٢- يمتاز بإشراق لونه المائل إلى البياض مع عدم قبوله للصدأ كسائر أنواع الجوهر.

٣- يمتاز بلينه ولدانته .

٤- يمتاز بتركيبه الداخلي فالذي يدقق النظر في مقطعه عند كسره يجده ذا حبوب ناعمة متقاربة المسافة رمادية اللون مع ميلها إلى البياض.

٥- بثبات جوهره ، فالجوهر الدمشقي إذا طرق نصله وأعيد تحضيره ظهر فيه الجوهر حسنا على عكس الجوهر الإيراني فانه كثيراً ما يمحى.

المعارف في إظهار الجوهر :

أن دلائل امتلاك العرب للمعارف في كيفية إظهار الجوهر يمكن استنتاجها من رسالة الكندي (٩) عن السيوف الإسلامية (القرن التاسع) والبيروني (القرن العاشر) وكذلك رسالة الطرسوسي (القرن الحادي عشر) وذلك ابتداءً من اختيار الخام وعمليات الصهر والتسبيك مروراً بعمليات الطرق والتسخين وانتهاءً بعمليات الصقل والإظهار، ونذكر منها:

١- فأما ما يتركب منه السيف فالفولاذ وهو أذكى ما يصنع منه وأقواه واشرف ما يعمل في أصنافه وأعلاه، وله تراكيب عدة وأفعاله تختلف باختلاف تراكيبه وخواصه تتفاضل بتفاضل ما يمزج فيه من أخلاطه في حين تدابيره.

٢- صفة عمل الفولاذ الصحيح: يضاف إليه في حين سبكه من العقاقير ما يخفف رطوبته ويكسبه يبسا يسيرا تعتدل به طبيعته وتنقى المادة الترابية المفسرة التي خالطته في المعدن لترويقه وتصفيته من أذياته تصفية يشرق بها نوره ويظهر فعله المستبطن.

٣- تعددت الأخلاط المضافة حين السبك واحتوت على مواد حمضية (أملاح أحجار) وعضوية (نباتية فحم) تتخلص في أثناء الصهر والتسبيك من الكاربون الذي يحتويها فيمتصه المعدن وتختلط به كما احتوت أيضاً على المنغنيز الذي يعمل على فصل المواد الخبيثة كالرمل والفسفور من الحديد علاوة على أحماض أخرى.

٤- الشطب في السيوف الإسلامية: علق البيروني " الشطب من السيوف هو الذي تحتوي نصالها على طرائق كالجدول وربما كانت مرتفعة أو منحدرة ولا يكون هذا الانحدار إلا إذا كان الجدول واحدا، أما إذا كانت اكثر من واحد، فالمرتفع هو بين كل جدولين بالضرورة " والغرض من عمل هذه الشطب أو القنوات في نصل

السيف هو تخفيف ليونته الشديدة Over flexibility وتقليل وزنه مع زيادة قوته strength ، وكلما ضاقت القناة أو الشطبة كان النصل متينا.

٥- أما بخصوص البريق أو لمعة النصل أما يكون أحمرا أو ذهبيا أو معتما وكلما صفا البريق واقترب إلى اللون المذهب (Golden tint) كان فولاذ السيف كاملاً في صناعته.

٦- ثلاث طرائق لصناعة الجوهر:

أ- الطريقة الهندية التي يحصل بها الصلب البوتقي من الخام النقي وأجود أنواع فحم الخشب.

ب- الطريقة الفارسية ويحصل عليها من الحديد الناعم النقي والكرافيت.

ج- العناية في التسوية الحرارية وتطويل مدة الطرق .

الاستنتاج :

يستنتج مما تقدم أن الطريقة العربية هي الأنجح في صناعة الفرند لكونها تعنى بالتسوية الحرارية وتطويل مدة التطريق بما يتناسب والتحكم بالمكونات الناتجة للسبيكة من خلال الصهر والتسبيك، فقد أوجز البيروني أهمية الجمع بين طريقة الصهر والتسبيك وطريقة المعاملة الحرارية والطرق في إظهار الفرند (الجوهر الدمشقي) بقوله " **أن الفرند لا يحصل بالقصد ولا يأتي بالإرادة وإنما هو بالاتفاق**[1] ".

أن قول البيروني هذا متفق مع تفاصيل الطريقة المقترحة التي توصل إليها الباحث verhovern عام ٢٠٠١ ومتفوق عليها في الوصف مشيرا" إلى ضرورة ملائمة أسلوب الطرق لنوع الفولاذ المقصود بالصهر والتسبيك.

تعدد الباحثون والمريدون، المدّعون إزالة الستار عن أسرار صناعة السيف الدمشقي ولا نجد حاجة لمناقشة مدى كفاءة الطرائق المقترحة في تصنيع نسخ جديدة مطابقة للأصل القديم إذ تعلل الجميع بعدم مهارة حدادي العصر لتطبيق الطريقة المقترحة في إنتاج نسخ طبق الأصل من ذلك الأثر الأسطوري.

---

[1] الاتفاق : ملائمة اسلوب الطرق لنوع الفولاذ المقصود بالصهر والتسبيك .

المراجع:

١- " السيف في العالم الإسلامي " عبد الرحمن زكي، دار الكتاب العربي بمصر.

2- J. D. Verhoven , "The Mystery of Damascus Blades", Sci . Amer. Jan. 2001 . pp 74- 79.

٣- " المدرسة العسكرية و الاسلامية " محمد فرج ، دار الفكر العربي.

٤- " القاموس الإسلامي" احمد عطية الله ١٩٦٣م ، دار النهضة في مصر.

5- Robert F. Mehl "The Historical Development of Physical Metallurgy" R.W. Cahn, Physical Metallurgy, (1974), PP 1- 31.

6- J. D. Verhoven, A.H. Pendray and W.E. Dauksch, "The Role of Impurities in Ancient Damascus steel Blades " JOM, 50 (9) , (1998) , PP 58- 64.

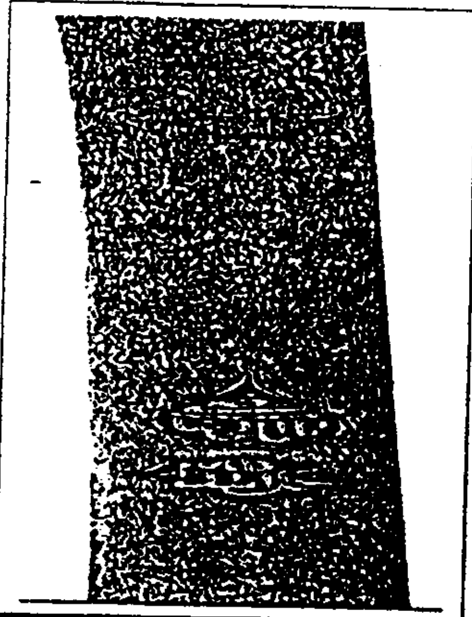
7- J. D. Verhoven, A.H. Pendray "The Mystery of Damascus Sword" Muse, 2 (2) (April 1998), PP 35- 43 .

8- J. D. Verhoven, A.H. Pendray, "Experiments to Reproduce the pattern of Damascus steel Blades ," Mat. Char . 29 (1992), PP 195-212.

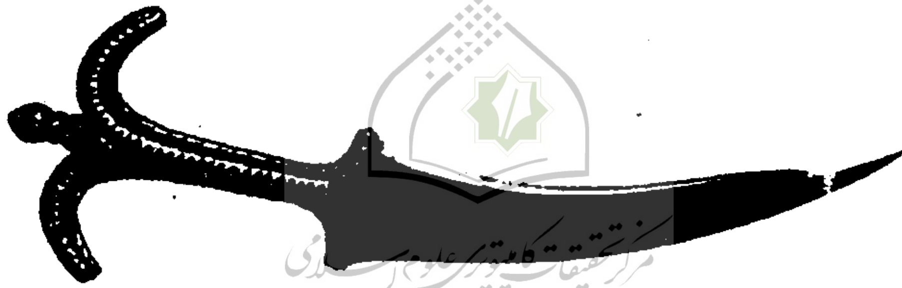
٩- " رسالة الكندي فيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تنثلم ولا تكل " أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي .

10- Sidney H Avner "Introduction to Physical Metallurgy", Ed. 1997, Tata Mc Graw Hill , reprint 2001.

11- O.P. Khanna "A Text Book of Material Science and Metallurgy" , , Ed. 1999, Dhanpat Rai Publacation, reprint 2001.



شكل ( ) نصل سيف من الصلب الدمشقي من القرن
السابع شر الميلادي تظهر فيه النقشة الدمشقية كدوامات
من الـ الغامقة والفاتحة اللون مصنعة من صانع السيوف
المشهور سد الله في ١٦٩ او ١٦٩٢ م [٢] .



ل (٢) خنجر نصله من الصلب الدمشقي من Muglal
India مصنع في ١٥٨٥م [٢]



شكل (٣) نصل سكين مصنع حديثاً" من قبل العالم Verhovn وتظهر فيه اغلموجات الدمشقية
وسلم محمد ونقشة الورد [٩]

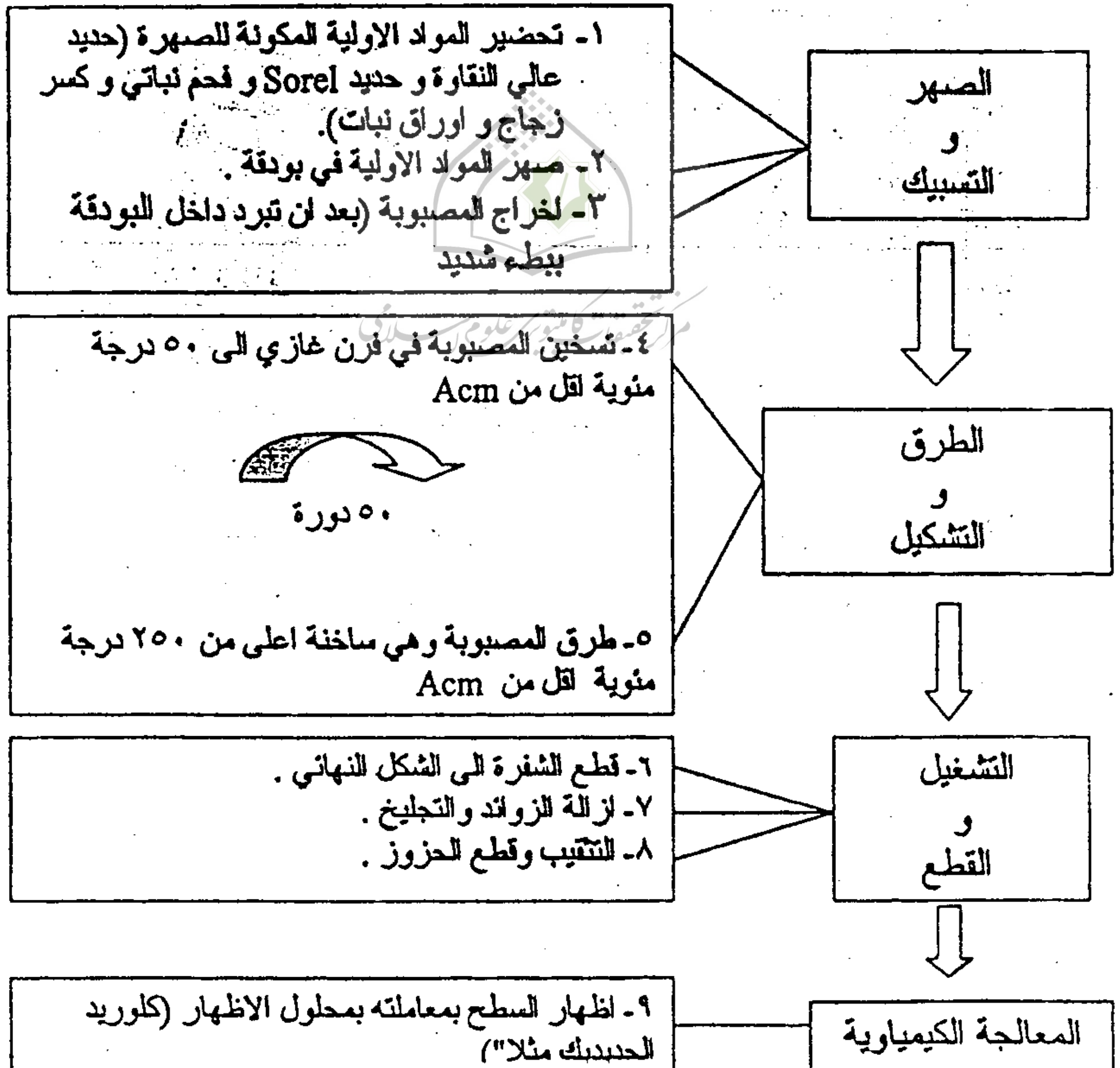
Table I. A Comparison of the Current Chemical Analyses with Zschokke's Analyses*

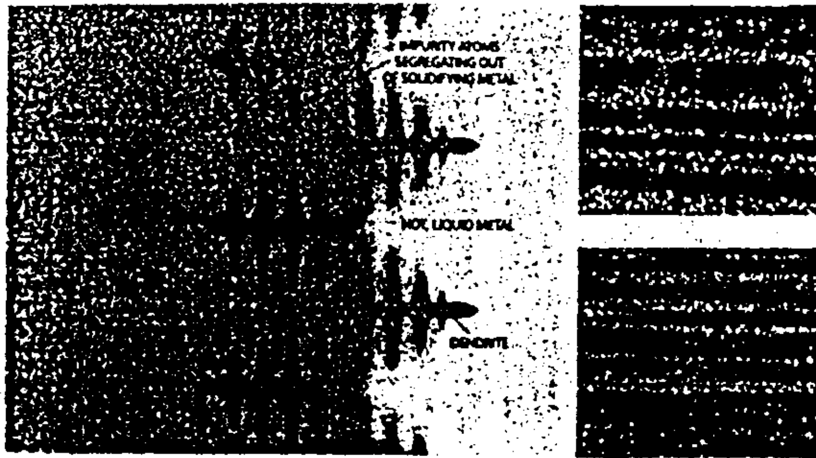
	Sword 7		Sword 8		Sword 9		Sword 10	
Material	Current	Zschokke	Current	Zschokke	Current	Zschokke	Current	Zschokke
C	1.71	1.87	0.65	0.60	1.41	1.34	1.79	1.73
Mn	150	50	1,600	1,590	<100	190	300	280
P	1,010	1,270	1,975	2,520	980	1,080	1,330	1,720
S	95	130	215	320	60	80	160	200
Si	350	490	1,150	1,190	500	620	500	620

* Analyses are given in parts per million by weight, except for C, which is in weight%.

جدول (١) التركيب الكيمياوي لنماذج من السيوف الدمشقية[٩]

شكل (٤) مخطط تسلسل العمليات لتصنيع النصل الدمشقي





شكل (٥) يوضح اثر الشوائب في عملية الانعزال الشجيري في اثناء تجمع المنصهر المعدني مصطفا" مثل حبات عقد اللؤلؤ التي تمثل مراكز نمو طور السمينتايت FerC خلال عمليات الطرق اللاحقة ويظهر على شكل خطوط متقطعة فاتحة اللون . [٢]

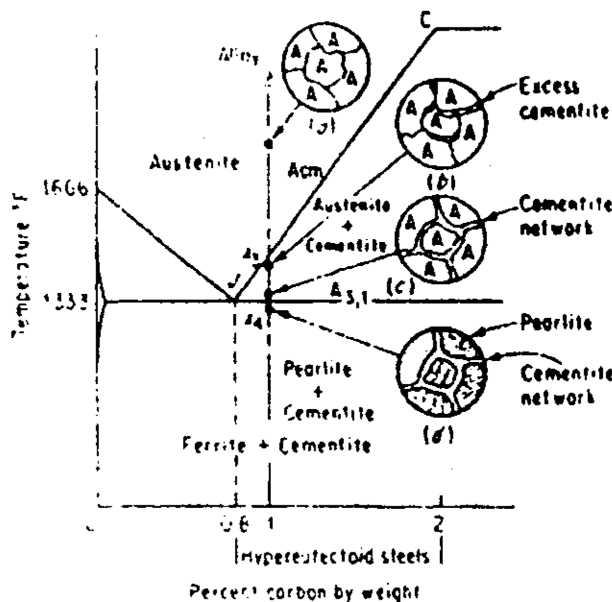




شكل (٦) صور البنية الجهرية

a – صلب ١% كاربون مبرد ببطء

b – صلب ١,٢ % كاربون مبرد ببطء يظهر فيها مساحات من البرلايت محاطة بشبكة من طور السمنتايت FerC ويلاحظ زيادة سمك الشبكة مع زيادة نسبة الكاربون [١٠] ص

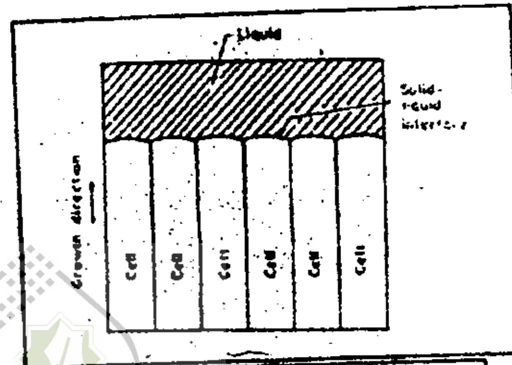


شكل (٧) مخطط توضيحي لتغير البنية الجهرية في اثناء التبريد البطيء لصلب ١ % كاربون وفيه (a) طور الاوستنايت ، (b) تكون السمنتايت حول الحدود البلورية ، (c) نمو السمنتايت وتكوين الشبكة ، (d) تحول الاوستنايت المتبقي الى بيرلايت عند ١٣٣٣ ف [١٠] ص٢٤١

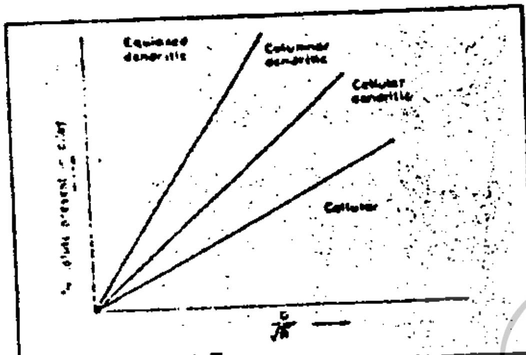


شكل رقم (٨)

أ) مخطط توضيحي لعملية التبلور بالنوية والنمو الشجيري (١٠) ص ٩٥

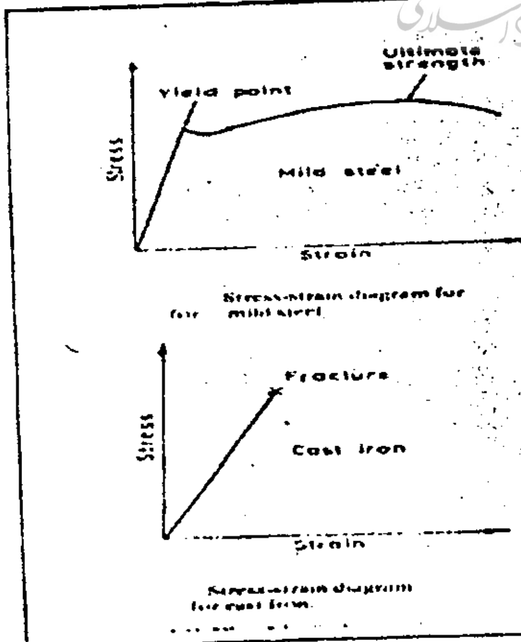


ب) النمو البلوري (١١) ص ٢٣–٤١



ج) تأثير نسبة التنير في درجة الحرارة G ومعدل النمو R على البنية النهائية للسبائك (١١) ص٢٤–٤١

شكل رقم (٩)



أ) منحنى الاجهاد – الانفعال للصلب الطري Mild Steel (١١) ص ١٩–٥٤

ب) منحنى الاجهاد – الانفعال لحديد الزهر Cast Iron (١١) ص ١٩–٥٤

ملحق (١)

الطريقة المقترحة لصناعة النصل الدمشقي من العالم Verhoven[٢]

١. تحضير المواد الأولية المكونة للصهرة (حديد عالي النقاوة، حديد Sorel[١]، فحم نباتي char coal، كسر الزجاج، أوراق نبات) إذ يتم التحكم بنسبة الكاربون والشوائب الناتجة في المصبوبة النهائية من خلال احتساب نسب خلط المكونات.

٢. شحن المواد اليدوية في بودقة الصهر فينصهر الزجاج عند التسخين مكوناً خبثاً يقلل من عملية التأكسد للمكونات في حين تحترق أوراق النبات محررة هايدروجين لتعجل عملية الكربنة للحديد فترتفع نسبة الكاربون إلى ١,٥% (النسبة المثلى لتكوين كالربيد الحديد Fe_3C الذي يتجمع على شكل حزم لإظهار النقشة الدمشقية لاحقاً)، ويمكن رفع الزجاج وأوراق النبات ولكن المصبوبات المصنعة من دونهما معرضة للشروخ والتكسير في أثناء الطرق.

٣. بعد أن تبرد البودقة تستخرج المصبوبة (التي تشبه أو تمثل طبخة حديد wootz cake في العهد القديم).

---

[١] Sorel Metal : سبيكة عالية النقاوة من الحديد والكاربون (٣,٩ ــ ٤,٧% كاربون).

[٢] Pendray : الحداد الذي عمل مع العالم Verhoven.

. تسخن المصبوبة إلى درجة حرارة ثابتة في فرن غازي مع التحكم نسبة غاز البروبان و الهواء للتقليل من تكون قشور اوكسيد الحديد خلال عمليات الطرق، فلا يتجاوز سمك طبقة الأوكسيد ٠,٥ ملم ويتم إزالتها بعملية التجليخ النهائي fine Grinding.

٥. تطرق المصبوبة تدريجيا عندما تكون ساخنة ويعاد تسخينها كلما تبرد لتطرق على مراحل وتتعاقب عمليات الطرق والتسخين بحدود ٥٠ مرة درجة حرارة الطرق من ٥٠ °م /٢٥٠ °م اقل من Acm) لتشكيل الشفرة من المصبوبة الأم مما يتطلب مهارة عالية إذ استخدم Pendray [٢] مطرقة هوائية حديثة ويمكن استخدام مطرقة يدوية.

. قطع الشفرة إلى الشكل النهائي وتطرق يدويا لوضع اللمسات الأخيرة (بالطرق اليدوي).

. إزالة الفولاذ الزائد وتجليخ الطبقة الفاقدة للكاربون Dicarburized layer باستخدام حزام تجليخ كهربائي.

. قطع الحزوز grooves وتثقيب ثقوب على سطح الشفرة لطبع نقشة سلم محمد عند الرغبة، وطرق الشفرة مرة أخرى إلى سطح مستوٍ ليتم صقله لاحقاً إلى الشكل النهائي.

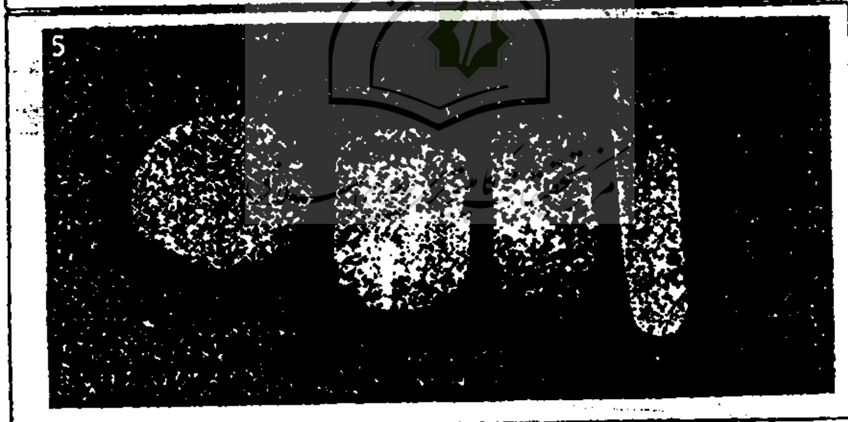
١. إظهار السطح بمعاملته بالحامض لتظهر البنية التركيبية (النقشة الدمشقية) فيبدو الفولاذ الطري باللون الغامق (الأرضية) في حين يبدو الطور الصلد على شكل خطوط افتح لونا.

---

[٢] Pendray : الحداد الذي عمل مع العالم Verhoven.











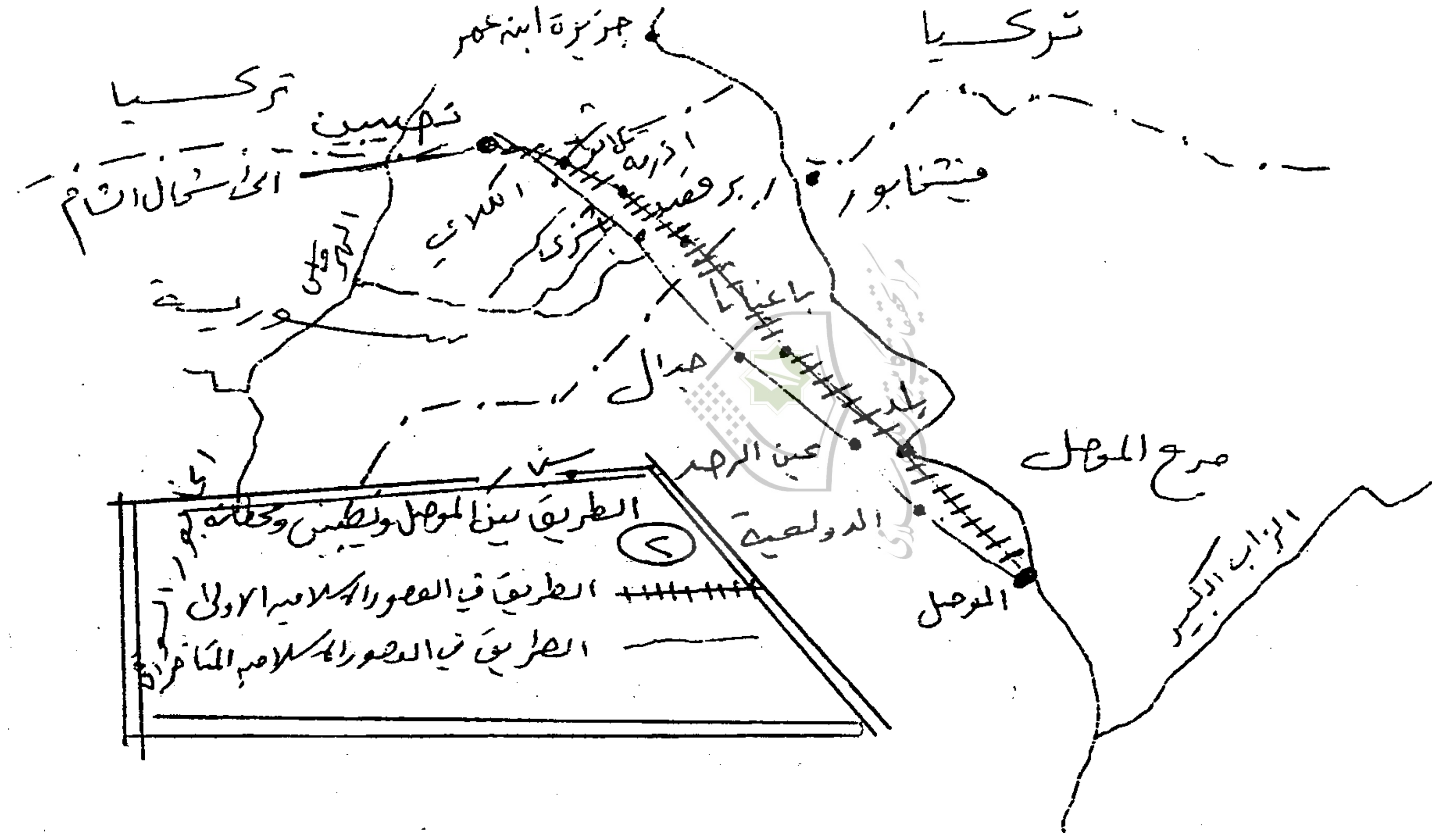




جزيرة ابن عمر
كورة باقردى
كورة بازبدى
الزوزان
داسن
كورة بين النهرين
نصيبين
فيشابور
باهدرا
معلثايا
مرج الموصل
(باجرمق)
اذرمة
عرابا
باشزى
برقعيد
الجلونة
كفر زمار
باعيناثا
الراهبة
باصلايا
جبرال
كراثا (تل موسى)
مرق
المباهدية
بلد عين الرهبة
كورة نينوى
كورة الفرج
الدولعيه
المحلبية
تل اعفر
الموصل

خارطة رقم (١)
المنطقة الواقعة بين الموصل ونصيبين
والمواقع التاريخية فيها

خارطة رقم (١)


تركيا
تركيا
جزيرة ابن عمر
نصيبين
فيشابور
اذرمة
برقعيد
عين الرهم
الدولعية
الموصل
مرج الموصل
الزاب الكبير
سورية
جبال
الطريق بين الموصل ونصيبين ومحطاته
٢
الطريق في العصور الاسلامية الاولى
الطريق في العصور الاسلامية المتأخرة

خارطة رقم (٢)

محطات القوافل التجارية بين الموصل ونصيبين في العصور الاسلامية

الدكتور مؤيد عيدان كاطع
استاذ مساعد / كلية التربية
الدكتور يوسف جرجيس
مدرس / مركز دراسات الموصل

الملخص :

كان طريق الموصل ـ نصيبين يمثل جزءا مهما من الطريق الرئيس الذي ارتبطت فيه مدينة الموصل بجنوب بلاد الاناضول وشمال الشام • وبسبب حيوية هذا الطريق فقد ازدهرت المحطات الواقعة عليه ولاسيما في حقب العصور الاسلامية الاولى وتمثلت تلك المحطات ببلد وباعيناثا وبرقعيد واذرمه ثم ما لبثت هذه المحطات ان تراجعت تدريجيا بعد القرن الرابع الهجري بسبب انحراف مسار هذا الطريق نحو الجنوب والغرب حيث بدلا من ان يمر بالمحطات السابقة اخذ يمر بمحطات عين الرصد ومرق وجدال وباشزي •

وقد توهم بعض الدارسين المحدثين عند اشارتهم الى هذا الطريق من دون الانتباه الى المتغيرات التي طرأت على مسالك هذا الطريق خلال العصور الاسلامية المتأخرة فوقعوا باخطاء عديدة تتعلق بمسار هذا الطريق ومحطات قوافله وهذا ما دفع الباحثان الى كتابة هذا البحث •

اما الاسباب الرئيسة التي ادت الى تغيير مسارات هذا الطريق ومحطات قوافله فقد ذكرها ياقوت الحموي في مادتي برقعيد وباشزي وهي تتعلق

بكثرة حوادث السرقة والاعتداء على قوافل التجارة ولهذا قال ياقوت الحموي « فلما كثرت منهم هذه الافاعيل تجنبتهم القوافل وجعلوا طريقهم على باشزي وانتقلت الاسواق الى باشزي » • ان هذا التغيير الذي طرأ على مسالك هذا الطريق لم يقتصر على قوافل التجارة حسب بل شمل ايضا قوافل الجيوش التي كانت تنتقل عبر هذا الطريق بين الشام والموصل •

المقدمة :

يتناول هذا البحث ، احد خطوط المواصلات ، التي كانت تربط الموصل بالعالم الخارجي ، ويتمثل ذلك : بطريق الموصل ــ نصيبين ، الذي كان جزءا مهما ، من الطريق الذي ربط الموصل ، بشمال الشام ، وجنوب بلاد الاناضول ، وارمينية • وسوف تتناول في هذا البحث ، المسالك الرئيسة ، لهذا الطريق والمحطات التي ازدهرت عليه ، فضلا عن المتغيرات التي طرأت على هذا الطريق ، خلال العصور الاسلامية المختلفة ، مع بيان الاوهام التي وقع فيها ، بعض الدارسين المحدثين ، وتصويب ذلك •

الطريق بين الموصل ونصيبين :

عد طريق الموصل ــ نصيبين من الطرق التجارية المهمة التي ربطت مدينة الموصل بجنوب بلاد الاناضول وشمال الشام عبر مدينة نصيبين حيث قامت على هذا الطريق محطات رئيسة لقوافل التجارة واصبحت تلك المحطات مدنا عامرة ازدهرت باسواقها ونزلها وكانت كثير منها محاطة باسوار وخنادق مثل مدن بلد وباعيناثا وبرقعيد واذرمة فضلا عن نصيبين •

كانت مسافة هذا الطريق تبلغ نحو (٣٤) فرسخا[١] اي نحو ٢٠٠

(١) قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعه الكتابة ، تحقيق د. محمد حسين الزبيدي ، بغداد ١٩٨١ ، ص ١١٢ .

كيلومتر وكانت هذه المسافة تقطعها القوافل في حدود ستة ايام[٢] . كما أن هذا الطريق كان مقسما الى ستة مراحل أو سبعة والمسافة بين مرحلة واخرى نحو ستة فراسخ (٣٥) كيلومتر تقريبا وكانت بلد في العصور الاسلامية الاولى المحطة الاولى على هذا الطريق وكانت تبعد عن الموصل نحو سبعة فراسخ[٣] اما المحطة الثانية وهي باعيناثا فكانت تبعد عن المحطة الثانية ستة فراسخ[٤] . ويذكر قدامة بن جعفر ان برقعيد وهي المحطة الثالثة كانت تبعد عن الموصل مسافة (٢٠) فرسخا[٥] او كما قال ياقوت الحموي « وبين برقعيد والموصل اربعة ايام »[٦].

اما المحطة الخامسة وهي اذرمة فكانت تبعد عن برقعيد خمسه فراسخ[٧] وذكر المقدسي انه « من اذرمة الى المؤنسة مرحلة ثم الى نصيبين مرحلة »[٨] وعليه فان المسافة المتبقية من المرحلتين الاخيرتين لم تكن تتجاوز عشرة فراسخ .

وقد ازدهرت محطات هذا الطريق في العصور الاسلامية الاولى ثم ما لبث ان تغير مسار هذا الطريق بعد ان مال قليلا نحو الجنوب واخذ يمر بمحطات جديدة هي الدولعية وعين الرصد والمويلحة ومرق وجدال وباشزي والكلاي ثم مدينة نصيبين[٩].

---

(٢) ينظر ابن جبير ، رحلة ، بيروت دار صادر ١٩٨٠ ، ص ٢١٣–٢١٤ ، وينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان مادة نصيبين ٥/ ٢٨٨ .

(٣) ينظر عنها : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤٨١/١ عبدالله امين اغا ، بلد (اسكي موصل) مطبعة الجمهور الموصل ١٩٧٤ ص ٣٢–٥٩ .

(٤) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك تحقيق دي غويه ليدن ١٨٨٩ ص٩٥ ؛ المقدسي ، احسن التقاسيم (الطبعة الثانية ليدن ١٩٠٩) ص ١٣٧ .

(٥) قدامة بن جعفر ، الخراج وصفة الكتابة ص ١١٢ .

(٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة برقعيد ٣٨٧/١ .

(٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة اذرمة ١٣١/١ .

(٨) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٣٩ .

(٩) عن هذه المحطات ينظر : رحلة ابن جبير ص ٢١٣–٢١٤ ، ومعجم البلدان مادة الدولعية وجدال وباشزى واذرمة وبرقعيد .

ولكون مدينة الموصل مركزا تجاريا نشيطا فقد كـان هذا الطريق يربطها مع بلاد الشام وبلاد الروم وارمينية لذا كانت البضائع القادمة من الشرق ومن الهند والصين والوافدة الى الموصل من الحرير والتوابل والعطور والاحجـار الكريمة[١٠] تمر عبر هذا الطريق كما وكانت تنقل عبر هذا الطريق بضـائع اخرى مثل الحبوب والمواشي والخيول وحجر الارحـاء ومعدن الرصـاص والقير وماء الورد وجوهر الزجاج والاكسـية المرعزية والثياب الموشـاة والمناديل والطيالس وثياب الصوف فضـلا عن الفواكـه المجففة والاجبـان والالبان والجلود والصناعات النحاسية والحديد والاسـطال والسـكاكين والنشاب والسلاسل[١١].

ولم يقتصر هذا الطريق على خدمة الاغراض التجارية بل كان يقـوم بخدمة المهمات العسـكرية وبعض الخلفاء العباسـيين مثل هارون الرشـيد والمعتصم والمعتضد وغيرهم قد سلكوا هذا الطريق .

ان ازدهار حركة النقل التجاري عبر هذا الطريق دفع بالقرى والبلـدان الواقعة على جادة الطريق الى النمو والازدهار لذا وصفت مدينة بلد بكثـرة الغلال والاموال والفواكه والكروم وقامت فيها الاسواق والنزل[١٢] . كما كانت بلدة باعيناثا مدينة نزهة طيبة كثيرة القصـور والاسواق[١٣] كما كانت برقعيد تضم مائتي حانوت حينما كان ممر القوافل من الموصل الى نصـيبين

---

(١٠) فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، دار الكتاب العربي القاهرة ، ١٤٢/١ .

(١١) عبدالماجود احمد السلمان ، الموصل في العهدين الراشدي والامـوي ، الموصل ١٩٨٥ ص ١١٧–١٢٠ .

(١٢) ابن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٩٨ .

(١٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة باعيناثا ٣٢٥/١ .

عليها[١٤] . كذلك كان في باشزي سوق وبازار حيث تنزلها القوافل وسوقها يقام في كل يوم خميس واثنين[١٥].

وتوهم بعض الباحثين عند اشارتهم الى هذا الطريق والمحطات الواقعة عليه من خلال تصورهم ان مسار هذا الطريق ومحطاته كان شيئا ثابتا في جميع الحقب التاريخية ، فأحد هؤلاء الباحثين حينما تطرق الى ذكر هذا الطريق في القرن السادس الهجري نجده قد اعتمد على مصادر القرن الثالث الهجري لهذا وقع باخطاء فيما يتعلق بذلك[١٦] كذلك الحال بالنسبة الى باحث آخر تناول موضوعا يتعلق بحقبة ما بعد الغزو المغولي في الموصل والجزيرة حيث لم يوفق عند معالجته لما يتعلق بهذا الطريق ومحطات قوافله[١٧] فضلا عن ذلك نجد اخطاء اخرى عند باحثين اخرين تتعلق ببعض المحطات الخاصة بتجارة القوافل مثل برقعيد وغيرها .

ان عدم الدقة في تناول هذا الموضوع[١٨] كان دافعا اساسيا في كتابة هذا البحث لشيوع الخطأ بين من تناولوا في بحوثهم ما يتعلق بطريق الموصل ـ نصيبين ومحطاته من خلال تصورهم بعدم حدوث اي تغيير على خط سير هذا الطريق خلال الحقب الاسلامية المختلفة . والصحيح انه خلال العصور الاسلامية الاولى كان هذا الطريق يمر بمحطات بلد وباعيناثا وبرقعيد ثم اذرمة قبل ان يصل هذا الطريق الى بلدة نصيبين[١٩] وفي الحقب الاسلامية

(١٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة برقعيد ٣٨٧/١ .
(١٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة باشزى ٣٢٢/١ .
(١٦) ينظر : سوادي عبد محمد ، الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، بغداد ١٩٨٩ ، ص ٢٠٣ـ٢٠٤ .
(١٧) ينظر : علاء محمود خليل ، المغول في الموصل والجزيرة ، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الموصل ١٩٨٥ ، ص ١٧٧ .
(١٨) ينظر عن برقعيد ، احمد الصوفي ، خطط الموصل (الموصل مطبعة الاتحاد ١٩٥٣) ١٩/٢ .
(١٩) ابن خرداذبة ، المسالك الممالك ، ص ٩٥ .

اللاحقة ولاسيما في حقب الزنكيين نجد ان المحطات السابقة غير مطروقة واخذت القوافل التجارية تطرق مسالك اخرى وتمر بمحطات مثل الدولعية وعين الرصد ومرق وجدال والكلاي وعبر هذا الطريق سافر ابن جبير عندما انهى زيارته للموصل حيث سلك هذا الطريق متوجها صوب مدينة حلب[٢٠] كما ان ياقوت الحموي قد اشار الى محطات هذا الطريق في مواضع متفرقة[٢١].

محطات القوافل التجارية الرئيسة :

توزعت على هذا الطريق الكثير من محطات القوافل التجارية وقد نشطت بعض تلك المحطات في حقب تاريخية معينة ثم انغمرت وظهرت بدلا منها محطات اخرى ومن تلك المحطات التي اشتهرت على هذا الطريق :

بلد والدولعية :

تقع بلد في شمال غرب الموصل كانت مدينة كثيرة الغلال والاموال والفواكه والكروم وكانت تضم النزل والاسواق ووردت بلد (اسكي موصل) في كتب البلدانيين كأول محطة رئيسة على طريق نصيبين خلال العصور الاسلامية الاولى[٢٢] ثم اشتهرت بدلا منها محطة الدولعية التي اشار اليها ياقوت الحموي بقوله « قرية كبيرة بينها وبين الموصل يوم واحد على مسير القوافل في طريق نصيبين » وقد اندثرت الدولعية بعد الغزو المغولي

---

(٢٠) ينظر ابن جبير ، رحلة ص ٢١٣-٢١٤ .

(٢١) ينظر معجم البلدان المواد (الدولعية ، واسط المجاهدية ، مرق ، جدال).

(٢٢) ياقوت الحموي،معجم البلدان،مادة بلد ٤٨١/١؛ دومينكو لانزا، الموصل في القرن الثامن عشر ترجمة القس روفائيل بيداويد الموصل ١٩٥٣ ، ص٢٣ ، عبدالله امين اغا بلد ، ص٣٢-٥٩ .

وتبعد اثارها عن الموصل مسافة ٣٥ كم عند قرية الطسة على طريق ربيعة وسنجار[٢٣] .

باعيناثا وجدال :

كانت باعيناثا المحطة الثانية بعد بلد حيث اشار اليها المقدسي بقوله « مدينة نزهة طيبة وهي خمسة وعشرون محلة تتخللها البساتين والمياه .. وهي كثيرة القصور ذات بنيان حسن من الجص والحجر مع الاسواق والجامع في وسط البلد »[٢٤] ويبدو ان باعيناثا هي قرية العوينات الواقعة على طريق الموصل ـ ربيعة . وفي حقب الزنكيين لم تعد باعيناثا محطة للقوافل اذ اخذت تحل محلها محطات اخرى مثل عين الرصد والمويلحة ثم جدال وقد اشار الى ذلك ابن جبير بقوله « وقلنا بقرية تعرف بعين الرصد وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد ينحدر فيه الماء وكان مقيلا مباركا وفي تلك القرية نُزُل كبير جديد »[٢٥] والى جانب هذه المحطة فقد كان هناك محطات فرعية مثل واسط والمجاهدية والمويلحة ثم محطة مرق[٢٦] وكانت قرية كبيرة تنزلها القوافل بينها وبين الموصل يومان وتسمى اليوم تل مرك وهي تبعد عن اسكي موصل نحو ٢٢ كم في ناحيتها الشمالية الغربية .

اما جدال فكانت تلي تلك المحطات قال عنها ياقوت « قرية كبيرة عامرة على تل عال وعندها نُزُل حسن عامر واهلها نصارى بينها وبين الموصل مرحلتان وهي على طريق القوافل رأيتها غير مرة »[٢٧].

(٢٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الدولعية ٢/٤٨٦ وينظر عنها ايضا ياسين العمري منية الادباء ، تحقيق سعيد الديوه‌جي الموصل ١٩٥٥ ص ١٤٥ ؛ احمد الصوفي ، خطط الموصل ٢/١١٩ .

(٢٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٣٧ ؛ وكذلك معجم البلدان مادة باعيناثا ١/٣٢٥ .

(٢٥) ابن جبير ، رحلة ، ص ٢١٣ .

(٢٦) ينظر ايضا ابن جبير ، رحلة ص٢١٣ ـ ٢١٤ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان مادة واسط ، المجاهدية ، مرق ، جدال .

(٢٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة جدال ٢/١١٢ .

برقعيد وباشزى :

كانت برقعيد قصبة كورة البقعاء وتعني تسميتها الارامية ابن المجلس وموضع الاستراحة وهذا يعني ان تسميتها لها علاقة بنشأتها محطة لاستراحة القوافل وصفها السرخسي في رحلته مع الخليفة ـ المعتضد الى الشام سنة ٢٧١هـ/٨٤٤م بقوله « بلدة كبيرة من اعمال الموصل من كورة البقعاء وبها آبار كثيرة عذبة وهي واسعة وعليها سور ولها ثلاثة ابواب باب بلد وباب الجزيرة وباب نصيبين وعلى باب الجزيرة بناء لايوب بن احمد وفيها مائتا حانوت »(٢٨) وهذا يعني انها كانت بلدة مزدهرة ومحطة رئيسة لقوافل التجارة في نهاية القرن الثالث الهجري • وقد تراجعت كثيرا في حقبة الزنكيين ولهذا عقب ياقوت الحموي على كلام السرخسي بقوله : « قلت انا كانت هذه صفتها في قرابة سنة ٣٠٠ بعد الهجرة وكان حينئذ ممر القوافل من الموصل الى نصيبين عليها فاما الان فهي خراب صغيرة حقيرة واهلها يضرب بهم المثل في اللصوصية ويقال لص برقعيدي وكانت القوافل اذا نزلت بهم لقيت الامرين »(٢٩) • كما اشار ابن حوقل النصيبي بتفاصيل اخرى عنها بقوله : « مدينة كثيرة الزرع من الحنطة والشعير يسكنها بنو حبيب قوم من تغلب وفيها مغوثة لبني السبيل وفي اهلها بعض شرٍ لانهم في سنخ بني حمدان »(٣٠) ولهذا قال ياقوت « فلما كثرت منهم هذه الافاعيل تجنبتهم القوافل وجعلوا طريقهم على باشزى وانتقلت الاسواق الى باشزى »(٣١) ثم اصبحت برقعيد « بليدة في طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين مقابل باشزى »(٣٢) • وبعد الغزو المغولي اندثرت برقعيد وخربت وقد حاول بعض الباحثين تحديد موضعها

(٢٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة برقعيد ٣٨٧/١ .
(٢٩) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة برقعيد ٣٨٧/١ .
(٣٠) ابن حوقل ، صورة الارض ص ١٩٩ .
(٣١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ص ٣٨٧/١
(٣٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان مادة برقعيد ٣٨٧ .

استنادا الى ما ذكرته المصادر التاريخية فعلى سبيل المثال ذكر صاحب خطط الموصل انه شيد على اطلالها قرية تعرف باسم ابو وجنة[٣٣] وهذا رأي بعيد عن الصواب لان برقعيد كانت تبعد عن الموصل مسافة تتراوح بين ١٧ــ٢٠ فرسخا اي نحو ١٣٠ كم وهذه المسافة تضعها داخل الاراضي السورية اما ابو وجنة فلا تبعد عن الموصل اكثر من ٥٠ كم وهي ليست الا قرية باوشنايا[٣٤] ، المشهورة في المصادر التاريخية .

ويرى هوفز ان برقعيد ماتزال تحتفظ باسمها وان كانت اطلالا وخرائب ولكن هذا القول كما يقول سترك يحتاج الى تمحيص بمعاينة الموقع نفسه ويذهب فون اوبنهايم الىان موقع برقعيدهو آكام الخرائب عند تل رميلان[٣٥] وهذا يعني انها تقع عند حقول النفط السورية عند قرية القحطانية القريبة من الحدود العراقية شمال ناحية ربيعة .

اما باشزى وتعني تسميتها الارامية بيت الشذوذ او الجنون وقد اصبحت محطة لقوافل التجارة بعد ان تجنبت القوافل محطة برقعيد وذكرها ياقوت الحموي بقوله « بليدة من كورة بقعاء الموصل قرب برقعيد فيها سوق وبازار بين جزيرة ابن عمرونصيبين تنزلهاالقوافل وسوقهايقامفي كل يوم خميس واثنين وهي في جنب تل وفيها نهر جار »[٣٦] . ويرى فون اوبنهايم ان موقع باشزى هو جلاغي[٣٧] اي الاربعين اغا .

اذرمة والمؤنسة :

وهما آخر ما تبقى من محطات هذا الطريق فالاولى وهي اذرمة ذكرها البلاذري بقوله : « اذرمة من ديار ربيعة قرية قديمة فاخذها الحسن بن عمرو

(٣٣) احمد الصوفي ، خطط الموصل ١١٩ .
(٣٤) ينظر عن باوشنايا ، ياقوت الحموي ، معجم مادة باوشنايا ٣٣٣/١ .
(٣٥) ينظر سترك مادة برقعيد في دائرة المعارف الاسلامية ترجمة الشنتاوي م ٣ ص ٥٥٤ .
(٣٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان مادة باشزى ٣٢٢/١ .
(٣٧) سترك ، مادة برقعيد ، م/٣/ص ٥٥٤ .

بن الخطاب التغلبي من صاحبها وبنى بها قصرا وحصنها »[٣٨] كما اورد عنها السرخسي تفاصيل اخرى بقوله : « ورحل يعني المعتضد من برقعيد الى اذرمة وبين المنزلين خمسة فراسخ وفي اذرمة نهر يشقها وينفذ الى آخرها والى صحرائها يأخذ من عين على رأس فرسخين منها وعليه في وسط المدينة قنطرة معقودة بالصخر والجص وعليه رحى ماء وعليها سوران واحد دون الاخر وفيها رحبات وسوق قدر مائتي حانوت ولها باب حديد ومن خارج السور خندق يحيط بالمدينة »[٣٩] ثم عقب ياقوت الحموي على كلام السرخسي بقوله : « واذرمة اليوم من اعمال الموصل من كورة تعرف بين النهرين بين كورة البقعاء ونصيبين ولم تزل هذه الكورة من اعمال نصيبين واذرمة اليوم ليس فيها مما وصف شيء ... »[٤٠] وجاء في احسن التقاسيم انه من اذرمة الى المؤنسة مرحلة ثم الى نصيبين مرحلة[٤١] كما اشار اليها ياقوت الحموي بقوله (قرية على مرحلة من نصيبين للقاصد الى الموصل بما نزل تبرع بعمله رجل من التجار يقال له سيابوقة الديبلي عمله في حدود سنة ٦١٥هـ)[٤٢] . وقد غزاها المغول في سنة ٦٢٨هـ وقتلوا كثيرا من اهلها .

طريق الموصل ـ نصيبين واثره على محطات القوافل التجارية :

كان لهذا الطريق اثره على ازدهار النشاط التجاري في الموصل وذلك لاهميته الكبيرة في نقل البضائع والسلع التجارية بينها وبين حلب وجنوب بلاد الاناضول . وقد ازدهر هذا الطريق في جميع حقب العصور الاسلامية الا ان نشاطه في العصور الأسلامية الاولى كان اوضح وأكثر منه في العصور التالية .

---

(٣٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد مطبعة البيان العربي ، ٢١٣/١ .
(٣٩) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة اذرمة ١٣١/١ .
(٤٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة اذرمة ١٣١/١ .
(٤١) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص١٣٩ .
(٤٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادا المؤنسة ٥ / ٢٢٨ .

وقد كان لمرور الطريق بمحطات القوافل التجارية اثره الفاعل على إدامة حيوية تلك المحطات ونشاطها وبعكسه فان تغيير مسارات الطريق كان يؤثر تأثيراً كبيرا على حياة تلك المحطات . وهذا ما نلاحظه واضحا عند عقد المقارنات فيما يتعلق بتلك المحطات في العصور الاسلامية المختلفة حيث نلاحظ ان التغيير الذي طرأ على خط سير الطريق كان سببا رئيسا لاندثار المحطات الواقعة عليه بعد تغيير خط سير القوافل التجارية وهذا ما نجده واضحا فيما يتعلق بمحطات بلد وباعيناثا وبرقعيد .

فعلى سبيل المثال حينما كان النشاط التجاري واضحا خلال حقب القرن الثالث والرابع الهجريين كان طريق الموصل ــ نصيبين يزدحم بالقوافل التجارية مما دفع بالمحطات الواقعة عليه الى النمو والازدهار فاصبحت مدينة بلد كثيرة الغلال والاموال والفواكه والثمار مشهورة باسواقها ونزلها [٤٣] ثم تراجعت بعد القرن الرابع الهجري بعد ان تحول طريق القوافل عنها فاصبحت (بديلة صغيرة على غربي دجلة)[٤٤] ثم (احدى قرى الموصل)[٤٥] ثم اندثرت بعد الغزو المغولي فشاع اسمها الحالي (اسكي موصل) خطأ بين الناس . أما باعيناثا فكانت في حقب ازدهارها مدينة تتكون من ٢٥ محلة كثيرة القصور والمياه والاسواق[٤٦] ثم ما لبثت ان اندرست بعد ان ابتعد عنها طريق القوافل كذلك كانت برقعيد بلدة كبيرة وواسعة وعليها سور ولها ثلاثة ابواب باب بلد وباب الجزيرة وباب نصيبين وعلى باب الجزيرة بناء لايوب بن احمد وفيها

(٤٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٩٨ .

(٤٤) ابو الفداء ، تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ٢٨٥ .

(٤٥) الزركشي ، عقود الجمان وتذييل وفيات الاعيان ، مصورة د. ناظم الرشيد عنه نسخة عارف حكمة في المدينة المنورة برقم ٤٦٥ ، ورقة ١٦٣ ب اعارها اياها مشكورا سنة ١٩٨٩ .

(٤٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة باعيناثا ١/٣٢٥ .

مائتا حانوت « .. وكان حينئذ ممر القوافل من الموصل الى نصيبين عليها » ثم اصبحت في ايام ياقوت الحموي « خرابا صغيرة حقيرة » هكذا نجد انه بمجرد انحراف الطريق عنها اخذت هذه المحطة تميل نحو الاندثار[٤٧].

ان انحراف الطريق نحو الجنوب ادى الى تراجع المحطات السابقة وانتعاش محطات اخرى بدلا عنها . ومن المحطات الجديدة التي انتعشت عين الرصد والمويلحة ومرق وجدال وباشزى والكلاي لذا وصف ابن جبير تلك المحطات بقوله : «وفي محلات الطريق كلها نزُل »[٤٨] . وقد وصف ياقوت الحموي جدال بقوله : « قرية عامرة وعندها نزُل حسن واهلها نصارى بينها وبين الموصل مرحلتان وهي على طريق القوافل رأيتها غير مرة »[٤٩] . كما ازدهرت باشزى بعد ان تراجعت برقعيد بسبب ابتعاد القوافل عن المرور بها وفي ذلك قال ياقوت « وكانت القوافل اذا نزلت بهم لقيت الامرين فلما كثرت منهم هذه الافاعيل تجنبتهم القوافل وجعلوا طريقهم على باشزى وانتقلت الاسواق الى باشزى »[٥٠] كما وصف ياقوت هذه المحطة بقوله : « بليدة ... فيها سوق وبازار ... تنزلها القوافل وسوقها يقام كل يوم خميس واثنين »[٥١].

---

(٤٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة برقعيد ١/٣٨٧ .
(٤٨) ابن جبير رحلة ، ص ٢١٣ .
(٤٩) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة جدال ٢/١١٢ .
(٥٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة برقعيد ١/٣٨٧ .
(٥١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة باشزى ١/٣٢٢ .

الاخطار الصحية للمبيدات في العراق : بين الماضي والحاضر

الدكتور مثنى عبدالرزاق العمر

جامعة بغداد / كلية التربية للبنات

الملخص :

يحتاج الانتاج الزراعي الى استخدام المبيدات لسد الحاجة الى المواد الغذائية ومكافحة الامراض • كانت المبيدات في بداية انتاجها مبيدات عالية السمية ، غير إنتقائية ، وثابتة بيئيا فخلقت مشاكل بيئية عديدة ، فتحول الانتاج الى مركبات إنتقائية ، وسريعة التحلل في البيئة ، فانخفضت حالات التسمم والتلوث بها ، مع ذلك لاتزال تسجل حالات من التسمم الحاد او المزمن (المهني) لدى العمال والفلاحين وبائعي المبيدات فضلا عن ربات المنازل والاطفال ، مما يؤشر على اهمية وضع ضوابط خاصة بتداول هذه المركبات السامة • كما يتعرض الانسان الى خطر المبيدات عن طريق تناول المواد الغذائية الملوثة ، مما يستوجب مراقبة الغذاء المحلي والمستورد للتحري عن بقايا المبيدات فيه ، والعمل على تعزيز القدرات المحلية في هذا المجال •

١ ـ مقدمة :

تعتمد الزراعة الحديثة بشكل عام على استخدام المبيدات بانواعها ، وهي مواد ذات اثر ايجابي في رفع الانتاج الزراعي الذي لابد منه ، ويكون لها تأثير سلبي محدود او اضرار يمكن السيطرة عليها او القبول بها عند موازنة هذه الاضرار مع الفوائد المتوخاة من الاستعمال ومنها سد الحاجة المتزايدة الى المواد الغذائية او مكافحة الامراض ، لكن هذه الاضرار قد

تكون واسعة النطاق وتصل الى مستوى الكارثة فيما لو اسيء استخدام المبيدات في مجتمع ما او انعدمت الضوابط فيه ، وهذا في الحقيقة هو حال جميع ملوثات البيئة •

٢ ـ ما هي المبيدات الكيميائية :

المبيدات مواد كيمياوية سامة بعضها مبتكر في تركيبه الكيميائي من قبل الانسان وهذه تعرف بالمبيدات المصنعة (من الامثلة عليها هي المبيدات الكلورية والفوسفورية العضوية) التي انتجها الانسان خلال فترة الحرب العالمية الثانية للمجموعة الاولى ، وفي الخمسينيات بالنسبة للمجموعة الثانية ، وبعضها الاخر مواد طبيعية الاصل ، توجد بكميات قليلة في النباتات ، لكن الانسان لاحظ سميتها ودرس تركيبها الكيمياوي فأخذ ينتجها صناعيا بكميات كبيرة وهي سامة للحشرات ، لذلك تعرف باسم المبيدات الحشرية النباتية الاصل وهي في الغالب قليلة السمية للانسان والحيوانات وتعرف بمبيدات المستقبل ، ويكثر استخدامها في المنازل للقضاء على الذباب كما تستخدم في مجالات عديدة اخرى ، ومن الامثلة عليها المركبات البيرثرويدية ، هذا فضلا عن وجود مبيدات كيميائية اخرى ذات تراكيب مختلفة ومخصصة لابادة الفطريات والاعشاب والقوارض وغير ذلك •

مصطلح المبيدات هو مصطلح مظلي ، يضم تحت ظله المئات من المركبات كل منها يستخدم لابادة مجموعة من الافات ولذلك قد تسمى مجاميع المبيدات باسم الافة التي تقضي عليها مثل مبيدات الحشرات ، مبيدات الفطريات ، مبيدات الاعشاب ، مبيدات القوارض ، مبيدات الديدان ، مبيدات القواقع ... الخ •

تستخدم المبيدات عموما لوقاية الانتاج النباتي من الآفات في اثناء الزراعة او الخزن ، وتستخدم كميات اخرى منها لحماية حيوانات الانتاج الحيواني من الحشرات والطفيليات الخارجية ، وهناك نسبة اقل من المبيدات تستخدم

لاغراض مكافحة الحشرات الناقلة للامراض او لأبادة الاعشاب قبل الزراعة ، ونسبة اخرى كمبيدات منزلية الاستخدام فمثلا تقدر نسبة المبيدات المستخدمة لاغراض الانتاج الزراعي في دول العالم الثالث ولاسيما في امريكا الجنوبية والبحر المتوسط وافريقيا بنحو ٩٠٪ من المجموع العام في حين تستخدم نسبة ١٠٪ المتبقية لاغراض مكافحة الحشرات ذات الاهمية الطبية ، او الاستخدامات المنزلية • بالاضافة الى المبيدات المستخدمة مباشرة في قنوات المياه بهدف القضاء على الاعشاب والادغال التي تعيق الملاحة النهرية ، او جريان الماء •

٣ ـ خصائص المبيدات في الفترة السابقة :

لقد كانت المبيدات من اكبر مسببات المشاكل البيئية في عقد السبعينيات ويعود سبب ذلك الى ما يلي من عوامل :

آ ـ انواع المبيدات التي كانت تستخدم آنذاك (المركبات الكلورية العضوية، والزئبقية والزرنيخية) وهي مركبات لا تتحلل وتبقى على حالها في البيئة سنوات طويلة [١] ، ولها القابلية على إحداث تأثيرات ضارة بصحة البشر ، والثروات الحيوانية •

ب ـ ان المبيدات الكلورية العضوية التي كانت كثيرا ما تستعمل ، لا تذوب في الماء بل في المذيبات العضوية ، لذلك كان من المألوف اذابتها بالنفط الابيض (الكيروسين) ورشه في شوارع المدن لمكافحة البعوض ، كما يجرى في بغداد والمحافظات في حملات مكافحة البعوض الناقل للملاريا فتزداد بذلك خطورة التلوث البيئي •

ج ـ بسبب خاصية عدم الذوبان في الماء (المذكورة في ٣ اعلاه) فان لهذه المبيدات خاصية التراكم في جسم الانسان والحيوانات [٢] ، ولا يتمكن الجسم من التخلص منها بسهولة فتزادا تراكيزها الى درجات عالية

وتنذر بالخطر ، وقد تم قياس هذه التراكيز في جسم الانسان في بغداد وفي الاغذية المحلية والمستوردة في تجربة رائدة في مجلس البحث العلمي قبل الغائه ، سنتناولها بالشرح لاحقا •

د ـ الكميات الكبيرة جدا من المبيدات التي كانت ترش يوميا في انحاء العالم وفي كل مكان من البيئة بسبب الحاجة الماسة لمكافحة الحشرات الناقلة للامراض التي كانت متفشية آنذاك ، وتنشيط الزراعة وسد الحاجة الى الغذاء ويشير الجدول (١) الى كميات وانواع المبيدات المستعملة من قبل المديرية العامة للوقاية الصحية خلال الفترة ما بين ١٩٦٠ــ١٩٧٧ وذلك في قطاع مكافحة الحشرات والقواقع الناقلة للامراض • لكن مثل هذه الاحصائيات تلاشت بعد الغاء تلك الدائرة ، وتحويلها باسم آخر •

لا تتوفر إحصائيات عن المبيدات المستخدمة في القطاع الزراعي ، لا في فترة الستينيات والسبعينيات ، ما عدا ما اشارت اليه وزارة الزراعة في ورقة عمل مقدمة الى ندوة البيئة والتنمية [٣] التي انعقدت عام ١٩٩٢ وهي الكميات المشار اليها في الجدول (٢) والتي يرجع استعمالها الى عام ١٩٨٩ ونعتقد بان هناك كميات اخرى لم يتم إدراجها •

هـ ـ كان مستوى الوعي البيئي الصحي في دول العالم لدى عامة الناس متدنيا بالمقارنة مع الوقت الحاضر ، بحيث لم تكن تتخذ اجراءات وقائية كافية عند رش المبيدات او استعمالها او خزنها •

و ـ كثرة حالات سوء الاستخدام (اي استخدام المبيد لغير الغرض المخصص من اجله) فقد كانت هناك نسبة كبيرة من المبيدات الخطرة او الثابتة لكنها تستخدم في الزراعة مثلا ، وسيتم تناول بعض الحالات المسجلة في الفقرة (٧) لاحقا •

جدول ــ ١ : الكميات المستعملة من المبيدات في العراق لأغراض الوقاية الصحية فقط +
للسنوات ١٩٦٠ ــ ١٩٧٧

السنوات	المبيدات المستعملة والوحدات لكل منها					
	د.د.ت (طن)	ديازنون (غالون)	ديتركس (لتر)	ملاثيون (طن)	بايلوسايد (كغم)	كبريتات النحاس(طن)
١٩٦٠	٥٩٥	٣٩٢٩	—	—	—	٢٨
١٩٦١	٦٨١	٢٥٨٠	—	—	—	١٨
١٩٦٢	١٦٦	١٣٦٨	—	—	—	٢٨
١٩٦٣	١٠٥	٣٣٧٦	—	—	—	٣٩
١٩٦٤	٧٥٧	١٦٦٧	—	—	—	٤٩
١٩٦٥	٤٢٣	١٩٥٣	٥٥٠٠	—		٣٧
١٩٦٦*	—	—	—	—	—	—
١٩٦٧	١٤٠٤	١٢٣٤	—	—	—	١٤
١٩٦٨	١٤٢٦	١١٦٩	—	—	—	١٣
١٩٦٩*	—	—	—	—	—	—
١٩٧٠	١٠٢٢ر٣	٢٠٧٠	٥٥٠٠	١٤٥	—	١٢
١٩٧١	٩٢٦	١٢٨٦	١٥٠٧	٢٨٧	١٥	٦ر٨
١٩٧٢	٩٦٤	١١١٨	١٥٠٠	٣١٤	٥١	٦ر٩
١٩٧٣	٦٥٩	١٨٨٥	١٧٢٦	٢٧٨	١٦٦	٥٢٧٤
١٩٧٤	٤٨٣	٥٠١٠	١٩٠٠	٢٩٧ر٤	٦٠٣	١٦٣
١٩٧٥	١١٨٥	٢٠٧٦٤	١٦٣٣	١٥٠	٤٩٧	٢٠٥١
١٩٧٦	٧٦٢ر٢	١٩٦٣٣	٨٥٣٩	١٤٢ر٥	٤٤٨	٣٨٣٠
١٩٧٧	٦٥٨	٢٠٥٨٠	١٩٠٩	١٣٨ر٤	٧١٠	٣٤٤٥

+ المعلومات مأخوذة من سلسلة التقرير السنوي لمديرية الوقاية الصحية العامة / وزارة الصحة

* التقرير مفقود .

ملاحظة حول الجدول : كان مبيد البايلوسايد وملح كبريتات النحاس مخصصين للقضاء على القواقع الناقلة لمرض البهارسيا الذي كان منتشر بكثرة في العراق .

جدول (٢) كميات المبيدات المستخدمة في القطاع الزراعي عام ١٩٨٩ فقط

الغاية من الاستخدام	الكمية المستخدمة (طن)
مكافحة التفحم على الحنطة والشعير	٢٠٠
مكافحة آفات النخيل	٢١٠
مكافحة الادغال	٦٠
مكافحة الارضة	١٥٠
مكافحة آفات وامراض اخرى	٤٠

٧ ـ كثرة حالات الخطأ والسهو بسبب نقص التعليمات والضوابط : مثل حفظ المبيدات في قناني الدواء او المشروبات ومن ثم كثرة حالات تناولها بالخطأ ، كما كان عدم إنتشار الوعي الصحي في المجتمعات سببا مضافا الى ذلك .

٤ ـ الاضرار البيئية والصحية للمبيدات :

تعد هذه الاضرار عديدة ، ومتعددة الاوجه ، فهي تسبب القضاء على الحشرات النافعة كالنحل وعلى كثير من انواع الحشرات النافعة كالتي تتغذى على حشرات المن والآفات الاخرى فتحد من انتشارها ، وتسبب المبيدات قتل الاطوار اليرقية للاسماك والاحياء المائية كما تؤدي الى اقصاء بعض الانواع ولاسيما الطيور عن مواطنها الطبيعية . وقد كانت من المبيدات الثابتة بيئيا ، التراكم في الانسجة الحية وتنتقل عبر السلاسل الغذائية لتصل الى الانسان او الاحياء الاخرى مسببة تأثيرات فسلجية سلبية عديدة ، وقد سجل الكثير

من حالات تناقص الطيور البرية بسبب زيادة تراكيز المبيدات الثابتة بيئيا في اجسامها ، ومن اشهر الطرق التي تؤثر فيها مثل هذه المبيدات على الطيور ، انها تسبب هشاشة قشرة البيضة في الطيور المتعرضة مما يجعلها عرضة للكسر حال وضعها ، هذا فضلا عن خفض خصوبة الحيوانات ومنا الطيور ايضا . وهناك اضرار عديدة اخرى لا يمكن الخوض فيها في هذا المجال .

أما الخطورة الصحية للمبيدات : فيمكن القول بان هناك اضرارا تكاد لا تحصى تعود الى تأثير التعرض الى المبيدات ، ولا عجب في ذلك فهي مواد بعضها سام وبعضها الاخر شديد السمية ، وهي تنتج وتستخدم لهذا الغرض، والتعرض الى رذاذها او ابخرتها او تناولها بطريق الخطأ لابد وان يكون محفوفا بالمخاطر .

نعلم اليوم بأن العديد من انواع المبيدات الكلورية العضوية تعتبر متهمة باحداث الامراض السرطانية [٤] او العقم او التشوهات الخلقية او انخفاض الخصوبة في الانسان [٥] وذلك في حالات التعرض الطويل الامد الى تراكيز قليلة منها ، فضلا عما تسببه المبيدات الفسفورية من حالات التسمم الحاد بالطبع وخسائر سنوية في الارواح بسبب الاستخدام الخاطيء او بسبب الاستخدام اللامبالي ، او عدم وضوح العلامات التحذيرية وما الى ذلك .

تختلف اضرار المبيد على وفق نوع التعرض لها
وهذه الاضرار تقسم بذلك الى ثلاثة انواع رئيسة :

أ ـ حالات التسمم الحاد : ويحدث بسبب اخطاء مهنية مثل الحوادث العرضية ، وحالات الانتحار والقتل العمد . او تناول اسماك تم صيدها بالمبيدات وغير ذلك ، وهذا ليس غريبا بالطبع لكونها مواد سامة ومتداولة في ايدي عامة الناس . والاضرار الصحية في هذه الحالة تشمل التقيؤ ، والآلام المختلفة حسب نوع المبيد ، إنعدام التنسيق العضلي ، وقد يصل الامر الى الغيبوبة والوفاة .

ب ـ حالات التسمم المزمن : وهذه الحالات تلاحظ بكثرة لدى المشتغلين بصناعة خلط المبيدات ، او انتاجها او عمال رش المبيدات ممن لا يتخذ اجراءات الحيطة والحذر الموصى بها ، وتختلف الاعراض كليا عن افراد المجموعة الاولى ، وتشمل حالات حساسية او اعراض تنفسية اخرى كالربو ، وإنخفاض كفاءة الجهاز العصبي او فقر دم ، وغير ذلك . ويقدر عدد عمال الرش الذين يتعرضون الى التسمم بالمبيدات سنويا نحو ٣٠٠ الف عامل وتبلغ نسبة التسمم المزمن من بينها نحو ٩٠٪ اما النسبة المتبقية فهي تسمم حاد [٥] .

ج ـ حالات التعرض طويل الامد : وهذه حالات غير منظورة في المجتمع ولكن ينظر اليها من حيث العلاقات الاحصائية ، فأينما كانت هناك حالات تعرض مستمر لتراكيز قليلة من المبيدات في مجتمع ما فان هذه الامراض تكون واضحة في ذلك المجتمع . وهذه الامراض تشمل زيادة في الامراض السرطانية ، والتشوهات الخلقية والولادية وانخفاض الخصوبة لدى المرأة والرجل او حالات الاجهاض والعقم ، وما الى ذلك . وبصورة عامة لا يمكن الجزم بان الحالات المتسببة هي ناتجة عن المبيدات ، ما عدا حالات التعرض المهني المثبتة كما حصل في كارثة التلوث البيئي في فيتنام بمبيدات الاعشاب التي استخدمتها القوات الامريكية أبان التدخل العسكري الامريكي في فيتنام ، وكانت تحتوي على شوائب قليلة من مركبات الدايوكسين الخطرة ، وصدر بشأنها العديد من البحوث والدراسات [٦] التي وثقت تلك الحالات المرضية .

٥ ـ الشرائح والفئات الاكثر تعرضا لخطر المبيدات :

لا يمكن حصر الشرائح الاجتماعية والفئات المهددة بخطر المبيدات اكثر من غيرها ، ولكن يمكن القول بأن من بينهم ، الفئات او الشرائح الاتية :

آ ـ عمال نقل او خزن المبيدات غير المدربين ، وغير المدركين لخطرها •

ب ـ الفلاحون الذين يقومون بالرش وهم يفتقرون الى الوعي الكافي •

ج ـ ربات المنازل والاطفال المعرضون الى تناول المبيدات بطريق الخطأ•

د ـ عمال آخرون مثل عمال البناء ، والعاملون في معامل خلط او تجزئة المبيدات •

هـ ـ اصحاب مكاتب بيع المبيدات التجارية •

وهذا يؤشر على اهمية توعية هؤلاء الشرائح من المجتمع باخطار المبيدات ، لتلافي الاضرار الصحية والخسائر البشرية في الارواح او لتقليل معاناتهم والحد من حالات التلوث •

٦ ـ حالات التسمم بالمبيدات في دول العالم :

يشير المدير التنفيذي لبرنامج الامم المتحدة للبيئة في تقريره السنوي لعام ١٩٩١ [٧] نقلا عن مصادر علمية متخصصة اخرى ، بأن هناك العديد من حالات التسمم بالمبيدات المسجلة التي تدل على اساءة الاستعمال ما بين استهلاك حبوب معفرة بالمبيدات بدلا من زراعتها او تناثر المبيد خلال عمليات النقل او التخزين او الافراط في الاستخدام او الاستخدامات الخاطئة الاخرى• وهناك عدد كبير نسبيا من حالات التسمم الجماعي في دول العالم خلال فترة النصف الثاني من القرن العشرين ، وهي كما موضحة في الجدول (٣) ، ويبلغ مجموعها ١٤٣٤٢ حالة منها ١٣٢٤ حالة وفاة [٧] ، هذا غير حالات التسمم الفردية •

في حين لم تتطرق إصدارات برنامج الأمم المتحدة للبيئة في عام ٢٠٠٠ (٨) المتوفرة محليا الى هذه المشكلة بالتوسع السابق المشار إليه نفسه (٧) ، ما عدا الإشارة إلى إن المبيـــدات تتسـبب بإصابة أعداد من البشر تتراوح ما بين ٣ـ٥ر٣ مليون شخص في عموم مناطق العالم بحـالات تسمم مختلفة.

جدول ـ٣ : حوادث التسمم الجماعي بالمبيدات عقب استهلاك أغذية ملوثة وعدد الوفيات وموقع كل منها :

المبيد	الغذاء الملوث	مصدر التلوث	عدد الحالات	عدد الوفيات	الموقع والسنة
زئبق كحولي	خبز	حنطة معفرة	٢٠٠	٧٠	العراق ١٩٥٦
زئبق كحولي	خبز	حبوب معفرة	٤٥	٢٠	غواتيمالا ١٩٦٥ /١٩٦٦
زئبق كحولي	ذرة	ـــ	١٤٤	٢	غانا ١٩٦٧
زئبق اثيلي	؟	حنطة معفرة	٣٢١	٣٥	العراق ١٩٦١
زئبق اثيلي	دقيق	حنطة معفرة	٦٥٣٠	٤٥٩	العراق ١٩٧١
هكساكلور و بنزين	؟	حبوب معفرة	٣٠٠٠	٤٠٠	تركيا ١٩٦٠ـ١٩٦٣
أندرين	دقيق	تناثر خلال النقل	١٥٩	صفر	المملكة المتحدة١٩٥٦
أندرين	دقيق	تناثر خلال النقل	٦٩١	٢٤	قطر ١٩٦٧ـ١٩٧٠
أندرين	دقيق	تناثر خلال النقل	١٨٣	٢	السعودية١٩٦٧
بارثيون	قمح	تناثر خلال النقل	٣٦٠	١٠٢	الهند ١٩٥٨
بارثيون	قمح	تناثر خلال النقل	٢٠٠	٨	مصر١٩٥٨
بارثيون	قمح	تناثر خلال النقل	٦٠٠	٨٨	كولومبيا ١٩٦٧ـ ١٩٦٨
بارثيون	قمح	تناثر خلال النقل	٥٥٩	١٦	المكسيك ١٩٦٨
الديكارب	بطيخ	غير محدد	١٣٥٠	٨٠	الولايات المتحدة ١٩٨٥

٧ ـ بعض حالات التسمم بالمبيدات والمسجلة في العراق :

لعل اشهر حوادث التسم بالمبيدات في القطر ، قد حدثت في السبعينيات ولاسيما في عام ١٩٧١ كما في الجدول (٣) ، ولا تزال تذكر في كتب التلـوث البيئي [٩] وذلك عقب تناول خبز محضر من حنطة معاملـة باحد مركبـات الزئبق العضوية كمبيد فطريات(١).

لا تتوفر معلومات دقيقة عن الحالات الاخرى المسجلة لكونها حـالات فردية ، وقد تسجل في السجلات الرسمية على انها تسمم بدون الاشارة الـى ان سببها هو مبيدات ، وعلى سـبيل المثال يبلغ عـدد الوفيات بسبب التسمم بالمبيدات في عام ١٩٩٥ فقط ٢٣ حالة منها ١٦ أنثى يضاف اليها ١٠ حـالات تسمم اخرى بالمبيدات ، شفي المصابون بعدها ، وكانت المبيدات هي فسفورية عضوية وكاربامانية . وحدثت في العام نفسه سبع حالات تسمم بالكينولايت مات فيها احدهم وذلك في محافظة ذي قار ، كما سجلت حالة تسمم بقيـام عائلة فلاحية بشراء ١٢ كغم من الحنطة المعفرة بالمبيد لتيهئتها للزراعة ، فزرعت نصفها وتناولت النصف الباقي ، فعانى افراد العائلة من التسمم . وسـجلت في العام نفسه (١٩٩٥) قيام عائلة فلاحية في محافظة الانبار بشراء حنطـة معفرة من محافظة نينوى ، وقاموا بخزن الاكياس بطمرها تحت الارض ، ومن

---

(١) يشير المصدر ٧ الى انها زئبق اثيلي (ethyl mercury) بينما يشير المصدر ٩ الى انها زئبق مثيلي (methyl mercury)

ثم قاموا باخراجها وتناولها ، فعانى جميع افراد العائلة من التسمم كما ادى القاء الحنطة في النهر للتخلص منها الى موت الاسماك[٢] ، ومن يعلم ، فربما تناول بعض الافراد تلك الاسماك الطافية وعانوا من تسمم غير موثق .

٨ ـ واقع استعمال المبيدات الحالي في العراق :

يمكن القول بصورة عامة ان الفترة التي تلت عقد الثمانينيات قد شهدت انخفاضا في نسب الاخطار الناجمة عن المبيدات بدرجة كبيرة وذلك للاسباب الآتية :

أ ـ منع استعمال المبيدات الكلورية والعضوية والاقلال من المبيدات الزئبقية ، وتناقص كميات المبيدات الفسفورية المستعملة .

ب ـ التوسع باستعمال الانواع الحديثة من المبيدات الامينة بيئيا ومنها مركبات البيرثرويدات النباتية الاصل والكارباماتية واميدات الالكيل العضوية ، وغيرها ، التي تمتلك سمية قليلة جدا للانسان وسمية عالية للحشرات ، وهي في الوقت نفسه سريعة التحلل ولا تلبث ان تتحلل خلال ساعات معدودة .

ج ـ ارتفاع درجة الوعي الصحي والبيئي لدى المواطنين من خلال ما يبث من اخبار وبرامج تلفازية وغيرها ، وانتشار الثقافة بين عامة الناس .

د ـ على مستوى الممارسات الزراعية تم إدخال اجهزة رش المبيدات الحديثة المعروفه بالرمز (ULV) التي يمكنها من توزيع حجم قليل من المبيد/هكتار (مثلا ٥ر٠ ـ ١ لتر/هكتار) ، مما يقلل من تلوث البيئة .

---

(٢) (عن محاضرة للدكتور معز اسماعيل الامين / مدير قسم الاوبئة في وزارة الصحة) .

هـ ـ ان استعمال الرش بالطائرات يعتبر طريقة حديثة ، ومن شأنها ان تقلل من تداول الفلاحين للمبيدات وخزنها في دورهم او مزارعهم ، مما يقلل من فرص تعرض العامة والاطفال الى خطر التسمم بها .

و ـ إدخال استعمال وسائل حديثة اخرى في المكافحة الكيميائية كالمكافحة الحيوية ، واستعمال تقنية تعقيم الذكور ، وتطوير اصناف نباتية جديدة، وادخال استعمال الفيرمونات كوسيلة جذب للحشرات الى بقعة محددة لمكافحتها .

٩ ـ الطرق الحالية للتعرض لخطر المبيدات :

مع كل ما تقدم لابد من الاشارة الى خطر التسمم بالمبيدات لايزال قائما ، من خلال ما يأتي من الطرق وهي الاكثر خطرا ، فضلا عن تلك التي اشرنا اليها (من حوادث عرضية وتعرض مهني وغيرها) ، وهذه الطرق هي :

آ ـ وجود تراكيز من بقايا المبيدات في الاغذية المستوردة من الخارج ولاسيما المعلبات ، والحليب المجفف وغيرها .

ب ـ قيام بعض المزارعين بتسويق الحاصلات الزراعية من فواكه او خضر بعد رشها مباشرة او بعد فترة وجيزة وبدون انتظار الفترة الزمنية المخصصة لكل مبيد .

ج ـ رش المبيدات على ابقار الحليب ، وحلبها مباشرة من دون الانتظار للفترة المخصصة لذلك .

د ـ قيام عمال البناء بخلط المبيدات مع مواد البناء (الآجر) وذلك للقضاء على الاحتمالات المستقبلية للاصابة بحشرة الارضة ، وهذه الممارسة شائعة في الوقت الحاضر في العراق ، ولها خطورة مباشرة على صحة العمال فضلا عن افراد العائلة ، بعد السكن في المنزل .

١٠ ـ واقع دراسات وبحوث التلوث بالمبيدات في العراق :

يمكن القول بصفة عامة ان الدراسات التي تتركز على مشاكل التلوث بالمبيدات تعتبر قليلة نسبيا ، لاسيما تلك التي تستند الى تقدير تركيز متبقيات المبيدات في البيئة والغذاء التي تحتاج الى طرق تحليل كيميائي متقدمة وخبرات لا تتوفر دائما •

تم في العراق انجاز مشروعين واسعين خلال الفترة ١٩٨١ــ١٩٨٥ و ١٩٨٦ــ١٩٩٠ في مجلس البحث العلمي حتى إلغائه ، لمراقبة تراكيز بقايا المبيدات الكلورية في انواع الاغذية وتوثيقها (منتجات الالبان [١٠] ، كوم الاغنام والابقار [١١] والاسماك [١٢ ، ١٣] والاغذية المستوردة الى العراق [١٤] ومن جانب ثانٍ ، شمل المشروعين تقدير تراكيز بقايا المبيدات في الجسم البشري من خلال دراسة التراكيز في حليب الامهات [١٥] والمشيمة [١٦] وعلاقة التغذية بتراكيز المبيدات [١٧] وتأثيرات المبيدات الكلورية العضوية على القابلية التناسلية في حيوانات التجارب [١٨ ، ١٩] ، فضلا عن دراسات اخرى لتحديد مصادر التلوث بالمبيدات الكلورية في البيئة المائية [٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤] وساعد في انجاز هذه البحوث التطور العلمي الكبير الذي ساد المؤسسات البحثية العراقية ، وقبل ان يفرض الحصار الاقتصادي كابوسه الثقيل على العراق ويحجم جميع اعماله العلمية الاساسية واللازمة لخدمة الصحة العامة ، ليس في العراق فحسب بل على صعيد الانسانية •

اثبتت تلك المشاريع البحثية بان تراكيز بقايا تلك المبيدات كانت ضمن الحدود المسموحة ، وهذه البقايا تعتبر موجودة في جميع مناطق العالم قاطبة بلا استثناء ولا سبيل الى التخلص منها في الغذاء وجسم الانسان قبل مرور عشرات السنين ، على الرغم من تحجيم استخدامها • هذا ما عدا الاغذية المستوردة ، اذ اثبت مسح الاغذية المستوردة الى العراق [١٤] مثلا ، وجود

الكثير من المبيدات بتراكيز تفوق الحدود المسموحة دوليا ومع ذلك تستورد الى العراق حيث لا تخضع الاغذية الى رقابة من هذا النـوع في جميع دول العالم . مما يؤشر على اهمية السيطرة على التلوث الكيميائي في الاغذية .

١١ ـ السيطرة على التلوث الكيميائي في الاغذية :

مما تقدم تتضح اهمية هذا النوع من الدراسات والبحوث ، على امـل تحويلها في خطوة لاحقة الى خطة منظمة للسـيطرة على التلوث الكيميائي في الغذاء ، اذ ان هناك العديد من المؤشرات التي تدل علـى ان بعض الـدول المصنعة للاغذية المعلبة ، تعجز عن تصدير منتجاتها الى الدول المتقدمـة لان تلك المنتجات تخضع الى تحاليل دقيقة يجريها مختصون بفحص الاغذيـة للتأكد من خلوها من الملوثات او مطابقتها للمواصفات الغذائية الدوليـة المحددة من قبل هيئة دستور الاغذية (Codex Alimentarius Commission) لذا فأن تلك الدول تقوم بتصديرها الى دولنا النامية لعلمها الكامل بعـدم وجود اي شروط او ضوابط أو فحوصات على ذلك . فيتعرض الانسـان في مجتمعنا الى اخطار جسيمة من دون ان يدري ، في الوقت الذي تنشغل فيـه الدوائر المختصة بفحوصات هامشية عن اللون او العلامة او غير ذلك !

من جانب ثانٍ يشير الدبس [٢٥] الى ان الدول الصناعية لا تبالـي بتصدير بعض المبيدات ذات الاخطار الصحية الكبيرة على الانسان في حـين تمنع استخدامها في اراضيها ، وهناك الكثير من الامثلة والادلـة على ذلـك ، وفي الحقيقة فأن من الضروري تحديث معلومات الملاكات العاملة في مجـال السيطرة النوعية ومراقبة تراكيز المبيدات والمعادن الثقيلة ، والعمل على مواكبة التطورات العلمية في الدول المتقدمة ليتسنى لهم التقاط مثل هذه الحقـائق حال اكتشافها .

١٢ ــ المعالجات المقترحة والتوصيات :

لا شك في أن أستخدام المبيدات امر لا مفر منه ، وعلى الرغم من وجود القناعة بأن بعض هذه التوصيات معمول بها حاليا سواء كان ذلك بشكل كلي أم جزئي ، إلا ان التذكير بها مجددا او التأكيد عليها لا ضير منه كما انه ضروري لتكامل بحثنا الحالي ، لـذا فمن اهم المعالجات التوصيات التي يمكن اقتراحها في هذا المجال هي :

آ ــ التوسع باستعمال المبيدات الامينة بيئيا ، بدلا من المبيدات السامة غير الانتقائية كلما كان ذلك ممكنا ، لاسيما في مجال مكافحة الذباب والحشرات في الحقول البيطرية ، والمبيدات المستعملة في الحدائق المنزلية .

ب ــ حصر الكميات والنوعيات المستخدمة ومناطق الاستخدام سنويا ، وتهيئتها للباحثين للاستفادة منها في تقييم الحالة البيئية .

ج ــ مراعاة قواعد وشروط الخزن والاستخدام الآمن للمبيدات ، وهي شروط وضوابط معروفة ومحددة ، والعمل على تعميمها على كل من يستعمل المبيدات بيعا او خزنا او استعمالا .

د ــ تنشيط دور مراكز السلامة المهنية في تدريب الملاكات العاملة في مجال استخدام المبيدات ، من عمال الخزن او الرش او التحضير ، في سبل توقي الاضرار الصحية والاستخدام الآمن للمبيدات .

د ــ قيام دائرة حماية البيئة وتحسينها بتوعية المواطنين بمخاطر المبيدات من خلال إدخالها في النشرات والبرامج والاعلانات الصحية ، والتركيز على محاذير الاستخدامات الخاطئة .

هـ ــ توجيه المكاتب التجارية المختصة بعدم بيع المبيدات السامة (من انواع معينة كالتي تصلح لقتل الاسماك) ، إلا بموجب ضوابط معينة (مثل

اجازة بناء او غيرهـا) ومحاسبتهم على ذلك من خلال المتابعة المستمرة من قبل ملاك حماية البيئة في بغداد والمحافظات •

و ـ الارتقاء بقـدرات خدمـات استعلامات السموم في بغداد والمحافظـات لتقديم العلاج الصحيح للمصابين مع ضرورة التوثيق الدقيق لحـالات التسمم ، ومسبباتها •

ز ـ منع عمال البناء من خلط المبيدات مع المواد الانشائية ، وتوعيتهم بمخاطر هذه الطريقة ، وتوجيههم الى الاستعانة بالمكاتب الزراعية المتخصصـة بمكافحة الارضة بالطرق العلمية ، لاجل ذلك •

ح ـ تطوير قدرات المختبرات المختصة بالسيطرة النوعية والتحاليل الغذائيـة في مجال التحري عن بقايا وجود المبيدات والمعادن الثقيلة في الاغذيـة المستوردة او الخضراوات المنتجة محليا ، ومحاسبة اي جهـة تقـوم باستيراد منتجات ذات تراكيز عالية منها او تسويقها •

ط ـ قيام الجهاز المركزي للتقييس والسيطرة النوعية (وهو الجهة المختصـة قانونـا) باصـدار قوائـم الحـدود العليـا للمتبقيـات (**Maximum Residue Limits**) في انواع الاغذية ليتسنى العمل بها •

ي ـ استكمال الفقرات القانونية للعقوبات الرادعة لكل من يقوم باسـتعمال المبيدات استعمالات خاطئة ، والاعلان عنها بوضوح لتوعية المواطنين •

المصـــــادر

1 - Matsumura, F. (1976) Toxicology of Insectildes, 2nd Printing, Plenum Press, Nem York and London. PP 47-103.

2 - UNEP (1987) Environmental Data Report, Basil Blackwell, Part, 1, environmental Pollution, PP 3-103.

٣ – وزارعة الزراعة والري (١٩٩٢) ورقة عمل الوزارة المقدمة الى ندوة البيئـــة والتنمية لوزارة التخطيط ، بغداد ٤ـ٥ آذار ١٩٩٢ .

4 - Zahm, S. and Devesa, S. (1995) Childhood cancer : overview of incidence,, trends and environmetal carcinogens. Environmental Health Perspective, Vol. 103, Supp. 6.

5 - Cunningham, W. P. and Saigo, B. W. (1995) Environmental Science, 3rd edition. Wm. C Brown Publishers, Chicago. P. 248.

6 - Hutzinger, O., Frei, R. W., Merian, E. and Pocchiari, F. (ed.) (1980)

Chlorinated Dioxins and Related Compounds : Impact on the environment, Pergamon Press, Oxford.

٧ – برنامج الامم المتحدة للبيئة (١٩٩٢) التقرير السبوي للمدير التنفيـــذي ١٩٩١ ، نيروبي ، كينيا ، ص٨٣ .

8 - UNEP (1999) Global Environmental Outlook 2000, UNEP, Earthscan Publication Ltd. London.

9 - Hodges, L (1977) Environmental Pollution, 2nd edition, Holt. Rinehart and Winston, New York, P 424.

10- Al-Omar, M.A., Tameesh, A.H. &., Al-Ogaily., N.H., (1985) Dairy Product contamination with organochlorine insecticde residus in Baghdad district.. Journal of Biological Sciences Research 16 : 133-144.

11- Al-Omar, M.A., Al-Bassomy, M.A & Al-Ogaily., N.H., (1985) Residue levels of organochlorine insecticides in lamb and beef ?from Baghdad. Bull. Environ, Contam. & Toxicol. 34:509-512.

12- Al-Omar, M. A., Al-Ogaily N.H & Shebl, D. (1986) Residues of organochlorine insecticides in fish from Polluted water. Bull. Environ. Contam. & Toxicol. 36 : 109-113.

13- DouAbul, A.Z. Al-Omar, M.A. Al-Obaidy, S.Z. & Al-Ogaily, N.H. (1987) Organochlorine Pesticide residues in fish from Shatt al - Arab river, Iraq. Bull. Environ. Contam. & Toxicol 38 : 674-680.

14- Al-omar, M.A., Tawfiq, S., & Al-Ogaily, N.H. (1989) Presence of organochlorine Residues in imported canned food, Iraq 1985-1986. Proceedings of the 5th Scientific Conference of the Scientific Research Council/Iraq, Baghdad 7-11 Oct. 1989. Vol. 5 Part 2

15- Al-0car, M. A. Tawfiq, S:J. & Al-Ogaily N,H. (1985) organochlorine residue levels in human milk from Baghdad. Bull. Environ. Contam. Toxicol. 35 : 65-67.

16- Al-Omar., M.A., Tawfiq, S., Majeed, K.A. & Shebl., D. (1986) Human Placental tissue contents of organochlorine insecticide residues in Baghdad. Proceedings of the 4th Scientific Conference of the Scientific Research Council/Iraq, Baghdad 23-28th Oct. 1986, Vol, 5 Part 6.

17- Al-Omar, M.A., Abdul-Jalil, F.H., Al-Ogaily., N. H., Tawfiq, S. & Al-Bassomy, M.A. (1986) A follow-up study of maternal milk contamination with organochlorine insecticide residues, Environmental Pollution (series A) 42 : 79-91.

18- Balash, K. J. Al-Omar, M. A. & Abdul-Latif, B. (1987) Effect of chlordane on testicular tissues of Swiss mice, Bull.. Environ. Contam. Toxicol. 39 : 434-442.

19- Al-Omar, M.A., Amal K. Abbas and Sabah A. Al-Obaidi (2000) Combined Effect of Exposure to lead and chlordane on testicular tissues of Swiss mice, Toxicology Letters, Vol. 115, (2000) PP 1-8.

20- Al-Omar, M.A., Al-Ogaily N. H & Tawfiq, S.J (1985) Residue levels of organochlorine insecticides in sewage plant effluent Journal of Biological Sciences Research 16 : 145-151.

21- Al-Omar., M.A., Al-Ogaily, N.H. & Shebl, D. (1989) Effect of a sewage Plant in the Distribution of organochlorine residues in Diyala river, Iraq. Water, Air & Soil Pollution 44 : 1-7.

22- Douabul, A.A., Al-Saad, H. T., Al-Timari, A. K. and Al-Rikabi, H.N. (1988) Tigris-Euphrates delta, a major source of Pesticides to the Shatt al-Arab (Iraq). Arch. Environ. Contam. Toxicol. 17 : 405-418.

(٢٣) العمر ، مثنى عبدالرزاق (١٩٩٧) تقييم البيئية للمركبات الكلورية العضوية في البيئة والغذاء ، مجلة ابحاث البيئة والتنمية المستدامة المجلد الاول ، ص ٥٣ــ٦٠ .

(٢٤) توزيع وانتشار الملوثات الكلورية العضوية في البيئة المالية ، ندوة ادارة شؤون الصحة والبيئة ٢٦ ــ ٢٨ ايلول ١٩٩٣ ، دمشق ــ سورية .

(٢٥) الدبس ، سعدي (١٩٩٠) التلوث البيئي بالمبيدات والكيمياويات الزراعة، المجلة الثقافية العدد ٢٢ ص ٢٣٧ .

النحو بين التعليم والتخصص

الدكتور محمد خان
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعـة محمد خيضر بسكرة

النحو هو انتحاء سمت كلام العرب من تصريف وإعراب[1] . تلك غايته التعليمية التي صرح بها ابن جني منذ القرن الرابع الهجري . ومازالت هي غايتنا نحن . نهدف الى تحصيلها لنتمكن من ضبط كلامنا ضبطا يوافق قوانين اللغة العربية .

فهل بلغنا الغاية ، وما بالنا اذا التقينا اشتكى بعضنا لبعض من تدني المستوى التعليمي ؟ ورجعنا باللائمة على النحو والنحاة ؟ على الرغم من اننا نتفق جميعا على ضعف التعليم في مختلف مراحله . وليس لمادة وضع احسن حالا من مادة اخرى في نفوس الطلبة .

وعندما رجعت بالسؤال الى نفسي قلت : هل من سبيل للارتقاء بالنحو العربي ؟ ما سرّ الضعف الذي يلازم طلابنا في قسم اللغة العربية بله الاقسام الاخرى ؟ أيعود الضعف الى الاستاذ أم الى الطالب أم الى المادة ؟ أهو في طبيعة المادة أم في منهجها ؟

---

(١) عرف ابن جني (٣٩٢ هـ) النحو بقوله : « هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من اهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وان لم يكن منهم وان شذ بعضهم عنها رد به اليها » . الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ط٢ (د.ت) ج١ ص ٣٤ .

لا ازعم اني سأجيب عن كل الاسئلة . ولكن حسبي ان اتحدث عن المادة التي درّستها سنوات عدة ، وحاولت ان اقربها الى الطلبة ، واعدت فيها التجارب ونوعتها وحصلت على نتائج متفاوتة من سنة الى اخرى ومن فئة طلابية الى اخرى ...

إن لمادة النحو اهمية كبيرة في تكوين المتعلم ولاسيما الطالب في الاقسام اللغوية والادبية وبقية فروع العلوم الانسانية . فهي ميزان القوة والضعف في بيئة المتعلمين . واول ما يظهر الضعف يظهر على لسان المتكلم . ومن هنا كان الخطأ في النحو اول ما يلاحظ ، ولكن ما قيمة الدرس النحوي اذا كان هو يعلم الصواب والمواد الاخرى تهدمه ؟

يرمى النحو بكيل واف من التهم دونما وجه حق ، وهي تنم على جهل بما في الانحاء من جفاف في كل لغات العالم ، ولو التقى المختصون دوريّا لدراسة قضايا النحو وتبادلوا الرأي فيه ، وقدّموا التجارب ليستفيد بعضهم من بعض لما كانت هذه الحال في بلادنا . وان الامر لجد خطير اذا لم نستدرك اوضاعنا التعليمية والعلمية .

اود ان يكون هذا البحث إثارة علمية لحوار جاد يتواصل في المستقبل ، ويشارك فيه المؤهلون من اساتذة وباحثين ، ويقدمون افضل ما يرون في تدريس مادة النحو العربي . واننا لا ندعو الى تغيير حقائقها ابدا إنما كل ما ندعو اليه هو تيسير الطرق والاساليب التي تتعاطاها بها بدءا من صياغة المادة وشواهدها ونحاول ان تكون قريبة من الحياة المعاصرة وان نلزم الطالب أن تكون تلك القواعد على لسانه دائما لتصير لغة طبيعية . وهذا امر موكول لكل الاساتذة بأن لا يسمحوا لانفسهم ولا لطلبتهم التحدث بغير العربية الصحيحة . ويكفي ابتذالا من قولنا : لا يهمنا إلا الفكرة !.

إن عملنا هذا لا يتعدى ان يكون إشارة الى مدخل منهجي لتدريس المادة داعيا الى اعادة تصنيف الكلمات صرفيا وتوزيعها وظيفيا بحسب دور كل كلمة في الجملة ويقلل من سلطان الجوازات والاحتمالات ، وان يتعامل مع العلامة الاعرابية بصفتها ظاهرة صوتية (وليست خفيّة) تستوجبها العلاقات النحوية للتمييز بين الوظائف داخل كل تركيب . وما علامات الاعراب إلا ثلاث : الضمة للاسناد وتوابعه والكسرة للاضافة والفتحة لما عداهما[٢].

واذا عدنا الى البحث عن عوامل نشأة النحو العربي ألفيناها ثلاثة : علمية واجتماعية وحضارية . وفي مقدمتها ظاهرة اللحن الذي بدأ يشيع على الالسنة بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الامم الاخرى الذين اسلموا . واللحن يتجلى في الاعراب اكثر من غيره لذلك استقر في الاذهان از اللحن هو مخالفة حركة آخر الكلمات بما لا يوافق سمت كلام العرب .

إن الاعراب من اخص خصائص العربية ، ولا مندوحة عن اعتماد حركاته للتمييز بين الوظائف النحوية في العموم وإلا كان المنطوق ضربا واحدا لا يتبيّن اذا تماثلت الاشكال . وكيف لا ؟ والاعراب فرع المعنى كما يقال .

لقد نشأ النحو العربي في رحاب النصّ القرآني ومن اجل خدمته تلاوة وفهما ، وما لبث ان توسعت دائرة الاهتمام اللغوي ، فشملت النص الادبي عموما ، والنص الشعري خصوصا فكان تعليميا بالدرجة الاولى لتحقيق رغبة المسلمين في بلوغ المماثلة الاجتماعية . واللغة من اكبر الحواجز بين فئات المجتمع . ولما توسعت مجالات البحث اشتد التنافس على مقام الصدارة العلمية بين ابناء الامة الواحدة ، فنبغ منهم أئمة في كل علم .

---

(٢) « فالعربية لغة إعراب ، وهو الذي يؤدي ما بين المعاني من فروق ، ويعني ذلك ان الوظائف النحوية من فاعلية ومفعولية واضافة وغيرها في الجملة ناتجة عن الاعراب . يضاف الى ذلك ان القيمة الاعرابية للكلمة ووظيفتها تتأكد وتثبت بموقعها من الجملة » . محمد المنجي الصيادي ، التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، مكتب دراسات الوحدة العربية ، بيروت ص ٤٨٢ .

لا جرم إن بدأ النحو ضبطا للنصوص وتقويما لالسنة المتعلمين الذين قصرت بهم سليقتهم ، ثم تدرّج في التحليل والتعليل الى ان وصل الى نظريات تجريدية يتبارى فيها المتخصصون ، فأسّست مدارس مختلفة في رؤاها ومناهجها وذلك شأن كل العلوم •

من هنا كان للنحو مستويان : مستوى تعليمي ومستوى تخصصي ، وهما في التراث حشد واحد من القوانين والقواعد التي استنبطها العلماء من لهجات القبائل العربية مجتمعة : شعرها ونثرها • ومن القرآن الكريم وقراءاته المختلفة ، وصبّت على شاكلة واحدة • فظهرت ما يمكن ان تسمى بالقاعدة النمطية التي هي القاسم المشترك بين الناطقين بلغة واحدة • ولكنها مذيّلة بما خرج عنها • فقالوا : لغة شاذة او رديئة او ضرورة شعرية ••• الخ • فنتج خلط بين ما يتعلمه الناس لعصمة ألسنتهم من الخطأ على وفق الكلام العربي ، وما هو تحليل لظواهر اسلوبية تفرّد بها شاعر من دون خلقه ، او ما هو تفسير لآية قرآنية ركبت باسلوب معجز يتحدى فصحاء العرب • فما هذا إلا تميّز خاص لا يمكن ان يصير عاما متبعا ولو درّسناه ابد الدهر : قال سيبويه : « وليس شيء يضطرون اليه إلا وهم يحاولون به وجها • وما يجوز في الشعر اكثر من ان اذكره لك ههنا »[٣]•

إن موروثنا النحوي يتضمن القواعد العامة للكلام العربي ، كما يتضمن إشارات تحليلية لنصوص قرآنية وشعرية وغيرها يمكن ان يطلق عليها النحو الجمالي او الاسلوبي او يطلق على بعضها النحو الاحتمالي او الجوازي ، والاستحالي وغيرها من مستويات الانحاء • ولكن ما يحتاج اليه المتعلم في مراحله الاولى من التعليم هو القواعد النمطية المشتركة التي يستعملها كل المتكلمين بلغة واحدة في حياتهم الاجتماعية تواصلا وإبلاغا • ثم يحتاج

---

(٣) الكتاب ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، دار الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ • ج١ ص ٣٢ •

بعضهم ــ اذا ارتقى ــ الى نحو متخصص يرتكز على السابق ، وهو افيد الى طلبة اللغاب والآداب ، فيبيّن لهم الوجوه التي تفرد بها القرآن الكريم او عدل اليها بعض الشعراء او القبائل ، فينشأ من ذلك كله منهج في النحو الاسلوبي يعتمد تحليل الظواهر لا تقعيد القواعد ، ويبيّن المظاهر التي تفردّ بها هذا او ذاك مما يعد نتاجا فرديا لا يرقى الى التعميم . اذ لا يعمّم الا ما كان نتاجا جمعياً يفرض قوانينه على الجميع .

اشتغل نحاتنا بقرينة الاعراب ، وهي ليست القرينة الوحيدة بصفتها اثرا صوتيا يحدثه مؤثر اطلقوا عليه مصطلح (العامل) ، وألفوا كثيرا من الكتب في العوامل التي بلغ عددها عند الجرجاني (مائة) . وهكذا بني نحونا على نظرية العامل وهي مفيدة في جوانبها التعليمية ولكن دونما إيغال فيها او مغالاة في تطبيقها وتعميمها من نحو التنازع والاشتغال ... وحددوا للاعراب محلا فكان ماله محل وما ليس له محل ، واضطرب المتعلم في التفريق بينهما طويلا ، وما كانت الحاجة تدعو اليه ولا الى الاعراب التقديري والمحلي ــ والفكرة افتراضية ــ فليس من النجاعة التربوية تعميمها .

إنهم لاحظوا ظهور علامات الاعراب ظهورا كاملا فقالوا الاسم المتمكن الامكن او المنصرف وظهورا جزئيا فقالوا المتمكن او غير المنصرف ويقابلها المبنيات عندما تلازم حالة واحدة . فالحركات الثلاث لا تظهر على المقصور للتعذر ولا على المضاف الى ياء المتكلم لاشتغال المحل . ولا تظهر الضمة ولا الكسرة على المنقوص للثقل .. الخ فما فائدة تقدير العلامة الاعرابية بالنسبة الى المتعلمين ؟ ألا تراهم يثقلون ألسنتهم بتدريبات تقنية لا تقوّم ألسنتهم ؟

إن الوظيفة النحوية تدل عليها عدة قرائن منها حركة الاعراب والرتبة وبنية الكلمة وغيرها من القرائن . وما الاعراب الا ظاهرة صوتية تتغير من

حال الى حال بسبب العلاقات السياقية بين ضمائم التراكيب • فاذا انعدمت بسبب وضعي كالمقصور مثلا او صوتي كالمضاف الى ياء المتكلم فما فائدة تقريرها ؟

في الواقع هو تقدير مفترض (لوجود معدوم اصلا) لا يتصور إلا في الخيال • واللغة مادة لفظية وإعرابها ظاهرة صوتية فلا حاجة بالمتعلم لان يبحث عنها ، ولا ان يلزم نفسه ذكرها ، لانها لا تقوّم لسانه ولا تصوّب اعوجاجه •

اراد نحاة البصرة ان يكون لقواعد النحو من الاطراد ما يعصم الالسنة من الخطأ ، وما يبعدها عن التوسع والتحرر • وما خرج عما قرروه اسقطوه من هيكل النحو ، وحكموا بشذوذه ورداءته ، او قاموا بتوجيهه ما شاء لهم التمحل في التعليل ، ولو عالجوه في إطاره الاسلوبي لما وقعوا في الخصومة بينهم وبين الشعراء ــ وقصصهم مشهورة في كتب الادب واللغة ــ ومنهم ابن ابي اسحق الحضرمي[٤] وتلاميذه الذين ارادوا ان يلزموا الشعر قواعدهم التي استنبطوها بالاستقراء من الكلام العربي • ألم يعلموا انها قواعد قياسية للمتعلم ؟ أمّا الشاعر فدأبه ان يتجاوز هذه الانماط الموصوفة في الكتب ، ويحاول دوما كسر القيود ! فيسوقه طبعه وموهبته الى مخالفة المألوف ليتفرد في الابلاغ •

---

(٤) هو عبدالله بن ابي اسحق مولى آل الحضرمي اول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل ، وكان مائلا الى القياس في النحو . اعترض على شعر الفرزدق لمخالفته وهجاه الفرزدق . توفي سنة (١١٧هـ) . انظر ، الزبيدي (٣٧٩هـ) طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار المعارف، القاهرة ط ٢ ، ١٩٨٤، ص ٣١ ، ٣٢ . والسيرافي (٣٦٨هـ) اخبار النحويين البصريين ، تحقيق محمد ابراهيم البنا ، دار الاعتصام ، ٢ ، ١٩٨٥ ، القاهرة ، ص ٤٤ ، ٤٥ . ومن تلاميذه عيسى بن عمر الثقفي . وقد كان يرد بعض الشعر كقول النابغة :

فبتّ كأني ساورتني ضئيلة ... من الرّقش في انيابها السم ناقع

وقال الصواب ان يكون (في انيابها السهم ناقعا) . وكان يميل الى النصب كلما وجد الى ذلك سبيلا . توفي سنة ١٤٩ هـ . ينظر طبقات النحويين ص ٤٣ ، ٤٤ .

إننا اذا اقتنعنا بأن للشعر اساليبه ودروبه ومناهجه ونقاده كان افضل لأبناءنا لينهضوا بلغتهم . وطلبتنا لن يتمكنوا من استيعاب (نحو الشعر) وكل اساليبه . فهي مظاهر خاصة بالابداع ولا تلميذنا بقادر على ادراك (نحو القرآن) ... فكل ذلك إجهاد لذهن المتعلم وتبديد لجهوده . فليس بمقدور كل الناس ان يعرفوا ذلك ويتمثلوه ، وان ينطقوا بمثله ابدا .

هذه هي البصرة التي حصرت النحو في قواعد مستقرة الى حد ما ، وامتاز شيوخها بالتشدد في القياس ، ولم يدونوا إلا ما تفوّه به الفصحاء من العرب وثبت اطراده . غير انهم في مقابل هذا المنهج التعليمي افرطوا في تخريج ما خالف قواعدهم وتعسفوا في التقدير كثيرا وجعلوه من سنن النحو ، فلو لم تتمكن من معرفة الحركة المقدرة ، وعلة خفائها لعدّ ذلك ضعفا نحويا يذم به المتعلم . وصار من العسير التخلي عن هذا الاطار الصارم ، واستحال تعديله ضربا من المغامرة الفاشلة في بيئة المدّرسين وكادت المقولة تصدق فينا ، وهي : إن النحاة العرب لم يعودوا قادرين على تجديد مادتهم .

إن ما يوجد من صلة افتراضية بين النحو وعلاماته الظاهرة وتقدير المعدوم منها والتخلي عن هذا او عن بعضه في الاقل في المرحلة الاولى من شأنه ان ييسر دراسة النحو للمتعلمين ، كما يصبح التخلي عن لغة الشعر ضرورة تعليمية تقتضيها اوضاعنا في هذه المرحلة . ونحاول ان نقدم تلك المسائل المختلفة من قضايا نحوية في الشعرمثلا فياقسام متخصصة جدا ، ويمكن ان ندرجها ضمن مواد اخرى كالاسلوبية او نظريات الشعر او لغته ... المهم ان ندرك انها ليست من مادة قواعد النحو التي تدرس فيها الانماط العامة التي يشترك فيهاكل المتكلمين . وهذه الفكرة يجسدها قول ابي عمرو بن العلاء حينما سئل : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال :

اعمل على الاكثر واسمي ما خالفني لغات »[٥] • وعلى العموم يمكن ان نقول: ان النحو قدّم بعض الحلول النظرية لبعض الحالات او الظواهر الاسلوبية وبعض التوجهات العملية التي تمكن من تلوين االتعبير • وموضعها الحقيقي ان تكون في إطار تحليل النص الشعري •

يحق للدارس ان يسأل : ما الفرق الذي يمكن ان يلاحظه المتعلم من الناحية الشكلية بين الانواع المذكورة لاحقا ؟

إن الممنوع من الصرف لا ينون ولا يجرّ بالكسرة ، وجمع المؤنث السالم لا ينصب بالفتحة ، والمنادى المبني على الضم لا ينون ، وكذا اسم لا النافية للجنس لا ينون ، وجمع المذكر السالم يرفع بالواو واذا نودي بني على الواو ، والفعل المضارع من الافعال الخمسة علامة جزمه حذف النون والامر مبني على حذف النون •

لا شك في ان هذه الابواب النحوية وغيرها مما يماثلها بات من الضروري مراجعتها لا لتغيير حقائقها ولكن لتسهيل تعاطيها وتلقيها ، فيعاد النظر في توزيع حركات الاعراب فيها • فما يضر العربية اذا قلنا : إن المنادى لا ينوّن مثل الممنوع من الصرف ، ويمكن ان يكون هو نفسه في التركيبين كجاء احمد ويا أحمد • فالاول نقول عنه فاعل مرفوع والثاني منادى مبني على الضم والاسم واحد والعلامة واحدة • فما اشدها على ذهن المتعلم ! وكذا قولنا : جاء المعلمون ويا معلمون • فالاول مرفوع بالواو والثاني مبني على الواو • هذه حالنا مع قواعد لغتنا التي نريد لها ان تكون لسان طلبتنا بل لسان مجتمعنا ؟!

---

(٥) هو زبان بن العلاء التيميّ المازني اخذ عن ابي اسحق وكان اوسع علما بكلام العرب ولغاتها ، وهو احد القراء السبعة وإمام البصرة فيها . توفي سنة ١٥٤ هـ . ينظر طبقات النحويين ص ٣٥ .

يبدو ان التناقض واضح جليّ في هذا وفي مثله من الابواب النحوية ولا ضير إن اعيد النظر في توزيع الحركة الاعرابية وفي تحديد الوظيفة النحوية • فما ندعو اليه لا يغير من المنادى ولكن يغيّر في منهج تفسير حركته• ولا من حقيقة جمع المذكر او المؤنث او غيرها •

قد سبق القول : إن النحو علاقات سياقية تربط بين ضمائم التركيب التي تختلف حركتها الاعرابية بسبب الوظيفة التي تؤديها في صلب التركيب • فان كان لها دور احد ركني الاسناد كانت مرفوعة ، وان كانت مضافة بالحرف او الاسم كانت مجرورة وما عداهما من الوظائف فتكون الكلمة منصوبة • وقد تطرأ عليها اوضاع تحويلية فتتغير حركتها الاعرابية تبعا للمعنى او العامل اللفظي • وما ظهر من حركات الاعراب ذكرناه وما لم يظهر منها وكان منعدم الحركة بسبب وضعي كالمقصور والمبني او بسبب صوتي طرأ على الكلمة كالمضاف الى ياء المتكلم فلا حاجة الى تقدير حركته وبمعنى أصح من المفيد ان تلغى فكرة الاعراب التقديري والمحلي فانها فكرة صناعية نظرية • فما قيمة ان يقول المعرب فعل ماض مبني على الفتح او السكون ، وفعل الامر مبني على السكون او على حذف النون او حرف العلة ••• لان ورود الفعل بتلك البنية تمطي لا يتصور المتكلم ولا السامع غير هذا • وهل يخطىء متعلم في حركة اسم الاشارة بسبب من حركة بنائه (مبني على السكون او على الكسر) •

كما تلغى الفكرة التي تقسم الجملة على نوعين : فعلية واسمية التي تخضع كل تركيب الى هذا التقسيم الثنائي ، فيخرج التعجب والاختصاص والاستثناء والمدح والذم والتحذير والاغراء والنداء ••• فهذه تندرج في لغة الوجدان التي يعبّر بها المتكلم عن احاسيسه فتؤدي وظيفة ابلاغية سريعة تتجاوز قواعد الاعراب المعهودة ولعلها لم تتقيد به قطّ • قال سيبويه في مثل قولك : ما احسن عبدالله • « زعم الخليل انه بمنزلة قولك : شيء احسن

عبدالله ، ودخله معنى التعجب . وهذا تمثيل ولم يتكلم به »[٦] . والمؤسف أن الاعراب كان على تمثل ما لم يتكلم به .

في نهاية حديثنا تتخذ المنادى نموذجا نبيّن فيه وجهة نظرنا ونخالف رأي الاقدمين في كونه مفعولا به لفعل واجب الحذف . ولو اننا اظهرنا الفعل الذي قدروه من مثل انادي او ادعو ... لتحول الانشاء الى الخبر ، والنداء لا خلاف في إنشائيته ، والفعل يغيّر من وظيفة النداء من حال الخطاب الى حال الغياب . وما دفعهم الى هذا التقدير قصور لفظي او معنوي . وانما دعتهم اليه اضطرارا الصنعة النحوية في تفسير حركة المنادى . فهو ليس بفاعل ولا مجرور فما بقي إلا المفعول به ! وما الناصب له إلا فعل ؛ لانه اقوى العوامل ، يعمل متقدما ومتأخرا ، مذكورا او محذوفا . ولو انهم اتبعوا الخليل في تفسير حركة المنادى[٧] لاستغنوا عن هذا التقدير الاضطراري .

إن المنادى منصوب ما عدا المفرد المعرّف بالعلمية او بالقصد فانه يرفع بلا تنوين ليخالف المرفوع بالاسناد (المبتدأ والفاعل ...) فالنكرة تفيد

---

(٦) الكتاب ج١ ص ٧٢ . وسار المعربون على مر العصور على تصور ان شرح الخليل اعراب فقالوا : ما احسن عبدالله : جملة اسمية . ما مبتدأ ، واحسن فعل ماض جامد والفاعل ((/) تقديره هو) وعبدالله مفعول به . والجملة الفعلية (احسن عبدالله) خبر المبتدأ الذي هو (ما) . اني أتصور انها صناعة دعت اليها الضرورة . ولو قالوا : (ما) اداة تعجب (احسن) صيغة تعجب مفتوحة و (عبدالله) متعجب منه منصوب ، وكفى . وتكون القاعدة ان جملة التعجب تتكون من ثلاثة اركان : اداة تعجب ومتعجب منه وصيغة تعجب .

(٧) « قال الخليل رحمه الله : اذا اردت النكرة فوصفت او لم تصف فهذه منصوبة لان التنوين لحقها فطالت ، فجعلت بمنزلة المضاف لما طال نصب ورد الى الاصل كما فعل ذلك بقبل وبعد » . الكتاب ٢/١٩٩ . فمذهب الخليل في نصب المنادى ـ المضاف والنكرة ـ هو قياسه على قبلك وبعدك او قبل وبعد .

الشيوع والتعميم وكذا الاعلام فأنها قد تشترك في اسم واحد • والنداء يعيّن احداها لانه حال خطاب • واذا وُصل المنادى بما بعده ردّ الى اصله أي : النصب • ويجوز في تابع المنادى النصب على الاصل والرفع على اللفظ •

والنتيجة ان المنادى احد المنصوبات ، وهي كثيرة في العربية ، وليس بلازم ان تكون كل المنصوبات معمولة لفعل • وهو حال خطاب « مختص من بين امته لأمرك ونهيك او خبرك »(٨) ويرفع بلا تنوين اذا كان مفردا معيّنا وعدم التنوين سبب وضعي يلحق الممنوع من الصرف ، كما انه سبب تمييزي يلحق المنادى ، وما اختلاف حركات الاعراب للمناديات إلا لاختلاف انواعه •

هذه محاولة اولى اردناها خالصة للغتنا ولا شك في انها تحتاج الى حوار جادّ يصوّب ما جنح منها ، واذا تيسر لنا الامر في المستقبل طرحنا نماذج اخرى ابتغاء تسهيلها للمتعلمين ، راجين من المشتغلين بهذه المادة ان يقبلوا إعادة النظر في قواعدها بمنهج يقرّبها الى هذا الجيل الذي نعلق عليه آمالنا في ان يحمل لواء العربية في بلادنا •

---

(٨) ذهب الكوفيون الى الاسم المنادى المعرف المفرد معرب مرفوع بغير تنوين ، وذهب الفراء من الكوفيين الى انه مبني على الضم وليس بفاعل ولا مفعول . ابن الانباري (٥٧٧ هـ) ، الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، تصحيح محمد محي الدين عبدالحميد دار الفكر ج١ ص ٣٢٣ .

الفكر الاقتصادي العربي المعاصر

الدكتور محمود خالد المسافر

يعرف الفريد مارشال علم الاقتصاد بأنه « دراسة للبشرية في شؤون حياتها العادية » ، ومن ذاك كان الاختلاف في الفكر الاقتصادي ، على عموميته ، يستقي محتواه من الاختلاف في التوجهات الانسانية ، ومن الاختلاف بين الهياكل والطبقات الاجتماعية المتنوعة ، لكنه في ذات الوقت يؤكد اهمية الفكر الاقتصادي في حياة الشعوب والامم ، بوصفه معبرا اساسيا لتوجهات المجتمعات الفكرية ولتطور البنية القيمية لها .

ويتهم بعض الاقتصاديين والمفكرين علم الاقتصاد بان ليس له منهج فاعل ولا نتائج مقبولة او جديرة بالقبول عالميا ، ويضعون لذلك اسبابا ، تكمن في عجز علماء الاقتصاد عن ان يتفقوا على ما يؤلف منهجا علميا مقبولا ، او بسبب إن الموضوعات التي يعالجها علم الاقتصاد ذات علاقة وثيقة بالحقوق المكتسبة وبالصراع الطبقي في المجتمع ، بحيث يجد معظم الناس من الصعوبة النظر بنزاهة الى اية نتيجة علمية ، فلا يحبذونها او يرفضونها إلا تبعا لما يبدو من انسجامها مع ميولهم اولا . ولا يبتعد الاقتصاد العربي ولا منظروه ودعاته كثيرا عن وضع منظري الاقتصاد الغربي . ولكن مما يزيد الفكر الاقتصادي العربي تعقيدا ان البنية القيمية التي يستند اليها المجتمع العربي ، لا تجعل الاقتصاديين احرارا في تبني افكار او ابتداع رؤى اقتصادية لا تسير على خط واحد وتلك البنية القيمية . وحتى لو اراد اولئك الاقتصاديون ان يتمردوا عليها من خلال تبنيهم لافكار وطروحات خارجية ، غربية كانت ام

شرقية ، إلا انها لن تجد الصدى المطلوب لجعلها شعبية او عامة ، مما يبقيها اسيرة التداول بين فئات معينة من المجتمع ، وحتى لو وجدت هذه الافكار احيانا ، مستنيدة من التشابك بين المنظومات الفكرية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفلسفية ، فسحة زمانية ومكانية اكثر اتساعا مما تؤهله المنظومة الفكرية الاقتصادية المجردة ، إلا انها كذلك لن تجعلها مستمرة او مستديمة ، او على حد قول بعض اهل السياسة مبدئية وثابتة .

وكان الفكر الاقتصادي العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين أسير تطورات الفكر السياسي ، فكان تابعا له وليس قائدا او حتى موازيا ، كما هو حال هذا الفكر في المجتمعات الغربية . وليس ادل على ذلك من إن الفكر الاقتصادي العربي المعاصر انقسم على نحو واضح الى قسمين ، احدهما ، فكر رأسمالي وآخر اشتراكي ، استجابة للصراع السياسي بين القطبين المعروفين آنذاك . وفي الوقت الذي انقسم فيه الفكر الاشتراكي الى ماركسي وغير ماركسي على وفق التصنيف السياسي ، لم ينقسم الفكر الرأسمالي ، كما هو حاله في بلدانه الاصلية ، الى فكر كلاسيكي وكلاسيكي جديد وتدخلي كنزي ، بل الى المدارس الجديدة المتوالدة عن تلك الافكار مثل التوقعات العقلانية ، واقتصاديات جانب العرض وغيرها من فروع الفكر الرأسمالي . ويعود السبب في ذلك الى عدم وجود تصنيفات سياسية للاصناف الفكرية الرأسمالية ، كما هو حال الاصناف الاشتراكية ، حتى ان من يتبنى الفكر الرأسمالي يصبح جائزا عنده تبني اي من الافكار الرأسمالية المذكورة ، بل يمكن ان يتبناها جميعا ، ليختار منها ما يشاء ، وفي ذات الوقت الذي تتعارض في الغرب المدارس الرأسمالية لتصل الى حد التناقضات العميقة بينها . لكن هذه الخلافات لا تجد الصدى نفسه في المجتمع العربي .

على الرغم من إن الوطن العربي لا يكوّن في واقعه الموضوعي وحدة اقتصادية واحدة ، ومن ثم فأنه يصعب توصيف اقتصاد عربي واحد بل يمكن توصيف مجموعة اقتصادات عربية ، التي قد تكون متشابهة في بعض حلقاتها • إلا انه يمكن تصنيف ما يدعى فكرا اقتصاديا عربيا ، وذلك لتشابه الاسس والمنطلقات لذلك الفكر ، ولوجود حلقتي الزمان والمكان اللتين تربطان المتناثر من اجزائه وان اختلفت •

وعلى الرغم من أن بعضهم (كما هو حال الدكتور محمود عبد الفضيل) يرجع اساسيات الفكر الاقتصادي العربي بوصفه فكرا علميا منضبطا له هوية مميزة ، الى القرن الرابع عشر الميلادي ويستدل في ذلك من خلال نموذجين ماثلين في كتابات ابن خلدون والمقريزي • إلا إن حقيقة الامور تدعو الى التأني في قبول هذا الرأي • ذلك ان اولئك الفلاسفة والكتاب الاجتماعيين العرب كانت منطلقاتهم النظرية محسومة ، وذات اتجاه واحد معروف متفق تماما مع الفكر الاسلامي في جميع اتجاهاته • وحتى يكون الفكر الاقتصادي العربي موضوع الدراسة ، وهو الفكر الاقتصادي العربي للنصف الثاني من القرن العشرين ، استمرارا لفكر اولئك الكتاب ينبغي ان تكون لهم المنطلقات والثوابت نفسها • ولما كان ذلك غير متوفر ، إذن لا يمكن الجزم بان الفكر الاقتصادي العربي تطور من أبن خلدون حتى وصل الى سمير امين مثلا ،ففي ذلك إجحاف بحق الاثنين • وعندما يحاول بعضهم اعتبار ابن خلدون اقتصاديا ويستدلون على ذلك بكتاباته عن ظواهر القيمة وتقسيم العمل والنمو الاقتصادي والتضخم ، او إطلاق هذه الصفة على المقريزي ايضا بالاشارة الى كتاباته عن الظواهر النقدية والدورات والازمات الاقتصادية ـ وعلى الرغم من ان ذلك السبق يحسب لهما ـ إلا إن ذلك لا يعني إن الاقتصاديين العرب المعاصرين هم امتداد لاولئك ، لمجرد انهم درسوا

الظواهر ذاتها • من غير اعتبار لطريقة اخذهم للظاهرة والمعايير والمقاييس المستخدمة لحل مشكلاتها ، بل الاهداف الكامنة وراء الرغبة في حلها ، وألا لكان ممكنا عندها ان نقول إن فكر كارل ماركس امتداد لفكر ابن خلدون ، وان كنت انا ممن يعلنون باستمرار ان ماركس استقى الكثير من افكاره ممن سبقوه من علماء الاجتماع العرب •

ومن هذا الذي سبق ، وعلى نحو بسيط ، فأننا سنقدم رأينا في اتجاهين واضحين في الفكر الاقتصادي العربي خلال النصف الثاني في القرن العشرين ، وانا اؤكد هنا ان هذين الشقين في الفكر الاقتصادي لا يمتازان كثيرا بالاستقلالية وان ادعى مريدوهما عكس ذلك •

الشق الاول : التخلف والتبعية (نظرية المحيط والمركز)

عاش الوطن العربي في الحقبة الزمنية التي سبقت المرحلة المدروسة ، وكغيره من دول الجنوب ، تحت وطأة الاستعمار ، وعانى من النهب الاستعماري لخيراته وموارده ، وتتابعت على وطننا العربي الكبير حملات المستعمرين برتغاليين واسبان وإيطاليين وانجليز وفرنسيين وغيرهم ، ولم يسلم من اجزائه إلا تلك التي اطبقت عليها الدولة العثمانية مثل العراق والشام والجزيرة العربية ، حتى سقوطها بعد الحرب العالمية الاولى فأصبحت هذه الاخرى نهبا للمنتصرين في الحرب •

ولما كان الفكر الانساني ينبع استجابة لواقع المجتمع وحاجاته ، فقد تركز الفكر العربي عموما في مفاهيم الظلم والاستبداد والتمييع الاجتماعي والفرنسة وغيرها ، واصبحت هذه المفاهيم سمة واضحة للفكر العربي ، وورث الفكر الاقتصادي العربي تلك الرؤى والمفاهيم وتبناها استجابة طبيعية لواقع المجتمع الذي انبثق منه • إذ شهد اقتصاديو تلك المرحلة عملية إعادة تقسيم العمل الدولي لصالح المراكز الاستعمارية المنتصرة في الحرب على حساب

المستعمرات • فساد الاعتقاد المبني على اساس الصراع بين الامبريالية والقوى الوطنية •

وليس خافيا على احد ان هذا النوع من الصراع استقى جذوره الفكرية من المنهج الالماني ، وفي كتابات لينين في بداية القرن العشرين ، لاسيما كتابه « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » الذي نشر عام ١٩١٦ • وهنا ينبغي التنويه الى اننا لا نعتقد إن كل من آمن بالصراع بين الاستعمار والقوى الوطنية يعد منتميا الى المنهج الالماني المادي او لخلفه المنهج اللينيني •

إننا نريد ان نعيد كل فكر الى جذوره • لان هناك من الاقتصاديين العرب من تبنى فكرة الصراع تلك وهو يقف بالضد ـ او في الاقل يصرح بذلك ـ من المنهج الالماني أو الشيوعي اللينيني •

فتبنى الكثير من الاقتصاديين العرب (الذين يمكن تصنيفهم على وفق المفاهيم السياسية بخط اليسار) تلك المفاهيم التي مفاد ملخصها ، ان العالم ينقسم الى مركز Center ، والى محيط أو تخوم Peripheries التي لم يكن مبتدعها عربيا مسلما ، ولكن ماركسيا امريكيا لاتينيا ، وهو الاقتصادي الارجنتيني راؤول بريبش ، الذي عمل سكرتيرا تنفيذيا للجنة الاقتصادية لاميركا اللاتينية التابعة للامم المتحدة في عام ١٩٤٩ • وكانت خلاصة تحليلية لواقع الصراع في العالم ، هي ان هناك جزء من العالم يتكون من مركز للنشاط الاقتصادي هو الولايات المتحدة الاميركية ، يسيطر ويوجه ويؤثر ، ومن اطراف وتخوم ، هي بالذات دول اميركا اللاتينية ، تتحرك في فلك ذلك المركز ومحكومة بحركته ، متأثرة بها ، ومتجهة دائما لخدمة مصالحه تماما • دعم الكتاب الماركسيون انذاك ، ومنهم اندريه جندر فرانك وسمير امين ، فكرة بريبش تلك على الدول المتقدمة كلها ، ناظرين اليها بوصفها مراكز والى دول العالم الثالث كلها آنذاك ، بوصفها تخوما او اطرافا • مؤكدين ان نموذج النمو في التخوم يختلف جوهريا عنه في القلب ، فهو في

المركز (أو القلب) نمو ذاتي ، في حين انه دائما متجه الى خدمة المصالح الخارجية في دول التخوم .

وقد تأثر بهذه النظرية العديد من اقتصاديي المغرب العربي (ماركسيين وغير ماركسيين) . نظرا لتوافقها وتناغمها مع حالة الصراع الذي عاشه المغرب العربي مع المستعمرين . ثم انتقلت هذه الافكار الى جميع انحاء الوطن العربي ليتبناها الاقتصاديون من الوطنيين والاحرار ، ولكن من دون الخوض كثيرا في اصول تلك النظرية ومن دون تحديد من هو المركز ومن هم الاطراف ، بل تحول الصراع من صراع حقيقي الى شعور بوجود الصراع، حتى بعد تحرر الدول العربية واستقلالها جميعاً .

ومما ساهم كثيرا في رواج تلك النظرية والاعتقاد بنجاح الاخذ بها في طريق التحرر من قبضة الاستعمار الاقتصادية ، نجاح بعض التوجهات الوطنية في بعض الدول العربية ، على سبيل المثال تأميم قناة السويس في مصر . وظهور التيار الناصري فيها وانتشاره الى بعض الدول العربية .

وانقسم رواد هذه النظرية في طريقة التعامل معها ، الى راغب في الانفلات منها من خلال تقليص علاقات التبعية والاعتماد على النفس او الذات في تنمية الاقتصاد الوطني ، ولكن من دون ان يؤدي ذلك الى الانغلاق الكامل اعترافا منهم بحاجتهم تقنيات دول المركز وعلومها وخبرتها . والى راغب في إجراء تغيير للواقع السائد بعلاقات التبعية من خلال محاولة إعادة صياغة تلك العلاقات على وفق اساليب جديدة عن طريق أعادة تقسيم العمل الدولي ، بحيث يعاد توزيع الصناعات والانشطة الاقتصادية بين المركز والمحيط ، وان يكف المركز عن احتكاره للتقنيات مقابل ان توفر التخوم المواد الاولية والوسيطة للصناعات المهمة في المركز .

وكان هؤلاء الاقتصاديون هم الذين شاركوا زملاءهم في دول العالم الثالث بالدعوة عام ١٩٧٤ الى إنشاء نظام اقتصادي دولي جديد مبني على اساس من المصالح المتبادلة بين دول العالم المتقدم وباقي دول العالم .

وعلى الرغم من الثناء الذي يمكن ان يذكر في هذه النظرية ، من حسن تحليل ومبدئية في الموقف وغيرها ، إلا اننا نظل نقف امام اغتراب واضح للفكر الاقتصادي العربي ، وانقياد بيّن لفكرة اصلها لا يمت بصلة الى واقع البنية القيمية للمجتمع العربي ، ولواقع وحقيقة وإرهاصات الصراع بين العرب المسلمين واعدائهم ، التي تكشفت اليوم لتتجاوز ما ذُكر مَن صراع بين مركز واطراف ، او صراع بين قوى الانتاج . إنما حقيقة هذا الصراع هو صراع بين فكر مقتبس من وحي الله ، عام ، شامل واسع، شفاف، واضح وبيّن، وبين فكر ضيق لا يستند الى اي اساس سوى اساس مادي يخدم مصلحة فئة معينة من الناس والمجتمعات على حساب الاخرين . فتحول هذا الصراع الى صراع بين العرب حاملي ذلك الفكر وبين حاملي الفكر الضيق المقابل بكل تقسيماته المعروفة ، فهو إذن صراع حضاري .

الشق الثاني : التيار الليبرالي العربي

ميز الفكر الاجتماعي الفلسفي نوعين من الليبرالية هما :

١ ـ الليبرالية القائمة على المساواة في توزيع المنافع الاقتصادية والاجتماعية فضلا عن المساواة امام القانون . ويعرف هذا النوع من الليبرالية باسم Egalitarian Liberalism .

٢ ـ الليبرالية المرتبطة بالنظام الرأسمالي المادة والسوق الحرة وتعرف باسم Libertarianism، ويؤكد هذا النوع المساواة تجاه القانون من جهة ، وعدم المساواة المادية من جهة اخرى .

ويتبنى الرأسماليون المفهوم الثاني في حين يعتقدون ان المفهوم الاول افلاطوني لا يمكن تطبيقه . واذا ما اخذ بنظر الاعتبار إيمان الليبراليين الرأسماليين بمبدأ التراكم بوصفه طريقا وحيدا لزيادة الاستثمار والتطوير والابتكار ، أمكن حينها التوصل الى ان الفكر الحر السائد منذ ثلاثة قرون لا يمت الى المذهب الليبرالي الفلسفي الاول بأية صلة . والطريف ان المدخل الذي استخدمته الايادي الليبرالية للوصول الى العقل الانساني في دول العالم الثالث هو النوع الاول ، وليس الثاني ، حيث الاعتقاد بكرامة الفرد وحريته في استغلال اقصى قدراته ، والفرص المتاحة امامه بحسب فلسفة حياته ، ولكنه يخضع لشرط واحد فقط هو عدم التدخل في حرية الاخرين ، وحتى تختبر الناس ما هو مطبق فعلا ، تكون قد أوغلت في الليبرالية ايغالا ، ولن تتوفر حينها اية فرصة للفكاك .

وتطورت مفاهيم الليبرالية وتطبيقاتها عبر مسيرة النظام الرأسمالي من الليبرالية المفرطة منذ عهد آدم سمث ، الى الليبرالية المعدلة حين حاول جون ماينارد كينز التخلص من مشاكل الكلاسيكية ونقاط ضعفها . ثم تطورت الى الليبرالية المصممة التي حاول مصمموها مزاوجة الكلاسيكية بالكينزية تخلصا من المشاكل التي تمثلت بالتضخم الركودي ، وصولا الى الليبرالية الجديدة المشتقة مما سبقها ، ولكن الفرق بينهما هو إن الاولى كانت محاولة مزاوجة داخلية بين الفكرين الكلاسيكي والكنزي ، والاخرى محاولة خارجية لاجراء تلك المزاوجة ، باستخدام الوسائل الكينزية خارجيا لفرض الحرية الكلاسيكية على بلدان الجنوب .

وبعد هذه المقدمة عن الليبرالية على وفق المفهوم الرأسمالي ، نقول ، وجدت هذه الافكار صداها في المجتمع العربي عند بعض الاقتصاديين الذين يمثلون النخبة الغنية (التجارية والصناعية) المرتبطة بالمصالح الغربية ، وعندما بدأ عهد الثورات في الكثير من الدول العربية ، التي ادت الى استقلال الكثير

منها في بداية النصف الثاني من القرن العشرين تراجعت هذه الافكار كثيرا مقابل تطور الافكار اليسارية وشيوعها مدعومة من الشرق الاوربي ، ومع تراجع النخبة الغنية بسبب سيطرة الدولة على مقاليد الامور الاقتصادية • ولكن لا يعني ذلك ان الافكار الليبرالية او منظريها قد اختفوا تماما ، وانما كان هناك انزواء مؤقت الى ان تحين الفرصة للظهور مجددا • وقد سنحت الفرصة لهم مع نكسة حزيران وتراجع المد القومي العربي ، مؤقتا ، بسبب الاخفاق العسكري امام الكيان الصهيوني ، لتشهد الساحة الفكرية القومية تراجعا باتجاهين ، الاول نحو اليسار والآخر نحو اليمين ، وهكذا بدأ الفكر الليبرالي ينشط من جديد ، واخذ طوره الواضح مع انتهاء التجربة الناصرية عام ١٩٧٠ وتوجه جمهورية مصر العربية الى الانفتاح ، فقاد فريق من الاقتصاديين ، مصريين وغيرهم من العرب ، إتجاه مفاده « إن العالم قد تغير من حولنا ، وان ما يحدث الان في البلاد الرأسمالية يدعونا لان نغير ايضا من مفاهيمنا وسياستنا تجاه الكثير من القضايا الاقتصادية ، فالبلاد الرأسمالية تصفي الان القطاع العام وتبيعه للقطاع الخاص وتتخلى عن اهداف التوظيف الكامل ومجتمع الرفاهية وتضغط على الاعانات الاجتماعية ، وتستبعد الدولة من الحياة الاقتصادية تاركة المجال لقوى السوق لكي تعيد ترتيب آليات النمو والتوزيع • ليطلق على هذا الاتجاه فيما بعد تسمية « تصحيح المسار » •

وهنا تبنى اولئك المفكرون مواقف عصرانية ، كما يذكر محمد عابد الجابري في كتابه اشكاليات الفكر العربي المعاصر ، تدعو الى تبني النموذج الغربي المعاصر بوصفه نموذجا للعصر كله ، اي النموذج الذي يفرض نفسه تاريخيا صيغة حضارية للحاضر والمستقبل • ولا نريد ان نشكك في مصداقية إيمان اولئك الكتاب ، ولكن نقول إن تلك النزعة لم تكن عند من آمنوا بها فقط ، وإنما عند آخرين دُفعوا اليها دفعا ، اما من قبل اصحاب رؤوس الاموال املا في تنشيطها ، او من سلطة ارادت ان تقيد يديها بنفسها ، او من

مؤسسات وجهات دولية رغبة في توسيع دائرة المعرفة بالرأسمالية والليبرالية من اجل التمهيد لمرحلة قادمة تتخلى فيها الدولة في العالم الثالث عموما ، وفي الوطن العربي على وجه الخصوص عن كل واجباتها الاقتصادية ، كما حدث ذلك فعلا بعد تدخل مؤسستي بريتن وودز (صندوق النقد والبنك الدوليين) في فرض الليبرالية من خلال تطبيق آلياتها في تحرير التجارة وفك القيود والضوابط عن حركة رأس المال ، وبيع مشاريع القطاع العام الى القطاع الخاص ، واضعاف دور الدولة الاقتصادي ، وخفض الانفاق الحكومي في الخدمات الاجتماعية . واردفتها اخيرا منظمة التجارة العالمية في فرض المفاهيم الليبرالية . ونجحت هذه المؤسسات جميعها بالمهام الموكلة اليها في جعل الكثير من الاقتصادات العربية لبرالية ، ترافقها تبريرات الاقتصاديين الموالين لليبرالية الذين ازداد عددهم كثيرا بعد موجة العولمة التي اجتاحت العالم منذ مطلع العقد الاخير من القرن العشرين . ومما ساعد على انتشار التيار الليبرالي بين الاقتصاديين العرب ، إخفاق الفكر المقابل ورواده من مؤيدي نظرية التبعية في مواجهة العولمة وتياراتها ، على الرغم من كثرة كتاباتهم ، بل انهم لم يستطيعوا إقناع الغالبية من الناس بضرورة التخلي عن مكاسب يلمسونها ويرونها في التقنية الهائلة التي جاءت بالمعولمة وجاءت بها العولمة ، خوفا من خسائر مستقبلية غير منظورة ومزيد من التبعية للمركز ، وحتى الذين قبلوا منهم مرغمين بالعولمة ، وهم كثر ، وضعوا مفاهيم تعاني من ازدواجية غير متناغمة بين افكار التبعية التي لا يريدون التخلي عنها ، وبين قبول العولمة بوصفها قدرا لا يمكن الخلاص منه ، ليصلوا بالنتيجة الى انها ظاهرة موضوعية حيادية ، وهي كالتقدم التقني ، كلاهما غير مرتبط عضويا بنظام اقتصادي ــ اجتماعي معين ، اما النظام الذي يسبق غيره في صنعها او التأقلم معها فهو النظام الاكثر تفاعلا مع حركة التاريخ وروح العصر والاكثر قدرة على المرونة والتكيف . وبذلك يحاول اولئك الاقتصاديون ان يصوروا

الصراع على انه صراع بين انظمة ، وليس منظومات فكرية ، حتى يستطيعوا الاستمرار في الترويج لما يؤمنون به •

وساد النمط الليبرالي من الفكر الاقتصادي العربي للعقد الاخير من القرن العشرين ، ومع موجة العولمة الهائجة اليوم لم يعد يستطيع احد ان يتبنى فكرا اقتصاديا مضادا معلنا مقبولا • وكان يمكن ان يصبح ذلك وقتيا ، لولا احداث الحادي عشر من سبتمبر / ٢٠٠١ التي أجلت ظهور المضاد حتى حين •

ومن اكثر العيوب الظاهرة على الفكر الليبرالي هو فقدانه الترابط بين وعي المجتمع العربي لظروفه الراهنة وبين إبداعات الفكر الاقتصادي العربي ، ويبقى هو الاخر ، فضلا عن الفكر التبعي ، يبتعد كثيرا عن البنية القيمية والموروث الديني والاجتماعي للمجتمع العربي •

ومن ذلك نعتقد انه لا يمكن لفكر ان ينسجم مع حركة الواقع العربي ، مستجيبا لقضاياه المصيرية من دون ان يستقي جذوره الاساسية من الفكر العربي الاسلامي المتراكم عبر ما يزيد عن ألف عام خلت ظهور اقدم الافكار الاقتصادية المتداولة اليوم •

المصـــادر

١ ـ عبدالفضيل . د. محمود ، الفكر الاقتصـــادي العربي وقضايا التحــــرر والتنمية والوحدة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1985 .

٢ ـ السيد نجار . احمد ، وآخرون ، الاقتصاد العربي في مواجهة تحديــــات القرن الواحد والعشرين ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

٣ ـ المنذري . سليمان ، الفرص الضائعة في مسار التكامل الاقتصادي والتنمية العربية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٤ ـ قبرصي . عاطف ، ازمات علم الاقتصاد والتقدم الحاصل فيه : اعادة نظر ، المستقبل العربي ، عدد كانون الاول / ٢٠٠١ ، مركز دراسات الوحـــدة العربية ، بيروت .

٥ ـ امين . جلال ، وآخرون ، العرب والتحديات الاقتصادية العالمية ، مؤسسة عبدالحميد شومان والمؤسسة العربية ، عمان ، ١٩٩٩ .

٦ ـ المسافر . د. محمود خالد ، العولمة الاقتصادية : هيمنة الشمال والتداعيات على الجنوب ، بيت الحكمة ، بغداد ، ٢٠٠٢ .

اختبار التمكن من الكتابة العربية

الدكتور مهدي صالح الشمري
كلية المعلمين ـ الجامعة المستنصرية

الملخص :

اختبار موضوعي لقياس مستوى الطلبة في الكتابة مؤلف من (٥٠) فقرة تقوم إجاباتها على الاختيار من المتعدد الرباعي الفقرات ، جمعت هذه الفقرات مما يقع فيه الطلبة من أغلاط ، استنادا الى (٢٣) مضمونا موزعة على اهم موضوعات الكتابة ، كالمطابقة بين النطق والكتابة ، والقواعد التي تتصل بهما ، وما خرج عن هذه القواعد ، والتركيز على المشكلات الرئيسية كشكل الكلمات والعلامات التي ترافق الحروف ، ومعرفة الزائد او المحذوف من الحروف ، وتمييز الكتابة القرآنية من القياسية ... الخ .

ويتميز الاختبار بالسعة والدقة والتنوّع ، وتجنب مشكلات الاملاء الاختباري الذي يملى على الطلبة استنادا الى السماع الذي قد يسبب الوهم ..

وأهم ما يتوقع لهذا الاختبار من تتائج ، إظهار مواضع الخلل في أسس بناء تعليم الكتابة العربية كتأخير تعليم الكتابة وعدم قصد ما يناسب اللغة العربية .

المقـدمـة :

هذا البحث ثمرة تدريس مادة الكتابة العربية مدة ثلاث سنوات في كلية المعلمين ، ونتيجة لحوار جاد مع الطلبة اولا ، والمصادر قديمها وحديثها ثانيا ، وجولات مع الذين لا يرون كثرة أغلاط المعلمين والمدرسين بله الطلبة في مراحل الدراسة ثالثا ، وحماس لما عندنا من صحيح مجرب يستند الى منهج رصين ، شيده علماء اجلاء من امم شتى قرونا طويلة ، لا اظن لغة اخرى حازت مثله ، وعلى مكانته هذه لا نسلم له بل علينا ان نطوره جيلا بعد جيل رابعا وخامسا .

وليت الذين يسعون في هدم تعليم الكتابة على طرائق القدماء يأتون بالافضل ، وليتهم بحثوا عمّا يناسب اللغة العربية ، ولم يستسلموا للغربيين ، وربما أضروا من حيث ارادوا النفع وسببوا الشكوى من القراءة والكتابة التي كانت تنتهي في السنة الاولى او الثانية من سني التعليم في حين اضحى الطلبة لا يضبطونهما حتى في مراحل الدراسة العليا ، وهما المهارتان اللتان يتعذر بسببهما الفهم والتعبير الصحيح بله المتعة وإدراك الجمال ، وبات هؤلاء الطلبة ضحايا الطرائق التي لا تناسب العربية إذ ينفرون من لغتهم الكريمة فكأنّ بعض مدّعي الحداثة يقيسون على سير السيارات في الشوارع العامة إمكان سير القاطرة عليها . والكتابة العربية تظهر خصائص هذه اللغة في قواعد يسيرة يسهل تعلمها وسرعان ما يتمكن منها المبتدىء لان كتابة الكلمات تصوير لالفاظها ومطابقة بين نطقها ورسمها تطابقا يكاد يكون مطلقا لولا ما شذ وندر وهذا بدوره يمكن ان يحاط به لقلته ، وتمتاز الكتابة العربية بالمقابلة بين المقطع الصوتي والمقطع الكتابي وما المقطع الكتابي إلا الحرف الصحيح الذي يتبع إما بحركة او حرف مد وقد يغلق بحرف صحيح ساكن آخر ، بعد الحركة أو حرف المد . وقد تتألف من مقطع واحد مثل: فِي ، ولِ ، ودَارْ ، ولا أو من أكثر من مقطعٍ واحدٍ مثل : (اَلْ ، حَمْـ ، دُ) ومعرفة المقاطع وتمييزها والمران عليها صوتا وكتابة مصدر يسر تعلم العربية قراءة وكتابة

تعلما دقيقا متقنا في المراحل المبكرة من التعليم ، في حين ينعكس التأخير المتعمد بالضرر على كل العلوم التي يراد تعليمها ولا سيما تذوق الفنون الادبيــة او النحو والصرف والمعارف عامة ، اما ترك المقطع والبدء بالكلمة او الجملة كما يسعى المحدثون في العقود الاخيرة فيؤدي الى تأخير ضبط القراءة والكتابـة اذ تختلط عند المتعلم الكلمات المتشابهة ، ويعسر التعلم والتعليم وتـــزداد الشكوى من صعوبة العربية ويغيب الاتقان ، لسبب غاية في الوضوح هـــو التغير الصرفي للكلمة العربية ، فيما يزاد الى اول الكلمة او آخرها في صرف اللغات التي استعاروا تعليمها ، وازعم ان هذا سبب انحراف تعليم القـــراءة والكتابة إلى ما لا يلائم ، واصطنعت مشكلة لم تكن موجودة وهـــي فصـــل الكتابة عن القراءة وتأخير تعليمها ، وربما لا يتسنى للمتعلم ضبطها وان بلـــغ المراحل الدراسية العليا ، وبركوب المحدثين المركب الصعب مدّعين الرفـــق بالمتعلمين فمنعوا تحفيظهم الحروف ومقاطعها ، وهم كمن يحشو بندقيته بعتاد مختلف ، ويسلّم للحداثـــة المجتلبة من دون أن يقـــدر ضررها والنتائج غـــير المحمودة التي ستحدث بسببها •

ولمّا كانت القضية اللغوية قضية كبرى تتصل بجوهر وجود الامـــــة وشخصيتها ، وهي وسيلة التعلم الاولى ، واساس التطور ، اضحى البحـــث فيما يحسّن تعليمها ضروريا ولاسيما المراحل التعليمية الاولى التي تولاهـــا غير المتخصصين وصار مستغربا ان يتحدث المتخصص في مشكلات تعليمها •

مشكلة البحـــث :

يلحظ المهتمون تزايد الاغلاط الكتابية عند طلبة المرحلة الجامعية ، حتى إنّ قسما كبيرا منهم لا يحسن ضبط كتابة سطرٍ واحدٍ من دون غلـــطٍ ، ولا يميز مقاطع الكلمة ولا الحركات المتصلة بحروفها ولا العلامات المصـــاحبة لها تمييزا دقيقا ، وصار التوجيه المتأخر في المرحلة الجامعية لا يجـــدي نفعا بعد ان رسخ الغلط وتخشّب العود وتمكن من الالســـنة والعقول والايـــدي ،

وامسى هؤلاء الطلبة ضحايا التوجيه المغلوط غرباء عن لغتهم يظنون بهـا الظنون التي لا تستحق ، فحين يكتبون او يقرؤون يغلطون ولا ضابط عندهم يستندون اليه •

ومن اهم اسباب الغربة استعارة الطرائق التي لا تناسب العربية ، او كأنهم استبدلوا « الذي هُوَ أدْنَى بالذِي هُوَ خَيْرٌ » البقرة (٦١) •

وقد ادت خطوات تعليم القـراءة والكتابـة المتعثرة الاولى ، والاسس الواهنة ، والمقاييس غير الدقيقة الى نتائج غير سليمة ولا ندّعي هذا ادّعاءً إنما الحكم على المشاهد والملموس والشمس لا يحجبها الغربال •

اهمية البحث :

تنطلق اهمية البحث من الحاجة الى إظهار مواطن ضعف طلبة كليـة المعلمين في الكتابة إظهارا يبرز المستوى الحقيقي استنادا الى مقياس موضوعي يتسع لابرز ما يمكن ان يقع فيه الطلبة من اغـلاط والى إثارة اهتمام المعنيين باعداد المعلمين ولا سيّما اهل اللغة وطرائق تعليمها ، والى التفكير بالعودة الى مزيّات العربية وخصائص تعليمها وما يناسبها •

واعتماد القواعد اليسيرة التي تتسرب الى التلاميذ في السنة الاولـى من التعليم ثم تعزز في السنة الثانية لتكون كاملة فيما بعد حتى لا ينتهـي الطالب من الابتدائية إلا وقد تمكن من القراءة والكتابة ، لان هاتين المهارتين متصلتان في اللغة العربية ، وهما غير ذلك في الانكليزية مثلا لان الشاذ اكثـر مما يقع تحت القاعدة والكتابة لا تطابق النطق وما يخالف ما ينطق من الحروف معروف عندهم لا داعي لان نمثّل له •

واذا كان حفظ الحروف العربية وحركاتها والتدرب على مقاطعها عسيرا اول التعلم ـــ كما يدّعي المدّعون ـــ فلا بد من وسائل تعليمية سمعية ومرئية مناسبة تيسر ذلك استنادا الى ما يشجعون عليه في رياض الاطفال من تحفيظ

الحروف الانكليزية كما يظهرون في وسائل الاعلام •

وتتضمن فقرات الاختبار اختبار الكلمات والمقاطع والجمل اليسيرة المتداولة التي تظهر ضعف الاسس والجهل بقواعد الكتابة العربية التي لا يُتَصوَّر فقدانها عند من هم بهذه المرحلة الدراسية المتقدمة •

اهداف البحث :

يهدف المقياس الى اختبار طلبة كلية المعلمين في مادة الكتابة العربية •

حدود البحث :

يتحدد البحث بما يأتي :

١ ـ طلبة كلية المعلمين ـ بغداد ـ الجامعة المستنصرية ـ المرحلة الثانية ـ فرع اللغة العربية •

٢ ـ العام الدراسي ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١

٣ ـ الاختبار مصمم لمادة الكتابة العربية •

تحديد المصطلحات :

اولا : الاختبار :

١ ـ عودة ١٩٩٣ : (قياس يعد على وفق طريقة منظمة من خطوات عدة تتضمن مجموعة من الاجراءات التي تخضع للشروط والقواعد المحددة لتعيين درجة امتلاك الفرد لسمة او قدرة معينة من إجابات عن عينة من المثيرات التي تؤلف السمة او القدرة المرغوب بقياسها) •

٢ ـ تعريف Good ١٩٧٣ : مجموعة من الاسئلة او المهمات التي يطاب من الطلبة الاجابة عنها ، الغاية منها الحصول على عرض نوعي لتأثر التلاميذ، وقد صممت لقياسها المجموعة •

٣ ـ التعريف الاجرائي : مجموعة من الفقرات المنظمة لقياس تمكن الطلبة من الكتابة العربية استنادا الى اسسها وقواعدها •

ثانيا : كلية المعلمين :

كلية المعلمين من بين مجموعة كليات تعد معلمين من خريجي الاعدادية لحمل شهادة البكالوريوس بعد اربع سنوات من الدراسة لمواد تربوية ومواد تخصص لـ (١١) فرعا ومنها فرع اللغة العربية •

الدراسات السابقة :

لم يجد الباحث دراسة مباشرة بالسعة والتنوع والاهداف في قياس التمكّن من الكتابة العربية ، لكنه وجد دراسات قريبة منها هي :

دراسة الشبلي ١٩٦٠ :

وفيها مسح للاغلاط الاملائية واسبابها في المرحلة الابتدائية والاعدادية ومعاهد المعلمين والمعلمات ، وقد اختار الباحث قسما من قواعد الاملاء مستندا الى قطع تناسب كل مرحلة ، وكانت نتائج بحثه :

١ ــ اختلاف الاغلاط باختلاف المراحل •

٢ ــ كثرة اغلاط البنين موازنة بالبنات في المراحل كافة •

٣ ــ كثرة اغلاط طلبة معاهد المعلمين والمعلمات في موضوعات لا يتوقع ان يغلطوا فيها •

٤ ــ ترك بعض الطلبة كتابة الكلمات التي يخشون الغلط فيها •

٥ ــ إقرار الباحث بصعوبة الاملاء وضرورة تيسيره ، وليس من التيسير فيما نرى ــ ترك القواعد او تأخير تعليمها •

دراسة عرقسوس ١٩٧٦ :

اختبار لقياس صحة كتابة الكلمات مفردة او في جمل ، وقد اجري لطلبة معاهد المعلمين والمعلمات عام ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ ، وتألف الاختبار من (١٩٢) فقرة بين صحيحة ومغلوطة ، ولم يتعرض لكل مشكلات الاملاء إنما

اكتفى بقسم منها كزيادة الحروف او حذفهـا وكتابة الهمـزة ، والحـروف المتشـابهة •

دراسة منى بحري ١٩٧٣ :

وفيها تقويم لاختبارات الاملاء لطلبة المرحلة الرابعة الابتدائية في مدارس العراق ١٩٧٠ـ١٩٧١ وقد جمعت فيه (٢٠٢) اختبار املائي ذاكـرة عيـوب هذه الاختبارات ومنها طول الاختبار او قصره او الغموض والعشوائية ، دلالة على ضعف الخبرة وقلة بذل الجهد ، ولم يتطرق الى الملاءمـة والتمكن مـن الضبط ومناسبة اللغة ، لان الباحثة ليست متخصصة باللغة •

دراسة مجاور محمد صلاح الدين ١٩٧٤ :

ويظهر فيها اهتمام الباحث بمنهج تعليم اللغات الغربية ولا سيما اللغـة الانكليزية ، اذ يدعو الى تحفيظ الكلمات لكل مرحلة دراسية :

ففي الصف الاول الابتدائي يتعرف الطالب كتابة اسمه واسم ابيه واسم جده ، واسماء زملائه ، واسماء بعض الحيوانات ••• الخ •

وفي الصف الثاني يكتب اسم المدرسـة والمدرس والناظـر ، واليوم والشهر ويميّز اصوات بعض الحروف المتشابهة وينقل الجمل والاعلانات •

وفي الصف الثالث ينقل فقرات ويكتب عبارات ترحيب او توديع ويتقن تمييز الحروف الشمسية من القمرية •

وفي الصف الرابع يكتب رسالة قصـيرة صحيحة الهجاء وينقـل فقرات قصيرة •

وفي الصف الخامس الابتدائي الى الاول المتوسط يتعرف كتابة التـاء المبسوطة والمربوطة والحروف الزائدة وكتابة مئة كلمة من دون غلط وقواعـد الهمزة عدا الصعب منها •

وفي الصف الثاني والثالث من المتوسطة إتمام الهمزة وإتقانها .

وفي الصف الرابع الاعدادي إكمال الاملاء بالتدريب المستمر والبحث عن نموذج لمحاكاة طريقة الانكليزية في تعليمهم كتابة لغتهم ، ويتضح هذا في عرض الباحث لموضوع : (الدراسات الاجنبية) من صفحة (٤٩-١٠٠) اي ربع عدد صفحات الكتاب وأهم ما ألمع اليه فصل الكتابة من القراءة وإبعاد الهجاء والتهجئة اساسا لتعليم الكتابة و (أنها اساس خاطيء ، يجب ان يبدل بتقديم المفردات) . بحسب رأيه من دون المرور بالتهجئة بل قوائم تناسب الاطفال وحاجاتهم موزعة على المراحل التعليمية ، ومن الكلمات الاكثر تداولاً واكثر تكرارا اذ تقدم استنادا لهذا . وفي هذا مسلك للتعسير بما لا يناسب اللغة العربية .

دراسة الدليمي محسن علي عطية ١٩٨٧ :

الاخطاء الاملائية لدى طلبة المرحلة المتوسطة : قصد الباحث معرفة المواد الاكثر غلطا عند الطلبة في هذه المرحلة ، وقد وجد أنها تقع في كتابة الهمزة وتحويل كتابة الحركة حرفا صحيحا وكان أقلها إسقاط (ال) التعريف والخلط بين الذال والظاء وتجزئة الكلمة ، وأوصى بضرورة الاهتمام باعداد المدرسين ليتمكنوا من الكتابة الصحيحة وان لا يقتصر هذا على مدرسي العربية بل يتعداه الى مدرسي المواد الاخرى .

دراسة جمعة رشيد كضاض الربيعي :

الاخطاء الاملائية لدى طلبة كلية المعلمين ـ الجامعة المستنصرية ـ يقوم الاختبار على اعتماد قطعة إملائية مختارة تتضمن ما يتوقع ان يقع الطلبة من اغلاط مؤلفة من (١٢٢) كلمة تملى على الطلبة إملاءً اختباريا يختبر (٣٠) طالبا من المرحلة الاولى ، واتضح من الاختبار ان الغلط بحذف الالف او إثباتها بعد واو الجماعة اكثر مواضع الوقوع في الغلط وبعده الغلط بكتابة الهمزة

في آخر الكلمة ثم الهمزة وسط الكلمة ثم الالف مقصورة او ممدودة آخر الكلمة ثم كتابة الضاد ظاء ثم الغلط في كتابة التنوين ثم كتابة التاء .. الخ . وكان البحث قد قدم تسعة انماط من الغلط ، غلط الطلبة فيها بحسب النسبة المئوية ، واوصى بالاهتمام بقواعد الاملاء ، ولم يتصدَّ الى سبب الغلط الذي يعود الى اول مراحل التعليم فكأنّه ذكر النتائج وترك الاسباب الحقيقية .

اجراءات البحث :

اعتمد الباحث الاجراءات الاتية :

اولا : تحديد مجتمع البحث :

وقد تألف من طلبة فرع اللغة العربية ـ كلية المعلمين ـ الجامعة المستنصرية للعام الدراسي ٢٠٠٠/٢٠٠١ والجدول (١) يوضح ذلك تفصيلا .

جدول (١) يبين توزيع افراد العينة مصنفين بحسب الجنس والمرحلة

المرحلة	إناث	ذكور	مجموع
المرحلة الثانية	٦٣	١٨	٨١
المرحلة الثالثة	٦٤	٤٨	١١٢
المرحلة الرابعة	٨٦	٥٢	١٣٨
المجموع	٢١٣	١١٨	٣٣١

ثانيا : عينة البحث :

اختيرت من طلبة فرع اللغة العربية المرحلة الثانية ، عينة قصدية ، ومن بينهم عينه بعدد (٥٢) طالبة وطالبا والجدول (٢) يظهر عينه البحث تفصيلا .

جدول (٢) يبين توزيع افراد العينة مصنفين بحسب الجنس

	إناث	ذكور	المجموع
قاعة رقم ١	١٩	٠٦	٢٥
قاعة رقم ٢	٢٠	٠٩	٢٩
قاعة رقم ٣	٢٤	٠٣	٢٧
المجموع	٦٣	١٨	٨١

ثالثا : اداة البحث :

لما كان الاختبار يهدف الى معرفة تمكن الطلبة من الكتابة العربية استنادا الى الاسس الصحية التي تقوم على المطابقة بين النطق والكتابه والقواعد التي تتصل بهما . والاحاطة بما خرج عن هذه القواعد ، ومما ارتبط بالنحو والصرف من الكتابة . واعتمد الباحث على خبرته الشخصية في التدريس جامعا اكبر عدد من الاغلاط التي وقع فيها الطلبة ثم صنفها الى مجموعات ليطلع على ما درسه هؤلاء الطلبة في مراحل دراستهم السابقة بحثا عن الاسباب الحقيقية لهذه الاغلاط والتركيز على المشكلات الرئيسة كشكل الكلمات والعلامات التي ترافق الحروف ومعرفة الزائد او المحذوف من الحروف وقواعد المطابقة بين النطق والكتابة ومواضع الشذوذ وتمييز رسم المصحف والضاد والظاء والتاء والهاء ... الخ .

ثم راح يفيد من النتائج التي توصلت اليها الدراسات السابقة محاولاً وضع مضمون يتسع لاهم ما يتوقع ان يقع فيه الطلبة من اغلاط استنادا الى اسس صحيحة وموضوعات مناسبة ومنهج دقيق ، ولاجل كل ذلك اتخذ الباحث مجموعة إجراءات لضمان سلامة الاختبار وتحقيقا لرصانته العلمية •

٢ ـ صياغة الفقرات :

وضع الباحث استنادا الى تنائج الخطوة السابقة اكثر من (١٠٠) فقرة موضوعية تؤلف فقرات الاختبار ، وهي من الاختيار من المتعدد رباعية بدائل الاجابة **Milti play - choice**، تستوعب محتوى الاختبار وتسأل عن سبب كتابة كلمات او كتابات مقترحة إحداها صحيحة لكلمات ترك مكانها فارغا • وكان مضمون الفقرات المقترحة ما يأتي :

١ ـ الخلط بين الحروف والحركات •
٢ ـ المطابقة بين النطق والكتابة •
٣ ـ تمييز العلامات التي ترافق الحروف كالمد والوصل والتشديد •
٤ ـ زيادة الالف او حذفها من مثل قرؤوا او قارئو •
٥ ـ كتابة الالف مقصورة او ممدودة •
٦ ـ الحروف الشمسية والقمرية •
٧ ـ ضبط حركات الحروف في الكلمات •
٨ ـ تمييز كتابة التنوين رفعا ونصبا وجرا •
٩ ـ ضبط موضع تنوين الكلمات المنتهية بألف مقصورة •
١٠ـ كتابة ألف تنوين الفتح وحذفها •
١١ـ الهاء والتاء المدورة •
١٢ـ التاء مبسوطة ومربوطة •
١٣ـ الضاد والظاء •

١٤ــ حذف الالف من البسملة .

١٥ــ الوصل والفصل .

١٦ــ التمييز بين عمرو وعمر .

١٧ــ تمييز اللذين من الذين .

١٨ــ زيادة الواو في أولى .

١٩ــ حذف حرف العلة في آخر الكلمات .

٢٠ــ ضبط كتابة الهمزة اول الكلمة ووسطها وآخرها .

٢١ــ وضع الهمزة فوق الالف او تحته .

٢٢ــ تمييز الكتابة القرآنية من القياسية .

٢٣ــ تصحيح بعض الاوهام في كتابة بعض الكلمات مثل محيي ومئة وأذان وهيأة .... الخ .

وقد نظم الاختبار في صورته الاولى ووضعت له مقدمة احتوت الهدف منه ليعرض على لجنة من الخبراء من اللغويين والمختصين بالقياس التربوي(*) وقد طلب منهم تحديد صلاحية كل فقرة من الفقرات صياغة وبدائل الاجابة ، وصلاحيتها لقياس تمكن الطلبة من الكتابة العربية .

(*) الخبراء الاستاذ الدكتور نعمة رحيم العزاوي ــ كلية التربية ــ ابن رشد ــ لغوي ونحوي

الاستاذ الدكتور هاشم طه شلاش ــ كلية التربية ــ ابن رشد ــ نحو وصرف

المدرس الدكتور عبدالرزاق الاحبابي ــ كلية المعلمين ــ لغة ونحو

الاستاذ الدكتور عبدالله الموسوي ــ كلية التربية ــ ابن رشد ــ تربية

الاستاذ الدكتور خليل ابراهيم رسول ــ كلية الاداب ــ قياس وتقويم

الاستاذ المساعد الدكتور حاتم السامرائي ــ كلية المعلمين ــ تربوي

واستنادا الى نسبة إحصاء ٨٠٪ معدلا لقبول كل فقرة صالحة يرتضيها الخبراء وحذف ما لا يرتضونه وقد حذفوا (٢٠) فقرة فضلا عن الافادة من الاراء التي عدلت الفقرات بموجب الاقتراحات التي اقترحوها حتى اصبح عددها (٨٠) فقرة وهذه هي صورة الاختبار الثانية بعد مروره على الخبراء .

٣ ـ تجريب الاختبار :

جرب الاختبار وقوفا على ملاءمة فقراته ومناسبتها مستوى الطلبة ، وتقديرا للوقت اللازم للاجابة عن هذه الفقرات ، ومعرفة وضوح التعليمات والفقرات نفسها ، فاختار الباحث عينة عشوائية مؤلفة من (٣٠) طالبا وطالبة ، ثم طبق الاختبار عليهم تحت إشرافه . وخلص من هذا التجريب الى وضوح التعليمات وصياغة الفقرات استنادا الى اجابات افراد العينة ، وقد كان متوسط الوقت اللازم لانجازه (٥٠) دقيقة .

٤ ـ التحليل الاحصائي للفقرات :

يراد بالتحليل الاحصائي للفقرات دراسة إجابة افراد العينة لكل فقرة وصولا الى معرفة مؤشرات : أ ـ الصعوبة . ب ـ التمييز . ج ـ فعاليّة البدائل المغلوطة(*) ولتحقيق ذلك اختار الباحث عينة عشوائية حددت بـ (٥٠) طالبا وطالبة ، مطبّقا عليهم الاختبار ، ثم فرّغ إجابات أفراد العينة لكل فقرة بتحديد الاجابات الصحيحة والاجابات المغلوطة ، ثم عولجت البيانات باستخدام البرنامج الاحصائي (Spss) بعد تقسيم العينة على مجموعتين ، العليا وتؤلف (٥٠٪) اي (٢٥) ورقة إجابة ومثلها المجموعة الدنيا.

اولا : الصعوبة (difficulty) :

يتحدد مفهوم الصعوبة بالنسبة المئوية للاجابات الصحيحة في المجموعتين

(*) عدس (١٩٩٠) ص ١١٠ .

(العليا والدنيا) (عودة ١١) ، وقد تراوحت الصعوبة بين (١٠ر٠ — ٨٧ر٠) (عودة ٢٨) وبمعدل (٥٠ر٠) ابعدت (٣٠) فقرة لم تصل معاملات صعوبتها الى الحد الذي يجيزه المعيار ، والفقرات المبعدة هي :

٢ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ٧٩ .

ولذا اصبح الاختبار يتألف من (٥٠) فقرة بعد حذف الفقرات اعلاه بسبب كونها سهلة جدا او صعبة جدا .

ثانيا : القوة التمييزية Discrimination Power :

ويقصد بها القدرة على التمييز بين الطالب الضعيف والطالب القوي (عدس ١٩٩٠ ص ١١٢) وتعتمد القوة التمييزية على الفرق بين الاجابات الصحيحة بين المجموعة العليا والدنيا وتنحصر قيمتها بين (–١ ، صفر ، +١) وهو معيار تقبل به الفقرة او تبعد كما في (عودة ٢٨) إذ بين صعوبة الفقرة وقوتها التمييزية ، فاذا كانت الفقرة صعبة جدا او سهلة جدا ضعف تمييزها ، وكان مدى القوة التمييزية للفقرات بين (١٢ر٠ — ٤٦ر٠) واستبعدت الفقرات التي استبعدت في ضوء مؤشر الصعوبة لان بعضا منها كان تمييزه سالبا وبعضا منها كانت ضعيفة .

ثالثا : فعالية البدائل المغلوطة :

لابد للبدائل المغلوطة او ما يدعونها بالموّهات ان تقنع الطالب الضعيف وتوهمه بانها الصحيحة وعلى قوة تمويهها يقوم نجاح الاختبار الاختيار من متعدد ، وبهذا يكون البديل فعالا كلما جذب اكبر عدد من افراد المجموعة الدنيا ، وفي ضوء هذا المفهوم اعيدت صياغة بعض البدائل او ابدالها لتكون اكثر فعالية ، اعتمادا على تكرارها بديلا مغلوطا مقنعا للطالب الضعيف بالنسبة

للمجموعتين العليا والدنيا • وفي ضوء هذه الاجراءات اعيد ترتيب الفقـرات بحسب مؤشر الصعوبة الذي يتداخل هو ومؤشر القوة التمييزية لابعـاد الفقرات او إبقائها في الاختبار لتنسجم والهدف العام لاختبار التمكن •

مؤشـر الصـدق :

الذي يعرف بقدرة الاختبار على قياس ما وضع من اجل قياسـه (١١) وافاد الباحث من نوعين من انواع الصدق هما :

اولا : صـدق المحتوى content Validity : :

الذي يتحدد مفهومه بقدرة الاختبار على استيعاب المجـال السلوكـي للظاهرة المقيسة (١١) ويتطلب ذلك عرضا لصورة الاختبار الاولية على لجنة من الخبراء المختصين وقد وضح في الخطوة السابقة •

ثانيا : الصدق البنائي Construction Validity : :

الذي يتحقق باظهار مؤشر الانساق الداخلي (٢) والذي يعتمد علـى استخراج معامل الارتباط بين درجة الفقرة والدرجة الكلية للاختبار محكـا داخليا استعانة بالبرنامج الاحصائي (Spss) وصولا الى معامل الارتبـاط الذي كان (٣٧٨ر٠ ــ ٤٦٩ر٠) ومرجع جميع معاملات الارتباط دالا احصائيا عند مستوى دلالة (٠١ر٠) وتظهر هذه النتائج اتصاف الاختبار بنوع مـن الصدق البنائي •

الثبـات :

يعرف الثبات بقدرة الاختبار على إعطاء نتائج ثابتة عند إعادة تجربتـه ثانية (٢) وقد اعتمد الباحث طريقة التجزئة النصفية للفقرات الفردية والزوجية وكان معامل الثبات نتيجة هذه التجزئة (٦٥٧ر٠) وبتصحيحه بمعاملة سبيرمان براون اصبح (٧٨ر٠) وهو معامل ثبات مقبول لاغراض هذا البحث •

وبهذه الاجراءات تأكد الباحث من مؤشرات الصدق والثبات •

تصحيح الاختبار :

اقتضت طبيعة الاختبار الذي يهدف الى قياس تمكن الطالب من الكتابة العربية الى وضع تعليمات التصحيح باعطاء درجة (واحدة) اذا كانت الاجابة صحيحة ودرجة (صفر) اذا كانت الاجابة مغلوطة وبهذا تتراوح الدرجة ما بين (صفر ـ ودرجة واحدة) ولما كان عدد الفقرات الكلي للاختبار بصورته النهائية (٥٠) فقرة فتكون الدرجة العظمى (٥٠) درجة والصغرى (صفرا) والمتوسط (٢٥) درجة .

واعتمد الباحث الدرجة (٣٠) درجة قطع يتحدد عندها تمكن الطالب من الكتابة العربية ، اي اذا كانت درجة الطالب (٣٠) درجة فما فوق يعد متمكّنا ، وما كان ادنى من (٣٠) درجة غير متمكن ، ويعزو ذلك الى اهمية الكتابة لانها تعبر عن تمكن الطالب من مهارة من اربع مهارات رئيسة هي : القراءة والكتابة ـ وهما متلازمتان وتتقنان معا ـ ومن لم يتمكن منهما لم يتمكن من الفهم والتعبير .

وبذا اصبح الاختبار جاهزا للتطبيق على افراد مجتمع البحث .

الوسائل الاحصائية :

اعتمد الباحث الوسائل الاحصائية في إجراء البناء على :

١ ـ النسب المئوية .

٢ ـ معامل ارتباط بيرسن لاستخراج مؤشرات الاتساق الداخلي والثبات .

المصـــادر

١ ـ بحري ، منى ، ١٩٧٣ ، تقويم اختبارات الاملاء للمرحلة الرابعة الابتدائية.

٢ ـ البيان الختامي لندوة اللغة العربية والوعي القومي ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٤ .

٣ ـ حنودة ، احمد حسن ، مقياس التمكن من القدرات الاساسية للغة العربية ، دار المطبوعات الجديدة ، ١٩٨٤ .
٤ ـ خاطر ، محمود رشدي وآخرون ، تطور مناهج تعليم القراءة في مراحل التعليم العام ، ط٢ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ١٩٩٢ .
٥ ـ الدليمي ، محسن حسن عطية ، اثر القراءة الصامتة في تحصيل بعض المهارات اللغوية ، الصف الخامس الابتدائي ، دكتوراه ، تربية بغداد ، ١٩٩٧ .
٦ ـ الربيعي ، جمعية رشيد ، اثر اسئلة المناقشة المعدة على وفق تصنيف بلوم الاداء التعبيري لطلبة الثاني المتوسط ، رسالة دكتوراه ، تربية بغداد ١٩٩٧ .
٧ ـ الركابي ، جودت ، طرائق تدريس اللغة العربية ، دار الفكر ، دمشق ١٩٧٣
٨ ـ السامرائي ، هاشم وآخرون ، طرائق التدريس العامة وتنمية الفكر ، دار الامل للنشر والتوزيع ، الاردن اربد ١٩٩٤ .
٩ ـ شحاته ، حسن ، اساسيات في تعليم الاملاء ، معالم تربوية ، مؤسسة الخليج العربي ، القاهرة ١٩٨٤ .
١٠ـ شلبي ، عبدالفتاح اسماعيل ، تيسير قواعد الاملاء ، منشور في اساسيات تعليم الاملاء اعداد الدكتور حسن شحاتة ، من سلسلة معالم تربوية ، مؤسسة الخليج العربي ، القاهرة ١٩٨٤ .
١١ـ عدس ، عبدالرحمن ، بناء الاختبارات التحصيلية بالنسبة للمعلم ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ص١١٠ .
١٢ـ عرقسوس ١٩٧٦ عن السيد ، محمود احمد ، الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٠ .
١٣ـ عودة ، احمد سليمان ، القياس والتقويم في العملية التدريسية ، دار الامل الاردن ١٩٩٣ .
١٤ـ مجاور ، محمد صلاح الدين ، تدريس اللغة العربية اسسه وتطبيقاته التربوية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ .
15- Good, Carter, V. Dictionary of Education 3rd, NEWYORK Macaw HiH 1973
16- Scannell, D. Testingan Measurement in the Classroom, Houghton, Bosting, 1975, P. 214

EUROPIAN EFFECT ON ANDULUSIAN MEDICIEN

Dr. A. L. AL - Badri

ABSTRACT

At the beginning of the 6th century the church have completely dominated the traditional education in the west, by closing Platoon academy of Athens, thus it was the signal of the and of the Greek civilization that would have abolished most of the sciences unless the Arab took the lead to preserve them, first by translating the Greek literature to Arabic and keeping the name of the author who wrote them, then by adding their experience and comments and finally expanded them with their knowledge.

The umaian were the starter then the Abassian followed who later have added too many important expansions. Finally the Andulusian raised the level to the top, translated the work to Latin and made all medical sciences available to the europians as references and curriculum of teaching in the universities for about five centuries.

CHANGING ASPECTS OF IRAQ SOCIAL ENVIRONMENT

Dr. Ali M. Al-Maiyah **Dr. Khalis Al-Ashab**

ABSTRACT

Since the 17th - 30th July, 1968 revolution Iraq has undergone radical socio economic changes. Per capita more than doubled and the rural areas had completely changed. Urban centers increased in size and number. They start to have a new housing development projects, better transportation facilities, schools and universities, large scale new industries, and modern agricultural methods. It is in fact, a continuous interrelated process brought to life new social changes to the family, city, and the country. Such a process has to be studied always.

RESUME OF THE RESEARCH

Sayf Al Dynne Mohammed Al-Hadithi

College of Management and Economy

Baghdad University

ABSTRACT

In the light of the unstability that the world oil market has been wittnessing, and due to the fluctuations of the oil prices during the last two decades and its reflection on the economies of the producing countries, the research elaborasted on the following :-

1 - the retreat of the role played by the organisation of the petroleum exporting and producing countries (OPEC) in the world oil markets, and the influence of the U. S. A. on some of their members which affected the unity of (OPEC).

2 - The increasing role of the independent oil producing countries (outside OPEC) and the availibilty of their crudes in the world markets, besides the importance of the co-ordination and co-operation with (OPEC) countries which maintain the stability of the oil mrakets in terms of production and prices in order to achieve the interests of the producing and the consuming countries through the stability of the increasing demand on oil and its products in future.

" DAMASCUS SWORDS "

" Scientific and Technological Secrets "

Dr. Fida S. Mohammed-Ali

Expert of military industry corporation

ABSTRACT

Still, The damascus swords represent rare antique for the international museum to gain, not for their beauty but also for the mystery behind the craft, the secrets of which embaraced metallurgists and material scientists till now - aday. The last damascus swords (of the original quality) are thought to be engraved not later than 18th century, but the complete understanding of the scientific and technological secrets of the high quality of the old product are still missed, despite the great development in metal and material sciences during the 20th century.

In this research analysis carried out to diagnose the different knowledge that could be contained in the know - how secrets from the modern view of metallurgy, the matter that makes the manufacturing of damascus sword a suitable subject to discuss the interaction between science and technology (know - why and know - how).

The method of analysis and inspection adopted in this research by comparing the modern theoretical aspects of the diagnozed knowledge with that of the old understanding by the antiquity indicates that Arabs had a know - why background that help in developing the unique damascus sword industry.

THE TRADE CARAVAN STATIONS BETWEEN MOSUL AND NASIBEEN DURING THE ISLAMIC PERIODS

ABSTRACT

The road between Mosul And Nasibeen represent part of the main road which connetc the city of Mosul with Southern Anatolia and Northern Syria. The essential of this road to the life cause the flourishing of the road Station, especially during the early Islamic period, those Stations were gradually retreated after the 4.th. century A.H. because of the Change of this road towards the south and the west therefore, instead of running through the previouse stations it pass through 'Ain - Al - Rasid, Maraq Jaddal adn Bashzi.

Some modern scholars suspicion where they refer to this road without noticing the change which took place on the paths of this road during the late Islamic periods, Therefore They made many mistake concerning the way of this road and its caravan sations, for this reason this subject has been chosen by the two scholar who whote this paper.

The main reason for change of the Paths of this real and its caravan stations has been discussed by Jaqut-Al-Hamawy under Briqceed and Bashzi and he refered to the robbery and attacks on the commercial caravans, for this reason he said, "when they increase of this attacks on the caravans they avoided them and made their road towards Bashzi trerfore the market moved to Bashzi as well".

This change which took place on the paths of this road did not restrected on commercial caravans only but also effected the military caravans which used to travel through this road between Mosul and Syria.